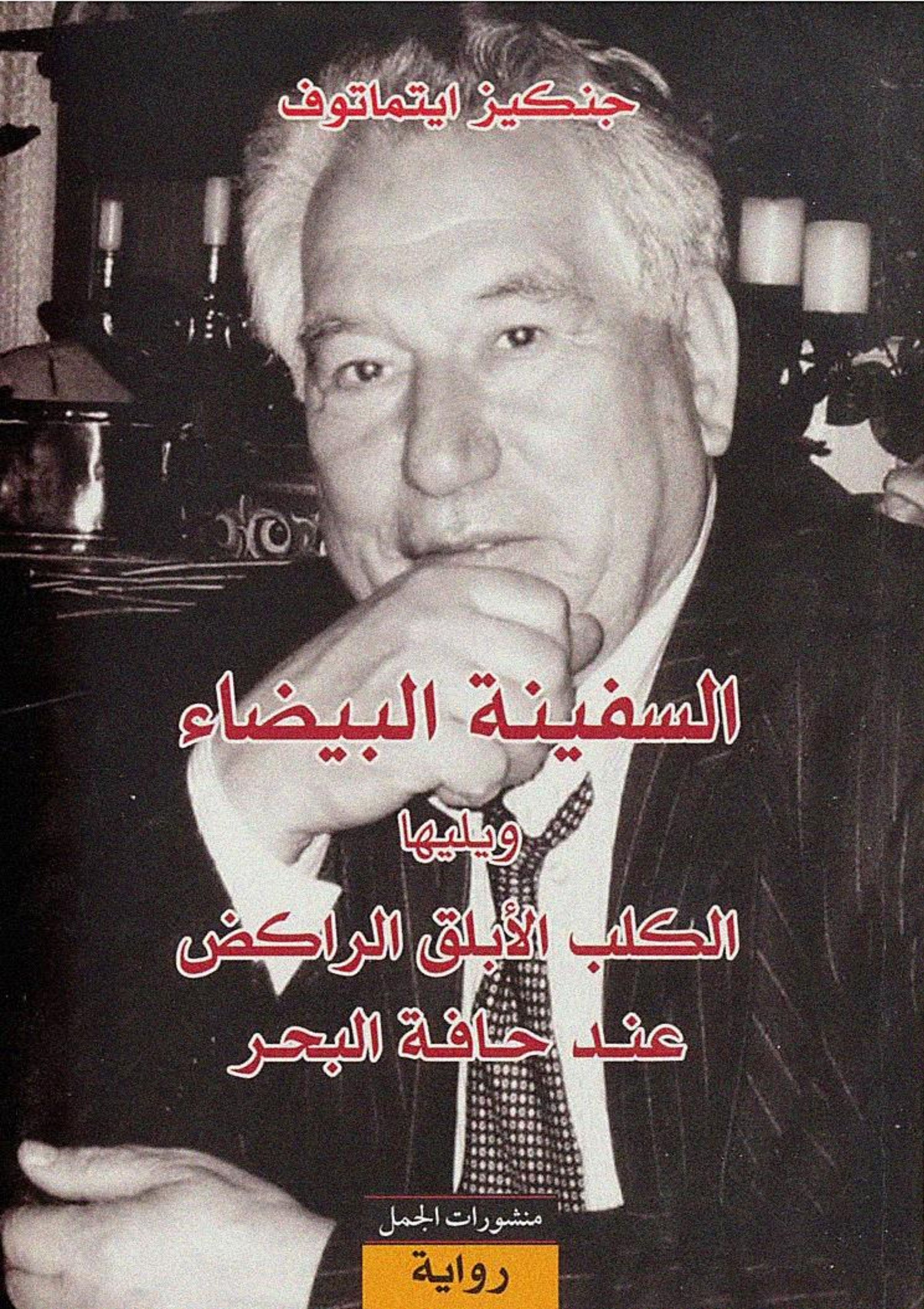


جنكيز ايتماتوف

السفينة البيضاء

ويليها

الكلب الأبلق الراكض عند حافة البحر

منشورات الجمل

رواية

جنكيز ايتماتوف

السفينة البيضاء

ويليها

الكلب الأبلق الراكض عند حافة البحر

منشورات الجمل

جنكيز ايتماتوف: السفينة البيضاء

ويليها: الكلب الأبلق الراكض عند حافة البحر

ولد جنكيز ايتماتوف عام ١٩٢٨ في قرغيزيا. كتب أعماله باللغة الروسية والتي عرفت انتشاراً واسعاً في العالم وخصوصاً بعد إنتاج فيلم سينمائي مقتبس عن قصته «جميلة».

الترجمة العربية مأخوذة عن طبعة «دار التقدم» ١٩٨١.

جنكيز ايتماتوف: **السفينة البيضاء**

ويليها: **الكلب الأبلق الراكض عند حافة البحر**، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

السفينة البيضاء

ما بعد الحكاية

(١)

كان لديه حكايتان. الأولى حكايته التي لم يدرِ بها أحد. والثانية تلك التي رواها له جده. ثم لم تبق لديه ولا واحدة. وعن هذا سنروي.

في ذلك العام بلغ السابعة وبدأ عامه الثامن.

في البداية اشتروا له الحقيبة المدرسية. حقيبة سوداء من المشمع، بقفل معدني براق ذي ترباس ينزلق تحت الرزّة، وجيب إضافي للنشريات. وباختصار حقيبة غير عادية مثل أية حقيبة مدرسية عادية. ومن هنا، على الأرجح، بدأ كل شيء.

اشتراها الجد من سيارة بيع متنقلة. كانت هذه السيارة - المتجر تطوف بالرعاة في الجبال وتأتي إليهم أحياناً في كوردون الغابة، في وادي سان- تاش.

ومن هنا، من الكوردون امتدت غابة جبلية محمية(*) صاعدة إلى أعلى عبر الشعاب والسفوح. ولم يكن يعيش في منطقة الكوردون سوى ثلاث عائلات. ومع ذلك كانت السيارة - المتجر تأتي بين الحين والآخر إلى حراس الغابة هؤلاء.

وكان، وهو الصبي الوحيد في الدور الثالث، أول من يلمح

(*) المحمية هي منطقة طبيعية يحرم فيها الصيد وقطع الأشجار لحماية البيئة والحيوانات. (المعرب).

السيارة - المتجر، فيصيح راكضاً إلى الأبواب والنوافذ:

- قادمة! السيارة - المتجر قادمة!

كان الطريق يمتد إلى هنا من شاطئ بحيرة ايصيق - كول، شاقاً مجراه عبر الشعب، بمحاذاة شاطئ النهر، مليئا بالحفر والأحجار. ولم يكن من السهل أبداً السير في هذا الطريق. فما إن يصل إلى جبل الحراسة حتى يصعد من قاع الأخدود إلى الجرف، ثم يهبط من هناك طويلاً فوق سفح أجرد شديد الانحدار نحو بيت حراس الغابة. كان جبل الحراسة قريباً جداً. . . وفي الصيف كان الصبي يركض إليه كل يوم تقريباً ليتطلع بالمنظار إلى البحيرة. ومن هناك كان كل شيء يبدو على الطريق واضحاً كأنما فوق راحة اليد، سواء كان راجلاً أم راكباً، أم بالطبع سيارة.

في تلك المرة - وكان ذلك ذات صيف حار - كان الصبي يستحم في حوضه، ومن هنا رأى الغبار الذي أثارته السيارة فوق الجرف. وكان هذا الحوض على حافة منطقة ضحلة من النهر مفروشة بالحصى. وقد شيده جده من الأحجار. ومن يدري فلولا هذا الحوض لربما لم يعد الصبي على قيد الحياة منذ زمن طويل، ولغسل النهر عظامه من زمان- كما كانت جدته تقول- والقى بها في إيصيق - كول مباشرة لكي تحملق فيها الأسماك وغيرها من المخلوقات المائية، ولما بحث عنه أحد أو حزن عليه، لأنه لا داعي لنزول النهر، ولأن أحداً ليس في مسيس الحاجة إليه. ولكن ذلك لم يحدث بعد. ولو حدث، فمن يدري، ربما بالفعل لم تهرع الجدة لإنقاذه. قد تفعل لو كان حفيدها حقاً، ولكنها تقول انه غريب. والغريب دائما غريب، مهما أطعمته ورعيته. غريب. . . ولكن ماذا إذا كان لا يريد أن يكون غريباً؟ ولماذا ينبغي أن يعتبر هو بالذات غريباً؟ أليس من الجائز أن الجدة هي الغريبة وليس هو؟

ولكننا سنقص عن ذلك فيما بعد. . وعن حوض الجد أيضاً فيما بعد.

وهكذا، فقد لمح الصبي آنذاك السيارة، وكانت تهبط من الجبل، وخلفها على الطريق تصاعدت سحب الغبار. وغمرته الفرحة وكأنما كان يعرف أنهم سيشترون له حقيبة. قفز من الماء على الفور، شد سرواله بسرعة على فخذيه النحيلتين، وانطلق وهو لا يزال مبللاً، أزرق الجلد- فقد كانت المياه باردة - عبر الدرب إلى البيت ليكون أول من ينبئ بمجيء السيارة - المتجر.

ركض بسرعة وهو يقفز عبر الخمائل ويدور حول الصخور التي يعجز عن القفز من فوقها. ولم يتوقف ثانية واحدة، لا بجوار الأعشاب العالية، ولا بجوار الأحجار، رغم أنه كان يعرف أنها ليست أبداً مجرد أعشاب وأحجار. بل إنها قد تغضب منه أو حتى تشنكله. «السيارة - المتجر وصلت. سآتي فيما بعد»- قال وهو يركض «للجمل الراقد»، هكذا سمى ذلك الحجر الجرانيتي الأحمر الأحدب الغائص في الأرض حتى الصدر. وعادة لم يكن الصبي يمر بجوار «جمله» دون أن يربت على سنامه. كان يربت على ربتة السيد، كما يربت جده على حصانه القصير الذيل، بلا اكتراث ودون توقف، وكأنما يقول له: انتظر قليلاً فلديّ بعض الأعمال. وكان لديه أيضاً حجر «السرج». . . حجر نصفه أبيض ونصفه أسود، أبلق، فيه مجلس كالسرج، يمكن الجلوس عليه وكأنك على ظهر حصان. وكان لديه كذلك حجر «الذئب» الذي يشبه الذئب الى حد كبير، وهو حجر بني، أشيب، ذو لبدة قوية وجبهة ثقيلة. . . كان يصل إليه زحفاً مسدداً نحو بندقية وهمية. ولكن أحب الأحجار إليه كان «الدبابة»، تلك الكتلة الجبارة عند حافةُ النهر مباشرة على الشاطئ المنحدر. كان يبدو وكأن «الدبابة» ستنقضّ من الشاطئ وتتقدم فيفور النهر ويغلي بزبد أبيض.

أليس هكذا تسير الدبابات في الأفلام: تنقضّ من الشاطئ الى الماء وتمضي. . . لم ير الصبي أفلاماً إلا نادراً، ولذلك كان يذكر جيدا ما رآه. كان الجد يأخذ حفيده أحياناً إلى السينما في مزرعة تربية سلالات الأبقار، في المحمية المجاورة وراء الجبل. ولهذا ظهرت على الشاطئ «الدبابة» المستعدة دوماً للانقضاض عابرة النهر. وكانت لديه أحجار أخرى: «خبيثة» أو «طيبة»، بل وحتى «ماكرة» و «غبية».

وبين الأعشاب أيضاً كانت لديه أعشاب «محببة»، و «جريئة» و «خوافة» و «شريرة» وغيرها. فالحسك الشائك مثلاً كان العدو الأول. وكان الصبي يبارزه عشرات المرات في اليوم. لكن لم تبد نهاية لهذه الحرب، اذ كان الحسك ينمو ويتكاثر بلا هوادة. أما اللبلاب البري، فرغم أنه من الأعشاب الضارة، فزهوره من أجمل الزهور وأبهجها. فهي تستقبل شمس الصباح أحسن الجميع. الأعشاب الأخرى لا تفقه شيئاً، وسيان لديها الصباح والمساء. لكن اللبلاب، ما إن تدفئه أشعة الشمس حتى يفتح عينيه ويضحك. يفتح في البداية عيناً، ثم عينه الثانية، وبعد ذلك تتفتح كل أكمام الزهور الواحدة تلو الأخرى. . . البيضاء، والزرقاء الفاتحة، والبنفسجية وغيرها. . . ولو جلست بقربها في سكون تام، لخيّل إليك أنها بعد أن تستيقظ تتهامس فيما بينها. حتى النمل يعرف ذلك. فهو يركض صباحاً فوق اللبلاب ويزر عيونه من الشمس ويصغي إلى ما تقوله الزهور بعضها لبعض. ربما كانت تروي أحلامها؟

في النهار، في الظهر عادة، كان الصبي يهوى التوغل في أعشاب الشيرالجين الطويلة السيقان. وهي أعشاب عالية، بلا أزهار ولكنها عطرة، وتنمو على شكل جزر، وتتجمع حلقات ولا تسمح للأعشاب الأخرى بالاقتراب منها. إنها صديق مخلص. خاصة إذا كنت قد أُهنت وتود أن تبكي قليلاً دون أن يراك أحد، عندئذ فالشيرالجين

أفضل مخبأ. ورائحتها كرائحة غابة الصنوبر. ووسطها تشعر بالحر والهدوء. وأهم شيء أنها لا تحجب عنك السماء. فلترقد على ظهرك ولتنظر إلى السماء. في البداية لن تميز شيئاً تقريباً من خلال الدموع. ولكن فيما بعد ستعبر السحب، وسوف تصنع هناك عالياً كل ما تريده منها. فالسحب تعرف أنك تعاني، وأنك تريد أن ترحل إلى مكان ما أو تطير فلا يستطيع أحد أن يجدك، حتى يتحسر الجميع فيما بعد ويندموا فها هو الصبي قد اختفى فأين نجده؟.. ولكي لا يحدث هذا، ولكي لا تختفي، لكي تستلقي في هدوء وتتأمل السحب، سوف تتحول السحب إلى كل ما تريده. ومن السحب المتشابهة ستشكل أشياء مختلفة للغاية. يجب فقط ان تعرف كيف تميز ما تصنعه السحب.

نعم، في الشيرالجين الهدوء، وهي لا تحجب السماء. تلك هي أعشاب الشيرالجين التي تفوح منها رائحة الصنوبر الساخن...

وكان يعرف أيضاً شتى الأشياء ع الأعشاب. كان ينظر باستعلاء إلى أعشاب الريش الفضية التي كانت تنمو في المرج. كم هي غريبة أعشاب الريش! إنها طائشة، هوائية. وسيقانها الحريرية الناعمة لا تستطيع أن تعيش بدون الريح. دوماً بانتظارها، وما إن تهبّ حتى تنحني مع اتجاهها. تنحني كلها كأنها حشيشة واحدة، ينحني الموج كله كأنما يصدع لأمر. فإذا سقط المطر أو هبّت عاصفة رعدية لا تعرف أعشاب الريش إلى أين تلجأ. تتدافع مذعورة وتسقط وتلتصق بالأرض. ولو كان لديها أرجل لهربت على الأرجح الى مدى البصر.. ولكن ذلك مجرد تظاهر... فما إن تهدأ العاصفة حتى تعود أعشاب الريش الطائشة إلى ترقب الريح، فتنحني مع اتجاهها...

عاش الصبيٰ وحيداً، بلا أصدقاء، وسط تلك الأشياء البسيطة التي كانت تحيط به، فلم يكن هناك ما يجعله ينسى كل شيء سوى السيارة

- المتجر ويركض مندفعاً إليها. وهذا مفهوم، فالسيارة - المتجر شيء آخر غير هذه الأحجار وتلك الأعشاب. فما أكثر ما تحتويه هذه السيارة - المتجر.

عندما وصل الصبي الى المنزل كانت السيارة- المتجر قد بلغت الفناء وراء المنازل. فقد كانت المنازل في الكوردون تطل بوجوهها على النهر، أما الأفنية فكانت تنحدر انحداراً خفيفاً إلى الشاطئ مباشرة، وعلى الشاطئ الآخر، ابتداء من الوادي الذي نحرته مياه النهر تصاعدت الغابة بحدة الى الجبال، فلم يكن ثمة طريق إلى الكوردون إلا من خلف المنازل، ولو لم يصل الصبي في الوقت المناسب لما عرف أحد أن السيارة- المتجر أصبحت هنا بالفعل.

لم يكن أحد من الرجال موجوداً في هذا الوقت، فقد توجهوا إلى أعمالهم منذ الصباح. وكانت النساء يباشرن أعمالهن المنزلية. ولكن الصبي صاح بصوت حاد وهو يقترب راكضاً من الأبواب المفتوحة:

- وصلتْ! السيارة - المتجر وصلت!

وهرولت النساء في اضطراب. وأسرعن للبحث عن النقود المخبأة. وهرعن خارجات من البيوت تسابق إحداهن الأخرى. حتى لقد مدحته جدته قائلة:

- انظروا، ما أوسع عينيه!

وشعر الصبي بالزهو وكأنه هو الذي جاء بالسيارة - المتجر.

كان سعيداً لأنه حمل إليهن هذا النبأ، ولأنه اندفع معهن إلى الفناء الخلفي، ولأنه تزاحم معهن بجوار باب السيارة الصغير المفتوح. ولكن سرعان ما نسيته النساء هنا. كن في شغل شاغل عنه، فالبضائع متنوعة، تزيغ الأبصار. كنّ ثلاث نسوة: الجدة، والخالة بيكي، أخت أمه وزوجة أهم شخص في الكوردون، المراقب أروزكول، وجول جمال الشابة زوجة العامل المساعد سيد أحمد، التي كانت تحمل

ابنتها على يديها. ثلاث نساء فقط. ولكنهن تزاحمن وقلّبن البضاعة إلى درجة جعلت البائع يتدخل طالباً منهن لزوم الدور والكف عن الصياح في وقت واحد.

بيد أنه لم يكن لكلماته تأثير كبير على النسوة. في البداية تخاطفن كل ما وقعت عليه أيديهن، وبعد ذلك رحن ينتقين، ثم أعدن ما اخترنه. كن يضعن جانباً ما يخترنه، ويقسنه، ويتجادلن، ويفصحن عن شكوكهن، ويسألن عشرات المرات عن الشيء نفسه. وكان هذا لا يعجبهن، وذاك غال، والثالث ليس لونه مناسباً. . . وانتحى الصبي جانباً. وأحس بالملل. اختفى شعوره بانتظار شيء غير متوقع، واختفت تلك الفرحة التي راودته عندما رأى السيارة - المتجر على الجبل. لقد تحولت السيارة - المتجر فجأة إلى سيارة عادية، محشوة بكوم من الخرق المختلفة.

وعبس البائع، إذ لم يبد أن في نية هؤلاء النسوة شراء شيء ما. فلماذا جاء إلى هنا، إلى هذا المكان النائي، عبر الجبال؟

وهذا ما حدث. بدأت النسوة يتراجعن، وفتر حماسهن، وبدا كأنما أصابهن التعب. ولسبب ما رحن يعتذرن ويبررن سلوكهن بعضهن لبعض أو للبائع. وكانت الجدة أول من اشتكى من عدم توافر النقود. فإذا لم تكن لديك نقود فلن تشتري البضاعة. أما الخالة بيكي فلم تجرؤ على شراء شيء غال بدون زوجها. والخالة بيكي هي أتعس امرأة في الدنيا لأنها لم تنجب أطفالاً، ولهذا يضربها زوجها أروزكول وهو سكران، ولهذا يتعذب الجد، فالخالة بيكي ابنته. واشترت الخالة بيكي بعض الأشياء الصغيرة وزجاجتي فودكا. وعبثا فعلت ذلك، ما كان ينبغي، فهي التي ستعاني. ولم تطق الجدة صبراً فقالت بفحيح حتى لا يسمعها البائع:

- لماذا تجلبين المصيبة على نفسك؟

فردّت الخالة بيكي باقتضاب:

- أنا أدرى.

فهمست الجدة بأخفت من السابق ولكن بتشفّ:

- يا لك من حمقاء!

ولولا البائع لوبختها كما ينبغي. أوه، كم تتشاجران!..

وتدخلت جول جمال الشابة لإنقاذ الموقف. وراحت تشرح للبائع أن زوجها سيد أحمد سيذهب إلى المدينة عما قريب، وفي المدينة سيكون بحاجة إلى النقود طبعاً، ولذلك فهي لا تستطيع أن تبذر.

وهكذا تزاحمن بجوار السيارة - المتجر، وابتعن بضاعة «بملاليم» كما قال البائع، وانصرفن إلى بيوتهن. فهل هذه تجارة! وبصق البائع في إثر النسوة الذاهبات وأخذ يجمع البضائع المبعثرة لكي يجلس إلى المقود ويرحل. وهنا لاحظ وجود الصبي، فسأله:

- ماذا يا أخطل؟ - كان الصبي ذا أذنين كبيرتين نافرتين وعنق نحيل ورأس كبير مستدير. - هل تريد أن تشتري شيئاً؟ هيا إذن بسرعة قبل أن أغلق. هل معك نقود؟

سأل البائع هكذا، بلا قصد وبدافع الملل. ولكن الصبي أجاب باحترام:

- لا يا عمي، ليس معي نقود.

وهز رأسه نفيا.

فقال البائع بشك متصنع:

- كنت أظن معك. كلكم هنا أغنياء ولكنكم تتظاهرون بالفقر. وماذا في جيبك؟ أليست نقوداً؟

- كلا يا عمي - قال الصبي بنفس الصدق والجدية، وقلب جيبه الممزق. (كان جيبه الثاني مغلق الفتحة بالخياطة.)

- إذن تبعثرت نقودك حيث كنت تلعب. ابحث عنها هناك وستجدها.

وصمتا.

ثم عاد البائع يسأل ثانية:

- ابن من أنت؟ ابن العجوز مأمون، أليس كذلك؟

وأومأ الصبي برأسه.

- هل أنت حفيده؟

- نعم - وأومأ الصبي برأسه ثانية.

- وأين أمك؟

لم يرد الصبي. لم يكن يرغب في الحديث عن ذلك.

- لا تصل منها أية أخبار أمك هذه. ألا تعرف ذلك؟

- لا أعرف.

- وأبوك؟ لا تعرف أيضاً؟

وصمت الصبي.

فأنبه البائع مازحاً:

- ما لك يا صاحبي لا تعرف شيئاً؟ حسناً، لا بأس. خذ - وقدم له حفنة من الحلوى - شد حيلك!

أحجم الصبي خجلاً.

- خذ، خذ، لا تعطلني فقد حان وقت الرحيل.

وضع الصبي الحلوى في جيبه، واستعد للركض خلف السيارة ليودعها إلى الطريق. ونادى على «بالتيك»، ذلك الكلب الأشعث الكسول جداً. كان أروزكول يهدد دائماً بإعدامه، فما الداعي إلى الإبقاء على كلب كهذا. ولكن الجد كان يرجوه أن يؤجل ذلك، فلا بد أولاً من اقتناء كلب «ولف»، ثم بعد ذلك يأخذون «بالتيك» إلى مكان ما ويتركونه هناك. لم يكن «بالتيك» يبالي بشيء، فعندما يكون

شبعاً ينام، وعندما يكون جوعان يتمسح دائماً بأي شخص، لا يفرق بين قريب وغريب، المهم أن يلقى له بشيء ما. هكذا كان هذا الكلب «بالتيك». ولكنه كان أحياناً يركض وراء السيارات من الملل. صحيح أنه لا يركض إلا لمسافة قصيرة. ما إن ينطلق حتى يتوقف فجأة، ويعود أدراجه. كلب لا يُعتمد عليه. ومع ذلك فالركض مع كلب احسن مائة مرة من الركض بدون كلب. فمهما كان فهو كلب على أية حال. . .

وخفية، حتى لا يرى البائع، ألقى الصبي بقطعة حلوى إلى «بالتيك». وحذره قائلاً: «اسمع، سوف نجري طويلاً». وعوى «بالتيك» عواء قصيراً، وهو يهز ذيله. كان ينتظر المزيد من الحلوى. ولكن الصبي تردد في أن يلقي إليه بقطعة أخرى، فربما يغضب البائع، فهو لم يعطه حفنة كاملة من الحلوى من أجل الكلب.

وفي هذه اللحظة ظهر الجد. كان العجوز قد ذهب إلى المنحل، ومن هناك لا يمكن أن ترى ما يحدث خلف البيوت. وها قد تصادف أن جاء في الوقت المناسب، قبل أن ترحل السيارة - المتجر. مجرد صدفة. وإلا لما أصبح لدى الحفيد حقيبة. لقد ابتسم الحظ للصبي في هذا اليوم.

كان الشيخ مأمون، الذي سماه الحكماء «مأمون الهمام»، معروفاً لدى جميع سكان الناحية، وكان هو أيضاً يعرف الجميع. وقد اكتسب لقبه هذا نظراً لبشاشته المعهودة التي كان يبديها لكل من يعرفه ولو أدنى معرفة، واستعداده الدائم لأن بفعل شيئاً ما لأي شخص ولتقديم أية خدمة. إلا أن جهوده لم تحظ بأقل تقدير كما لا يحظى الذهب بالتقدير لو أنهم راحوا فجأة يوزعونه بالمجان. لم ينظر أحد إلى مأمون بذلك الاحترام الذي يتمتع به مَنْ هم في مثل سنه. كانوا يعاملونه بلا كلفة. وكان يحدث أثناء مأتم كبير لأحد كبار قبيلة بوجو

- وكان مأمون ينتمي إلى هذه القبيلة ويعتز بذلك جداً ولا يفوته أبداً مأتم لأحد من القبيلة - أن يكلفوه بذبح الماشية ومقابلة كبار المعزّين ومساعدتهم على النزول عن ظهور الجياد، وتقديم الشاي، بل وحتى تقطيع الحطب وحمل الماء. فما أكثر المطلوب عمله في المآتم الكبيرة حيث يجتمع كثير من المعزّين من شتى الأنحاء. وكان مأمون يقوم بكل ما يكلف به بسرعة وخفة، والأهم من ذلك أنه لم يكن يتنصل كالآخرين. وكانت نساء النجع الشابات، اللائي كان عليهن إطعام واستقبال هذا الحشد الهائل من الضيوف، يقلن عندما يرين مأمون يؤدي عمله:

- ماذا كنا نفعل لولا مأمون الهمام!

وهكذا، فإن هذا الشيخ القادم مع حفيده من مكان بعيد، يجد نفسه يؤدي دور الخادم. ولو كان أحد آخر في مكانه لمات غيظاً من المهانة. ولكن مأمون لا يلقي بالاً لذلك!

ولم يدهش أحد أن مأمون الهمام الشيخ يخدم الضيوف، فطوال عمره وهو مأمون الهمام. وهو وحده المذنب في أنه مأمون الهمام. فإذا أبدى أحد الغرباء دهشته: كيف هذا؟ رجل كبير السن ويجري كالصبي خادما لدى النساء، فهل انقرض الشبان في هذا النجع؟ - فإن مأمون يجيب: «كان المرحوم أخي. (فقد كان يعتبر جميع البوجيين إخوته. ولكنهم كانوا بالدرجة نفسها «إخوة» لبقية الضيوف.) فمن ذا غيري يخدم في مأتمه؟ إننا نحن البوجيين هكذا، أقرباء من نسل واحد، من والدتنا الغزالة أم القرون. وقد أوصتنا أمنا الغزالة بالصداقة في الحياة والوفاء للذكرى. . .»

هكذا كان، مأمون الهمام!

وكان الجميع، كباراً وصغاراً، يخاطبونه بـ«أنت»، بل وكان من الممكن أن تسخر منه قليلاً، فهو شيخ وديع، من الممكن ألا تحسب

حسابه، فهو شيخ مسالم. وليس عبثاً أن يقال إن الناس لا تغفر لمن لا يعرف كيف يجبرهم على احترامه. ولم يكن هو يعرف كيف يفعل ذلك.

كان يعرف كيف يفعل أشياء كثيرة في الحياة. كان يعرف النجارة والسراجة ورص أكوام الدريس. وعندما كان أصغر سناً كان يرص أكوام الدريس في المزرعة التعاونية بصورة تجعلك تشفق على هدمها في الشتاء لاستخدامها. وكان المطر ينزلق من الكوم كما ينزلق الماء من ريش الاوز، أما الثلج فكان يكسوه كالسقف. وأثناء الحرب عمل مأمون كجندي بناء، فشيّد جدران المصانع في مغنيتوغورسك واشتهر كعامل طليعي. وبعد الحرب عاد إلى الكوردون فشيّد المنازل من جذوع الأشجار، وعمل في الغابة. ورغم أنه كان مسجلاً كعامل مساعد، إلا أنه هو الذي كان يرعى شؤون الغابة، أما أروزكول، صهره، فكان يمضي معظم الوقت في ضيافة المعارف. اللهم إلا إذا جاءهم الرؤساء.. عندئذ يقوم أروزكول نفسه بالمرور معهم على الغابة، وينظم لهم الصيد، ويقوم بدور السيد. وكان مأمون يرعى الدواب، ويُعنى بالمنحل. وقضى حياته من الصباح الى المساء منهمكاً في العمل والمشاغل، ولكنه لم يتعلم كيف يُرغم الآخرين على احترامه.

وكذلك لم يكن مظهر مأمون الخارجي يشبه هيئة «الاكسكال»(*). كان يفتقر إلى الوقار والعظمة والصرامة. كان رجلاً طيباً، ومن أول نظرة تستشف فيه هذه السمة الإنسانية غير المشكورة. وفي جميع الأزمان يقال لأمثاله: «لا تكن طيباً، كن شريراً! تستحق، تستحق،

(*) يطلق لقب «اكسكال» «ذو اللحية البيضاء» بالقيرغيزية على الشيوخ احتراماً. (المعرب).

كن شريراً!»، ولكنه لسوء حظه يظل طيباً بلا أمل في إصلاحه. كان وجهه بشوشاً مبتسماً، مليئاً بالتجاعيد، بينما عيناه تسألان أبداً: «ماذا تريد؟ هل تريد أن أصنع لك شيئاً ما؟ حالا، قل لي فقط ما حاجتك».

وكان أنفه طرياً، أبعج كمنقار البطة، وكأنه بلا عظام. وكانت قامته صغيره.. كان عجوزاً صغيراً كصبي مراهق.

وحتى اللحية لم يحالفه الحظ فيها. ليس فيها إلا ما يثير السخرية. فعلى ذقنه الجرداء نبتت شعرتان أو ثلاث حمراوات.. وهذه هي لحيته!

وشتان بينه وبين ذلك الشيخ المستقيم الظهر، الذي قد تلقاه في طريقك فجأة. ولحيته كحزمة سنابل، يرتدي معطفاً من الفراء بباقة عريضة، وقبعة من الفراء الثمين، راكباً جواداً أصيلاً، وسرجه مفضض، فأي حكيم، أي نبي! ليس عيباً أن تنحني لمثله، ومثله يحظى بالاحترام في كل مكان! أما مأمون فلم يزد عن كونه مأمون الهمام فحسب. وربما كانت ميزته الوحيده أنه لم يكن يخشى أن يسقط من نظر أي شخص (لم يركب كما يجب، لم يقل ما يجب، لم يجب كما ينبغي، لم يتسم كما يجب، لم... لم...) وبهذا المعنى كان مأمون، دون أن يدري، إنساناً سعيداً بصورة نادرة، فالكثيرون لا يموتون بسبب الأمراض بقدر ما هو بسبب الرغبة الخالدة المستعرة في أن يصوروا أنفسهم أمام الآخرين بأفضل مما هم عليه (من ذا الذي لا يريد أن يشتهر بأنه ذكي، رفيع القدر، جميل، وفوق ذلك رهيب ومنصف وحازم؟...)

ولكن مأمون لم يكن كذلك. كان غريب الأطوار، وكانوا يعاملونه على هذا الأساس.

شيء واحد كان من الممكن أن يهين مأمون: أن ينسوا دعوته لحضور مجلس الأقارب لترتيب مأتم شخص ما... هنا كان يشعر

بالإهانة المرة ويعاني كثيراً من هذه الاهانة. وليس مبعث ذلك أنهم نسوه - فهو في المجلس على كل حال لا يقرر شيئاً، وإنما يحضر فقط - بل مبعثها الإخلال بأداء الواجب القديم.

وكان لدى مأمون مصائبه وأحزانه التي كانت تشقيه، وتجعله يبكي في الليالي. ولم يكن الغرباء يعرفون عنها شيئاً تقريباً. أما الأقرباء فكانوا يعرفون.

وعندما رأى مأمون حفيده بجوار السيارة - المتجر أدرك على الفور أن الصبي محزون لأمر ما. ولكن لما كان البائع رجلاً وافداً فقد توجه إليه بالحديث أولاً. قفز بسرعة من على السرج، ومد يديه الاثنتين دفعة واحدة نحو البائع مصافحاً، وقال بنبرة بين الجد والهزل:

- السلام عليكم أيها التاجر الكبير! هل وصلت قافلتك بسلام، وهل تسير أمور التجارة على ما يرام؟ - وهز مأمون يد البائع ووجهه يطفح بالبهجة - كم مر من أيام ولم نرك! أهلاً وسهلاً!

ضحك البائع باستعلاء من لهجته وهيئته الرثة - الحذاء الطويل القديم الرخيص فنسه، والسروال القماشي الذي حاكته له زوجه العجوز، والسترة المهلهلة، والقبعة اللباد الباهتة من المطر والشمس- وقال مجيباً:

- القافلة بخير. ولكن انظر ما يحدث: البائع يأتي إليكم، وأنتم تولون عنه إلى الغابات والوديان وتأمرون زوجاتكم بالحرص على القروش حرصهن على الروح. ولو أغرقتكم بالبضائع فلن يفتح أحد كيس نقوده.

فاعتذر مأمون محرجاً:

- سامحنا يا عزيزي. لو كنا نعرف أنك ستأتي لما رحلنا. وليس ذنبنا أننا لا نملك نقوداً. انتظر، فعندما نبيع البطاطس في الخريف...

فقاطعه البائع:

- دعك من هذا! إنني أعرفكم جيداً أيها الأغنياء العفنين. تقيمون هنا في الجبال، وعندكم من الدريس والأرض ما تريدون، والغابات من حولكم لا تحيط بها ولو سرت ثلاثة أيام. أليس لديك ماشية؟ أليس لديك منحل؟ وتبخلون بالقرش. اشتر هذه البطانية الحريرية، أو ماكينة الخياطة هذه... لم يبق غيرها...

فقال مأمون معتذراً:

- أقسم بالله إني لا أملك هذه النقود.

- أتظنني أصدقك؟ أنت تبخل أيها الشيخ، تدخر النقود، فإلى أين ستأخذها؟

- أقسم بالله ليس معي نقود، أقسم بأمنا الغزالة أم القرون!

- حسناً اشتر قطيفة، اصنع لنفسك سروالاً جديداً.

- كان بودي، أقسم بأمنا الغزالة أم القرون...

فأشاح البائع بيده يأساً:

- ايه، ما فائدة الكلام معك! عبثاً جئت إليكم. وأين أروزكول؟

- خرج منذ الصباح، ربما ذهب إلى أكساي. لديه أعمال عند الرعاة.

فقال البائع بنبرة المتفهم:

- اذن فقد نزل عليهم ضيفا.

وحلّت برهة صمت محرج.

ثم عاد مأمون يقول:

- لا تغضب منا يا عزيزي. إن شاء الله نبيع البطاطس في الخريف...

- الخريف بعيد...

- إذن لا تؤاخذنا. بالله تعال اشرب شاياً.

فرفض البائع قائلاً:

- لم آت من أجل هذا.

وراح يغلق باب السيارة، وفي هذه اللحظة نظر إلى الصبي الواقف بجوار الشيخ ممسكاً بأذن الكلب مستعداً للركض خلف السيارة، وقال:

- حسناً اشتر ولو حقيبة. سيدخل الصبي المدرسة، أليس كذلك؟ كم عمره؟

وتلقّف مأمون هذه الفكرة على الفور، فبذلك يشتري ولو شيئاً من هذا البائع اللحوح، كما أن حفيده بحاجة الى حقيبة، ففي الخريف القادم سيذهب الى المدرسة.

وقال مأمون متلهفا:

- صحيح، عندك حق. لم أفطن إلى ذلك. طبعاً بلغ سبع سنوات وبدأ الثامنة - ودعا حفيده- تعال هنا.

وبحث الجد في جيوبه ثم استخرج ورقة بخمسة روبلات كانت مخبأة.

يبدو أنها كانت مدسوسة هناك منذ زمن بعيد، فقد كانت مجعدة.

وغمز البائع بعينيه للصبي وقال وهو يسلمه الحقيبة:

- امسك يا أخطل. هيا تعلّم. إذا لم تنجح في المدرسة فستبقى مع جدك في الجبال طوال حياتك.

فردّ مأمون وهو يحصي بقية النقود:

- سينجح! إنه ولد ذكي.

ثم نظر إلى حفيده الذي كان ممسكاً بالحقيبة الجديدة في ارتباك، وضمه إليه، ودمدم بصوت خافت:

- هذا حسن. ستذهب في الخريف القادم إلى المدرسة.

وغطت راحة الجد القوية الثقيلة رأس الصبي.

وشعر الصبي فجأة بغصة في حلقه، وأحس بحدة بهزال جده

وبرائحة ملابسه المألوفة. كانت تنبعث منه رائحة الدريس الجاف وعرق الإنسان العامل. هذا الإنسان المخلص، الأمين، الحبيب، وربما الإنسان الوحيد في الدنيا الذي يفيض حباً للصبي، كان شيخاً على هذه الصورة من البساطة وغرابة الأطوار، شيخاً سماه الحكماء مأمون الهمام... فليكن.. أياً كان هذا الجد فحسن أنه موجود...

لم يكن الصبي يحدس أن فرحته ستكون كبيرة الى هذا الحد. فحتى الآن لم تجل المدرسة بخاطره. حتى الآن كان فقط يرى الأولاد الذاهبين الى المدرسة، هناك وراء الجبال، في قرى ايصيق - كول، حيث كان يذهب مع جده إلى مآتم الشيوخ البوجيين الكبار. ومنذ تلك اللحظة لم يفترق الصبي عن حقيبته. وانطلق على الفور يطوف بجميع سكان الكوردون وهو يهلل ويفخر. في البداية أراها لجدته: انظري ماذا اشترى لي جدي! ثم للخالة بيكي، التي فرحت أيضاً بالحقيبة وأثنت على الصبي.

نادراً ما تكون الخالة بيكي في مزاج طيب. فهي عادة عابسة وعصبية ولا تلاحظ ابن اختها. فبيكي مشغولة عنه بهمومها، الجدة تقول: لو كان لديها أطفال لكانت امرأة أخرى تماماً، ولكان أروزكول، زوجها، رجلاً آخر وليس كما هو الآن. وعندئذ لكان الجد مأمون رجلاً آخر أيضاً وليس كما هو الآن. ورغم أن لديه ابنتين- الخالة بيكي وأم الصبي، الابنة الصغرى - ومع ذلك فليس الأمر على ما يرام، ما أسوأ ألا يكون لديك أولاد، والأسوأ من ذلك ألا يكون لأولادك أولاد. هكذا تقول الجدة. فلتحاول أن تفهمها...

بعد الخالة بيكي ركض الصبي ليرى الحقيبة لجول جمال الشابة وابنتها. ومن هناك اندفع إلى الحقل ليريها لسيد أحمد. ومن جديد مرّ راكضاً بجوار حجر «الجمل» الأحمر، ومن جديد لم يكن لديه وقت ليربت على سنامه، وبجوار «السرج» و «الذئب» و «الدبابة»، وبعد

ذلك بمحاذاة الشاطئ، ثم في الدرب عبر حرج النبق، ثم ركض عبر الفجوة الطويلة من العشب المحصود في المرج حتى بلغ سيد أحمد.

كان سيد أحمد اليوم وحده. فقد فرغ الجد من حصد حصته منذ وقت بعيد، وكذلك من حصد حصة أروزكول. وفرغوا أيضاً من نقل الدريس- كانت الجدة والخالة بيكي تجمعانه، ومأمون يرصه، وهو يساعد جده في نقل الدريس إلى العربة. ورصوا كومين بجوار حظيرة الأبقار. وسواهما الجد بدقة، بحيث لا يتسرب اليهما أي مطر. كانا كومين ناعمين كأنما سوّيا بمشط. وهكذا كل عام. لم يكن أروزكول يحصد العشب، بل يلقي بالعبء على حميه فأياً كان الأمر فأرزوكول رئيس. كان يقول: «لو أردت لطردتكما من العمل في غمضة عين». ويقصد بذلك الجد وسيد أحمد. ولكنه يقول ذلك وهو سكران. فلن يستطيع طرد الجد، فمن إذن سيعمل؟ فليحاول أن يستغني عن الجد! العمل في الغابة كثير، وخاصة في الخريف. فالجد يقول: «ليست الغابة قطيع غنم، لن تتشتت. ولكنها تتطلب رعاية لا تقل عن رعاية القطيع. لأنه لو شبّ حريق أو انهمر السيل من الجبل فلن تقفز الشجرة جانباً أو تفر من مكانها، بل ستموت حيث تقف. ولهذا فحارس الغابة إنما هو كذلك ليحمي الشجرة من الهلاك». أما سيد أحمد فلن يطرده أروزكول لأن سيد أحمد مسالم. لا يتدخل في أي شيء ولا يجادل. ومع أنه مسالم وقوي، إلا أنه كسول، يحب النوم. ولهذا أصبح حارس غابة. فالجد يقول: «الشبان أمثاله في السوفخوز يقودون السيارات، ويحرثون بالجرارات». أما سيد أحمد فقد ترك العليّق يطغى على البطاطس في قطعة أرضه. واضطرت جول جمال بنفسها، وهي تحمل طفلتها على ذراعها- إلى تنظيف القطعة من الحشائش.

كما تأخر سيد أحمد في حصد العشب. أول أمس لامه الجد على

ذلك. قال له: «في الشتاء الماضي لم أشفق عليك بل على الماشية. لهذا اقتسمت الدريس معك. فإذا كنت تطمع ثانية في دريسي أنا العجوز فلتقل لي الآن حتى أحصد بدلاً منك». وأثّر ذلك في نفس سيد أحمد فانطلق منذ الصباح حاملاً حصادته.

التفت سيد أحمد عندما سمع خلف ظهره وقع أقدام سريعة، ومسح وجهه بكمه.

- ماذا بك؟ هل أرسلوك في طلبي؟

- كلا. أنا عندي حقيبة. ها هي. اشتراها جدي. سأذهب إلى المدرسة.

وقهقه سيد أحمد:

- أمن أجل هذا جئت ركضاً؟ الجد مأمون هكذا - وأدار إصبعه بجوار صدغه مشيراً إلى جنون الشيخ - وأنت أيضاً مثله! حسناً أرني هذه الحقيبة - وضغط على القفل وقلب الحقيبة بين يديه وهو يهز رأسه ساخراً، ثم هتف - مهلاً، إلى أية مدرسة ستذهب؟ أين هي مدرستك هذه؟

- ماذا تعني؟ مدرسة المزرعة؟

ودهش سيد أحمد:

- هل ستذهب الى جيليساي؟ ولكن المسافة إلى هناك خمسة كيلومترات على الأقل عبر الجبال.

- جدي قال إنه سيوصلني على الحصان.

- كل يوم يوصلك ويعود بك؟ شيخ غريب... آن له أن يدخل المدرسة هو الآخر. يجلس معك على التختة حتى ينتهي الدرس فيعود بك!- وانتابت سيد أحمد موجة ضحك. ضحك كثيراً عندما تصور الجد مأمون جالساً مع حفيده على التختة المدرسية.

وصمت الصبي حائراً.

فقال سيد أحمد موضحاً:

- إنني أقول هكذا، لمجرد الضحك.

ونقر الصبي على أنفه نقرة خفيفة وشد عمرة الجد حتى غطت مقدمتها عيني الصبي. لم يكن مأمون يحمل عمرة حارس الغابة الرسمية فقد كان يخجل من ارتدائها («ماذا، هل أنا رئيس ما؟ لن أستبدل بطاقيتي القيرغيزية غيرها أبداً»). وفي الصيف كان يرتدي قبعة رثة من اللباد، عبارة عن قلنسوة بيضاء يحيط بحوافها شريط من الساتان الأسود الباهت، وفي الشتاء طاقية - رثة أيضاً - من فراء الخراف. اما العمرة الخضراء، الزي الرسمي لحراس الغابات، فكان يعطيها لحفيده.

لم يرق للصبي استخفاف سيد أحمد بالنبأ. ورفع مقدمة العمرة عن عينيه عابساً، وعندما أراد سيد أحمد أن ينقر على أنفه مرة أخرى دفع رأسه إلى الوراء وقال مكشراً:

- لا تلمسني!

فضحك سيد أحمد قائلا:

- أوه، يا لك من عابس! حسناً، لا تغضب. حقيبتك ممتازة - وربت على كتفه - والآن امض، فأمامي عمل كثير...

وبصق سيد أحمد في راحتيه وراح يحصد.

عاد الصبي ركضاً على الدرب نفسه، ومرّ ثانية بجوار الأحجار نفسها. لم يكن لديه وقت بعد اللهو معها. فالحقيبة شيء جدي.

وكان الصبي يحبّ الحديث مع نفسه. ولكنه قال في هذه المرة لا لنفسه بل للحقيبة: «لا تصدقيه، فجدي ليس هكذا أبداً. إنه ليس ماكراً أبداً ولذلك يهزأون به. لأنه ليس ماكراً أبداً. سوف يحملني وإياك إلى المدرسة. أنت لا تعرفين بعد أين المدرسة؟ ليست بعيدة جداً. سأريها لك. سوف ننظر إليها بالمنظار من فوق جبل الحراسة. وسوف أريك

أيضاً سفينتي البيضاء. ولكن علينا أولاً أن ندخل الحظيرة، فهناك أخبئ منظاري. المفروض عليّ أن أرعى الجمل، ولكني أركض في كل مرة لكي أتطلع إلى السفينة البيضاء. عجلنا أصبح كبيراً، إذا شدك فلا تستطيع الإمساك به، وقد تعوّد على رضع لبن البقرة. والبقرة أمه، ولذلك لا تبخل عليه باللبن، أتفهمين؟ الأمهات لا يبخلن بشيء أبداً. جول جمال هي التي تقول ذلك، ولديها ابنتها. . . عما قريب سيحلبون البقرة، ثم نطرد العجل الى المرعى. وعندئذ نصعد معك إلى جبل الحراسة ونرى من الجبل السفينة البيضاء. إنني أتحدث مع المنظار أيضاً. والآن سنصبح ثلاثة: أنا وأنت والمنظار. . .».

هكذا مضى في طريقه إلى البيت. أعجبه جداً الحديث مع الحقيبة. وكان ينوي مواصلة هذا الحديث، وأراد أن يحدثها عما لا تعرفه بعد عنه. ولكن حدث ما منعه. فقد سمع بجواره وقع حوافر حصان. ومن خلف الأشجار ظهر فارس على ظهر جواد رمادي. كان ذلك أروزكول. وكان أيضاً عائداً إلى المنزل. وكان على الجواد الرمادي «ألباش»، الذي لم يكن أروزكول يسمح لأحد غيره بركوبه، سرج عيدي بركاب نحاسي وحزام صدر وعلاّقات فضية رنانة.

انحدرت قبعة أروزكول إلى مؤخرة رأسه، كاشفة عن جبين أحمر ضيق غزاه الشعر. وكان النعاس ينتابه من شدة الحر فنام في السرج. وكانت السترة القطيفة التي حيكت دونما إتقان على طراز تلك التي يرتديها رؤساء المنطقة، مفكوكة الأزرار كلها. وأفلت قميصه الأبيض من تحت الحزام عند بطنه. كان شبعان وسكران. فمنذ فترة قريبة كان في ضيافة شخص ما، يشرب «الكوميس»(*)، ويأكل اللحم حتى التخمة.

(*) الكوميس: شراب مخمر من لبن الخيول. (المعرب).

كان رعاة الخراف والخيول يستضيفون أروزكول كثيراً عندما ينتقلون إلى المراعي الصيفية في الجبال. وكان لديه بينهم أصدقاء ومعارف قدامى. ولكنهم كانوا يستضيفونه لأغراض خاصة. فأروزكول شخص مطلوب، وخاصة لمن يريد منهم أن يشيد منزلاً بينما ينبغي عليه ألا يغادر الجبال، إذ لمن تترك القطيع؟ وكيف إذن تحصل على مواد البناء؟ وبالدرجة الأولى الخشب؟ فإذا رضي عنك أروزكول فربما أعطاك جذعين أو ثلاثة منتقاة من أشجار الغابة المحمية. وإذا لم يرض عنك فسوف تظل تضرب مع القطيع في الجبال ويبقى بيتك طوال عمرك قيد التشييد...

استقر أروزكول في السرج ناعساً، متراخياً في عظمة، وقد دس بلا اكتراث طرفي حذائه الجلدي في الركاب.

كاد أروزكول يسقط من على ظهر الحصان لوقع المفاجأة عندما ركض الصبي نحوه وهو يلوح بالحقيبة صائحاً:

- يا عم أروزكول، عندي حقيبة! سأذهب إلى المدرسة. ها هي حقيبتي!

وشد أروزكول اللجام مذعوراً ودمدم ساباً:

- عليك اللعنة!

وحملق في الصبي بعينين حمراوين من أثر النعاس منتفختين ثملتين:

- ماذا بك؟ من أين جئت؟

فأجاب الصبي بصوت خائر:

- أنا عائد إلى البيت. عندي حقيبة، كنت أريها لسيد أحمد.

فدمدم أروزكول:

- طيب، العب.

ومضى وهو يتأرجح في السرج مهتزاً.

ما شأنه هو وهذه الحقيبة الحمقاء، وهذا الصبي الذي تركه والداه، ابن أخت زوجته، إذا كان القدر قد قسا عليه هكذا، وإذا كان الله لم يرزقه ابناً من صلبه ودمه، بينما يهب الآخرين الأطفال بسخاء، ودون حساب؟..

شنّ أروزكول بأنفه وشهق باكياً. كان الأسف والغضب يخنقانه. كان يأسف من أن حياته ستمر دون أثر، واحتدم غيظاً من زوجته العاقر. كم سنة وهذه الملعونة تسير ببطن فارغ...

«سأريك!» قال أروزكول في سرّه مهدداً وهو يعصر قبضتيه المكتنزتين، وأنّ أنّة مكتومة كي يمنع نفسه من البكاء بصوت عال. كان يعلم مسبقاً أنه سوف يضربها عندما يصل. فهكذا كان يحدث كلما سكر. فقد كان هذا الرجل الأشبه بالثور يصيح كالمجنون من الأسى والغضب.

سار الصبي على الدرب في أثره. ودهش عندما اختفى أروزكول من أمامه فجأة. لقد انعطف الرجل إلى النهر، وترجل، والقى بعنان الحصان ومضى هائماً على وجهه عبر الأعشاب العالية. كان يسير مترنحاً منحنياً. كان يسير وهو يعصر وجهه براحتيه، دافناً رأسه بين كتفيه. وجلس القرفصاء عند الشاطئ وراح يغرف الماء بيديه ويرشه على وجهه.

وقال الصبي لنفسه وهو يرى ما يفعله أروزكول: «يبدو أنه يشعر بصداع من الحر». لم يكن يعرف أن أروزكول يبكي ولا يستطيع إيقاف العويل. كان يبكي لأن الصبي الذي خرج للقائه لم يكن ابنه، ولأنه لم يجد في نفسه القدرة على أن يقول بضع كلمات إنسانية لهذا الصبي ذي الحقيبة.

(٢)

من قمة جبل الحراسة تستطيع أن ترى كل ما حولك. واستلقى الصبي على بطنه وهو يضبط المنظار. كان منظاراً ميدانياً قوياً حصل عليه جده في وقت ما كمكافأة على خدمته الطويلة في الكوردون. ولم يكن الشيخ يحب استخدام المنظار. كان يقول: «عيناي ليستا أسوأ منه». أما الصبي فعلى العكس أحبه.

وفي هذه المرة جاء الى الجبل مع المنظار والحقيبة.

في البداية تتراقص المرئيات وتتداخل معالمها في فتحة الرؤية الصغيرة، ثم تكتسب فجأة دقتها وثباتها. وكان ذلك أطرف شيء. كان الصبي يكتم أنفاسه حتى لا يهتز انضباط العدسة. ثم يحول إلى نقطة أخرى، ومن جديد يختلط كل شيء. ويعود الصبي ثانية إلى ادراة قرص الضبط.

من هنا يبدو كل شيء. حتى أعلى القمم الثلجية التي لا يعلو عليها شيء سوى السماء. كانت تنتصب خلف الجبال كلها، وفوق الجبال كلها وفوق الارض كلها. وتبدو أيضاً تلك الجبال الواقعة أسفل القمم الثلجية، تلك الجبال الغابية، المغطاة في الأسفل بالأحراج وفي الأعلى بأشجار الصنوبر الداكنة. وتبدو أيضاً جبال «كونجى» المواجهة للشمس. ولم يكن ينمو على سفوح كونجى شيء سوى العشب. وتبدو أيضاً تلك الجبال الأصغر في ناحية البحيرة.. مجرد مرتفعات صخرية جرداء، تنحدر إلى الوادي، والوادي يلتحم بالبحيرة. وفي

تلك الناحية أيضاً تمتد الحقول والبساتين والقرى. . . ومن خلال خضرة الحقول لاحت خطوط صفراء مؤذنة بقرب موسم الحصاد. وتراكضت سيارات صغيرة كالفئران فوق الطرق وامتدت من خلفها ذيول ترابية طويلة. وفي أقصى طرف الأرض، الى الحد الذي يدركه البصر، وراء شريط الساحل الرملي لاح خط البحيرة المحدب المنحني الشديد الزرقة. كانت تلك بحيرة ايصيق - كول. هناك التقت السماء بالمياه. ولم يكن بعد ذلك شيء. كانت البحيرة تستلقي بلا حراك، لامعة وخاوية. اللهم إلا عند شريط الساحل فقد تراقصت رغوة بيضاء من تكسّر الموج بصورة لا تكاد تلحظ.

حدق الصبي طويلاً في تلك الناحية. وقال للحقيبة: «السفينة البيضاء لم تظهر. هيا بنا ننظر مرة أخرى إلى مدرستنا».

من هذا المكان ظهر بوضوح الوادي المجاور خلف الجبال. وكان من الممكن أن ترى عبر المنظار خيوط الغزل في أيدي امرأة عجوز جالسة تحت نافذة أحد البيوت.

كان وادي جيليساي مجرد من الأشجار، ولم تبق فيه بعد قطع أشجاره إلا بضع صنوبرات وحيدة. في زمن ما كانت هنا غابة. أما الآن فقد امتدت صفوف حظائر الماشية بأسقف اردوازية مجعدة، ولاحت أكوام سوداء من الروث والدريس. كانت تلك حظائر تربية سلالة الأبقار بمزرعة الألبان. وغير بعيد عن حظائر الماشية امتد شارع قصير لقرية مربي الماشية، منحدراً من ربوة مسطحة. وفي طرف الشارع استقر منزل صغير يبدو من منظره غير مأهول. وكانت تلك هي المدرسة الابتدائية ذات الصفوف الأربعة. أما طلبة الصفوف الأعلى فكانوا يرحلون للدراسة في مدرسة داخلية في السوفخوز. وفي هذه المدرسة هنا يدرس الصغار.

وكان الصبي قد زار القرية مع جده قاصدين حكيم القرية عندما

كان زوره يؤلمه. وها هو الآن يحدق عبر المنظار متفحصاً هذه المدرسة الصغيرة ذات السقف القرميدي البني والمدخنة الوحيدة المائلة، واللوحة الخشبية التي خط عليها باليد: «مكتب»(*). ولم يكن يعرف القراءة ولكنه خمن ان هذه الكلمة بالذات هي المكتوبة هناك. كانت جميع التفصيلات الدقيقة واضحة عبر المنظار بصورة لا تصدق. ظهرت كلمات ما مخدوشة على طلاء الجدران، وزجاج ملصوق في إطار النافذة، وألواح أرضية الشرفة الخشبية الخشنة النافرة. وتصور كيف سيأتي إلى هنا مع حقيبته ويدخل من ذلك الباب الذي رأى الآن فوقه قفلاً كبيراً. ترى ماذا هناك، ما الذي ينتظره هناك خلف ذلك الباب؟

وعندما فرغ الصبي من تأمل المدرسة، صوّب منظاره ثانية نحو البحيرة. بيد أن كل شيء هناك ظل كما هو دون تغيير. لم تظهر السفينة البيضاء بعد. وحول الصبي بصره وأدار ظهره للبحيرة، وأخذ يتطلع إلى الأسفل، إلى سفح الجبل بعد أن نحى المنظار. كان هناك تحت الجبل مباشرة، في قاع الوادي المستطيل نهر فضي هادر كثير الجنادل. ومع شاطئ النهر تعرج على الطريق، ومع النهر اختفى الطريق خلف انحناءة الشعب. وكان الشاطئ الآخر شديد الانحدار، مغطى بالاشجار. من هنا تبدأ غابة سان - تاش المحمية، الصاعدة عالياً في الجبال حتى القمم الثلجية. أما أشجار الصنوبر فكانت تصعد أعلى الجميع، وتبرز نافرة وسط الصخور والثلوج كالفرش الداكنة على قمم السلاسل الجبلية.

تطلع الصبي باستهزاء إلى الدور والحظائر وملحقات المباني في فناء الكوردون. كانت تبدو من أعلى صغيرة حقيرة. وفيما وراء

(*) كلمة «مكتب» بالقيرغيزية تعني مدرسة. (المعرب).

الكوردون على الشاطئ تبين أحجاره المعروفة. لقد رآها كلها- «الجمل» و «الذئب» و «السرج» و «الدبابة» - لأول مرّة من هنا، من جبل الحراسة بالمنظار، وعندها أطلق عليها هذه الاسماء.

ابتسم الصبي بتخابث، ونهض وقذف حجراً في اتجاه الفناء. وسقط الحجر قريباً منه، على الجبل. وجلس الصبي ثانية وأخذ يتملى الكوردون بالمنظار. نظر أولاً من خلال العدسات الكبيرة في اتجاه العدسات الصغيرة، فركضت المنازل بعيداً جداً وأصبحت علباً كالدمى. وتحولت الأحجار الكبيرة إلى حصى. أما الحوض الذي شيده جده في الجزء الضحل من النهر فأصبح مضحكاً تماماً، لا يبلغ عمقه ركبة عصفور. وضحك الصبي ساخراً ودار برأسه، وعلى الفور قلب المنظار وضبط العدسات. وبدت احجاره الحبيبة التي كبرت إلى أحجام هائلة، وكأنما التصقت بالمنظار. كان منظر «الجمل» و«الذئب» و «السرج» و «الدبابة» مهيباً بنتوءاتها وشقوقها وبقع الطحلب البنية على جوانبها. والأهم من ذلك أنها كانت تشبه بالفعل ما رآه الصبي فيها. «أوه، يا له من «ذئب»! وهذه «الدبابة» يا سلام!..»

لاح حوض الجد وراء الأحجار، وظهر هذا الموضع من الشاطئ بوضوح عبر المنظار. كانت المياه تعرج على المنطقة الضحلة المفروشة بالحصى بصورة عابرة أثناء تدفقها السريع وتفور في تقلباتها ثم ترتد ثانية إلى مجرى النهر. وكان عمق الماء في المنطقة الضحلة يصل إلى الركبة. ولكن التيار كان من القوة بحيث كان باستطاعته بسهولة أن يسحب صبياً مثله. ولكي لا يسحبه التيار كان الصبي يتشبث بغصون شجيرة كانت تنبت على طرف الشاطئ تماماً، وتمتد بعض غصونها على الشاطئ بينما يتدلى بعضها في النهر. فكان الصبي يمسك بها ويغطس في الماء. ولكن أية سباحة هذه؟ كأنه حصان مقيد. زد على ذلك المضايقات العديدة والسباب! كانت الجدة توبخ الجد: «لو

سحبه التيار فالذنب ذنبه. لن أحرك إصبعاً. ما حاجتي إليه! أبوه وأمه هجراه، وأنا عندي ما يكفيني من الهموم، لم تعد لديّ قوة».

فماذا تقول لها؟ عجوز وتبدو محقة. ولكنه يشفق على الغلام، فالنهر قريب، عند الباب تقريباً. ومهما خوفت العجوز الصبي فهو ينزل النهر رغم ذلك. عندئذ قرر مأمون ان يصنع له حوضاً بسد من الأحجار عند المنطقة الضحلة من النهر، حتى يجد الصبي مكاناً آمناً يسبح فيه.

وكم من الأحجار نقلها العجوز مأمون، وهو يختار الكبيرة منها حتى لا يدفعها التيار! كان يحملها، ضاماً إياها الى بطنه ويقف في الماء ويضعها الواحد فوق الآخر بحيث تمر المياه بسهولة من بينها في الدخول والخروج. هذا الرجل الهزيل المضحك، بلحيته الخفيفة وسرواله المبلل الملتصق بساقيه، ظل يوماً كاملاً يعمل في هذا الحوض. وفي المساء استلقى بلا حراك وهو يسعل ولا يقوى على فرد ظهره. وهنا أطلقت الجدة لثورتها العنان: «إذا كان الصغير أحمق فله العذر، فأي عذر للكبير الأحمق؟ أي شيطان دفعك إلى هذا؟ تطعمه وتسقيه، فماذا أكثر؟ تلبّي له كل نزوة! لن يعود هذا بخير!..».

وأياً كان الأمر فقد جاء الحوض رائعاً. الآن أصبح الصبي يستحم دون خوف. كان يمسك بالغصن ويهبط من الشاطئ، ويلقي بنفسه في التيار. وحتماً بعينين مفتوحتين. لأن السمك يسبح بأعين مفتوحة. وكانت لديه أمنية غريبة.. كان يريد أن يتحول إلى سمكة. ويرحل سابحاً.

وتخيل الصبي وهو ينظر الى الحوض الآن بالمنظار كيف ينزع عن جسده القميص والسروال وينزل الى الماء عاريا وهو ينكمش. فمياه الانهار الجبلية دائماً باردة، تبهر الأنفاس، ولكن بعد ذلك تألفها.

تخيل كيف يمسك بغصن الشجيرة ويلقي بنفسه في التيار ووجهه الى أسفل. وكيف ينطبق الماء في صخب فوق رأسه، وينساب لاسعاً تحت بطنه وعلى ظهره وساقيه. وتحت الماء تخبو الأصوات الخارجية، ولا يبقى في الأذنين غير صرير الخرير. أما هو فيحملق بعينين مفتوحتين متفحصاً كل ما يمكن رؤيته تحت الماء. وتخزه عيناه وتؤلمانه، لكنه يبتسم لنفسه بل ويخرج لسانه في الماء.. هازئاً بجدته. فلتعرف أنه لن يغرق أبداً، وأنه لا يخشى شيئاً البتة. وبعد ذلك يترك الغصن فيسحبه الماء ويشده إلى أن تصطدم قدماه بأحجار السد. وهنا ينتهي تنفسه، فيقفز من الماء دفعة واحدة ويخرج إلى الشاطئ، ويجري من جديد إلى الشجيرة. وهكذا مرات عديدة. كان على استعداد لأن يستحم في حوض الجد ولو مائة مرة في اليوم. يستحم إلى أن يتحول أخيراً إلى سمكة. وكان يريد حتماً وبأية وسيلة أن يصبح سمكة...

ومضى الصبي يتفحص شاطئ النهر، ثم حوّل المنظار إلى فنائهم. بدت الدجاجات والديوك الهندية بفراخها، والفأس المسندة إلى الأرومة والسماور الداخن وغيرها من الأشياء في الفناء، كبيرة إلى درجة لا تعقل، وقريبة إلى حد جعل الصبي يمد يده لاإرادياً ليلمسها. وهنا رأى، والرعب يتملكه، العجل البني، وقد جعله المنظار بحجم فيل، يمضغ بهدوء الملابس المعلقة على حبل الغسيل. كان العجل مغمض العينين من النشوة، واللعاب يسيل من شفتيه. لقد كان مستمتعاً وهو يلوك بملء شدقيه ثوب الجدة.

وصاح الصبي وهو ينهض بالمنظار ويلوح بيده:

- أيها الاحمق! هيا ابتعد! أتسمع، أغرب من هنا! يا بالتيك، يا بالتيك (كان الكلب يبدو في المنظار مستلقياً بهدوء قرب البيت) عضه، عضه! - صاح الصبي في الكلب بلهفة.

ولكن «بالتيك» لم يحرك ساكناً. ظل مستلقياً وكأن شيئاً لم يكن.

في هذه اللحظة خرجت الجدة من البيت. وعندما رأت ما يحدث لوحت بيديها في فزع. ثم التقطت المكنسة واندفعت بها نحو العجل. وجرى العجل والجدة وراءه. ودون أن يحول الصبي نظره عنها جلس حتى لا تراه فوق الجبل. وبعد أن طردت العجل توجهت إلى البيت وهي تسب وتلهث من الغضب والجري. ورآها الصبي كأنما هي بجواره أو حتى أقرب. وظل يتابعها بالمنظار مركزاً عليها كما في اللقطات المكبرة في السينما عندما لا يظهر في المشهد إلا وجه الممثل فقط. رأى عينيها الصفراوين المزرورتين غضباً. ورأى وجهها ذا التجاعيد والطيات الثقيلة وهو يحتقن كله، وكما في السينما، عندها يختفي الصوت فجأة، راحت شفتا جدته تتحركان في المنظار دون صوت وبسرعة، كاشفتين عن أسنانها القليلة المتباعدة. لم يكن مسموعاً ما صاحت به العجوز من هذه المسافة، ولكن الصبي تبيّن كلماتها بدقة ووضوح وكأنما كانت تصرخ في أذنه. أوه كم كانت تلعنه! كان يحفظ عن ظهر قلب ما تقوله: «طيب، انتظر... سأريك عندما تعود! ولن أبالي بجدك. كم مرة قلت له أن يلقي بعيداً بهذه الشوّافة الحمقاء. ها هو قد هرب الى الجبل مرة أخرى. فلتخطفها مصيبة تلك السفينة البيضاء الملعونة ان شاء الله تغرق، ان شاء الله تتحرق!..»

زفر الصبي على الجبل مهموماً. اتشاء الظروف أن يغفل عن العجل في يوم كهذا، عندما اشتروا له حقيبة، وعندما راح يحلم بالذهاب إلى المدرسة!

لم تكفّ العجوز عن السباب وهي تتفحص ثوبها الممضوغ. وخرجت إليها جول جمال مع ابنتها. وتمادت الجدة في ثورتها وهي تشكو لها مما حدث. وأخذت تهز قبضتيها مهددة في اتجاه الجبل.

وظهرت قبضتها المعروقة السمراء منذرة أمام عدسة المنظار. «وجد له لعبة. فلتخطفها مصيبة تلك السفينة الملعونة! إن شاء الله تحترق، ان شاء الله تغرق!..».

كان السماور يغلي في الفناء. ومن تحت غطائه تصاعدت سحب البخار. وخرجت الخالة بيكي لتحمل السماور. وهنا بدأ كل شيء من جديد وكادت الجدة تدس ثوبها الممضوغ في أنف بيكي، كأنما تقول لها: هاكي، انظري ما حدث بسبب ابن اختك!

وأخذت الخالة بيكي تطيب خاطرها وتهدئها. وخمن الصبي ما كانت تقوله.. تقريباً مثلما كانت تقول في السابق: «لا تغضبي يا نينة، الصبي ما زال صغيراً، غافلاً، فلا تؤاخذيه. إنه وحده هنا، بلا أصحاب، لماذا تصرخين، لا داعي لتخويف الطفل!».

وترد الجدة بالتأكيد: «لا تنصحيني. فلتحاولي أن تلدي، وعندئذ ستعرفين معنى مؤاخذة الأولاد. ما الذي يجعله يجلس فوق الجبل؟ لا وقت لديه لربط العجل. عم يفتش هناك؟ عن والديه الضالين؟ اللذين انجباه وهربا كل في ناحية؟ طبعا أنت مرتاحة يا عاقر!..»

وحتى على هذا البعد رأى الصبي في المنظار خدي الخالة بيكي الغائرتين يشحبان بصفرة الموت، ورآها تختلج كلها، ثم انفجرت في وجه زوجة أبيها- وكان الصبي يعرف جيداً كيف سترد لها الصاع صاعين- «وأنت أيتها العجوز، كم ولداً وبنتاً ربيت؟ أنت نفسك، من تكونين؟»

وأية معمة بدأت!.. ولولت الجدة من الإهانة. وحاولت جول جمال مصالحة المرأتين، وراحت تهدئ الجدة وتعانقها، وأرادت أن تأخذها إلى البيت، ولكن العجوز ازدادت ثورة وهرولت في الفناء كالمجنونة. والتقطت الخالة بيكي السماور الملتهب وحملته إلى البيت ركضاً تقريباً والماء المغلي ينسكب منه. أما الجدة فجلست على

الأرومة وقد هدّها التعب. وأخذت تعول وتشكو بمرارة حظها التعس. وأصبح الصبي الآن منسياً، وانصبّت اللعنات على الرب وعلى الدنيا كلها. وصاحت الجدة بغضب في أثر ابنة زوجها: «هكذا تقولين عني؟ أتسألينني من أكون؟ أنا لولا أن الله عاقبني، لو أنه لم يأخذ مني أطفالي الخمسة، لو أن ابني الوحيذ لم يسقط في الثامنة عشرة صريع رصاصة في الحرب، لو أن زوجي الحبيب طايجار لم يتجمد في العاصفة الثلجية مع قطيع الغنم، فهل كنت أنا هنا، بينكم أيها المتوحشون؟ وهل أنا مثلك عاقر؟ هل كنت أعيش شيخوختي مع أبيك، مأمون العبيط؟ أي ذنب جنيته حتى تعاقبني أيها الإله الملعون؟»

نحى الصبي المنظار عن عينيه، وطأطأ رأسه بحزن. وقال للحقيبة بصوت خافت: «كيف سنعود الآن إلى البيت؟ كل ذلك بسببي وبسبب العجل الأحمق. وبسببك أيضاً يا منظار. دائماً تدعوني للنظر إلى السفينة البيضاء. أنت أيضاً مذنب».

تطلع الصبي حواليه. كانت الجبال بصخورها وأحجارها وغاباتها تحيط به. ومن القمة الجليدية تساقطت الجداول البراقة بلا صخب، وعندما بلغت الأسفل فقط بدا كأنما استعادت صوتها أخيراً لكي تصخب في النهر بلا انقطاع وإلى الأبد. وكانت الجبال تقف ضخمة بلا انتهاء. وأحس الصبي بنفسه في هذه اللحظة صغيراً للغاية، ووحيداً جداً، وضائعاً تماماً. كان وحده مع كل هذه الجبال، الجبال العالية في كل مكان حوله.

مالت الشمس إلى المغيب ناحية البحيرة. وخفّت حدة الحر. وظهرت أولى الظلال القصيرة على السفوح الشرقية. سوف تهبط الشمس الآن أسفل فأسفل، وستزحف الظلال إلى أسفل، نحو قاعدة الجبال. في هذا الوقت عادة تظهر السفينة البيضاء في بحيرة ايصيق-كول.

صوّب الصبي المنظار إلى أبعد نقطة مرئية وكتم أنفاسه. ها هي! وعلى الفور نسي كل شيء.. فهناك في الأمام، في طرف ايصيق - كول الشديدة الزرقة، ظهرت السفينة البيضاء. انشق عنها الماء. ها هي! بمداخنها المصفوفة، طويلة، قوية، جميلة. كانت تسير بانتظام واستقامة كأنما مشدودة بوتر. ومسح الصبي عدسات المنظار بطرف قميصه على عجل، وضبط العدسات ثانية. وأصبحت معالم السفينة أكثر تحديداً. صار من الممكن الآن أن يرى تأرجحها مع الأمواج، ومن خلفها يتبقى خط رائق مزبد. وراح الصبي يتأمل السفينة البيضاء بإعجاب ونهم. ولو كان يملك لرجا السفينة البيضاء أن تقترب لكي يرى ركابها. بيد أن السفينة لم تكن تعرف ذلك، فسارت في طريقها ببطء وعظمة قادمة من حيث لا يعرف أحد، ومتجهة إلى حيث لا يعرف أحد.

ظلت السفينة مرئية مدة طويلة، وفكر الصبي طويلا في أنه سيتحول إلى سمكة، ويسبح في النهر نحوها، نحو السفينة البيضاء...

عندما رأى السفينة البيضاء في ايصيق- كول لأول مرة من فوق جبل الحراسة، دق قلبه مدوياً من هذا الجمال، حتى أنه قرر على الفور أن أباه - البحار في ايصيق- كول - لا بد أن يعمل على هذه السفينة بالذات. وصدق الصبي ذلك، لأنه كان يريد ذلك بشدة.

لم يكن يذكر أباه أو أمه. لم يرهما قط. ولم يزره واحد منهما مرة واحدة. ولكنه كان يعرف أن أباه كان بحاراً في ايصيق- كول، وأن أمه- بعد أن افترقت عن أبيه- تركت ابنها للجد وسافرت إلى المدينة. ومنذ أن سافرت انقطعت أخبارها. سافرت إلى المدينة البعيدة خلف الجبال، وخلف البحيرة ثم خلف الجبال.

وذات مرة سافر مع الجد مأمون إلى تلك المدينة ليبيع البطاطس.

واختفى أسبوعاً كاملاً ثم عاد، وحكى للخالة بيكي وللجدة أثناء تناول الشاي، أنه رأى ابنته، أي أم الصبي. كانت تعمل نساجة في مصنع نسيج كبير. ولديها أسرة جيدة: ابنتان سلمتهما لروضة الأطفال وتراهما مرة واحدة في الأسبوع. وهي تعيش في بيت كبير، لكن في غرفة صغيرة، صغيرة إلى درجة أنك لا تستطيع أن تتحرك فيها. أما أهل البيت فلا يعرف بعضهم بعضا، كما هو الحال في السوق. وكلهم يعيشون على المنوال نفسه، ما إن يدخل أحدهم غرفته حتى يغلق الباب بالمفتاح. يعيشون محبوسين دائماً كأنهم في سجن. أما زوجها فيبدو أنه سائق، ينقل الناس بالباص عبر الشوارع. يخرج في الرابعة صباحاً ويعود متأخراً. عمل مرهق أيضاً. وقال الجد إن ابنته بكت كثيراً وسألته الصفح. وقالت إنهم ينتظرون الحصول على شقة جديدة، وليس معروفاً متى يحصلون عليها. ولكن بمجرد الحصول عليها ستأخذ ابنها منهم إذا وافق زوجها. وطلبت إلى العجوز أن يصبر قليلاً. وقال لها الجد مأمون بألا تحزن. أهم شيء أن تعيش مع زوجها في وفاق وما عدا ذلك فسوف ينصلح. ولا تشغل بالها بابنها. «فما دمت حياً لن أعطي الصبي لأحد، وإذا مت فسيرعاه الله، وسيجد حظه في الدنيا. . .». وكانت الخالة بيكي والجدة تصغيان إلى الجد وتتنهدان بين الحين والحين، بل لقد ذرفتا دمعة معاً.

وفي تلك المرة بالذات، أثناء تناول الشاي، تطرق الحديث إلى أبيه. فقد سمع الجد أن صهره السابق، أبا الصبي، ما يزال يعمل بحاراً على إحدى السفن، وأن لديه أيضاً أسرة جديدة وأولاداً لا يدري الجد إن كانوا اثنين أم ثلاثة. وأنهم يعيشون قريباً من المرفأ. ويبدو أنه أقلع عن الشراب. وزوجته الجديدة تخرج إلى المرفأ مع الأولاد لتستقبله في كل مرة. وفكر الصبي: «إذن فهم يستقبلون هذه السفينة، سفينته. . .».

بينما راحت السفينة تسبح مبتعدة ببطء. كانت بجسمها الأبيض الطويل تنزلق على سطح البحيرة الأملس الأزرق، مطلقة الدخان من مداخنها، ولا تدري أن صبياً يسبح نحوها وقد تحول إلى سمكة.

كان يحلم بأن يصبح سمكة بحيث يكون كل شيء فيه كما في السمك - الجسم والذيل والزعانف، والقشور- ولا يبقى على ما هو عليه سوى رأسه، بعنقه النحيل، ورأسه الكبير المستدير بأذنيه النافرتين وأنفه المخدوش. وتبقى عيناه أيضاً كما هما. لا تبقيان بالطبع كما هما تماماً، بل تحدقان كما تحدق الأسماك. فقد كانت رموشه طويلة، كرموش العجل، ولسبب ما كانت تطرف باستمرار من تلقاء نفسها. جول جمال تتمنى أن تصبح لابنتها مثل هذه الرموش، إذن لأصبحت جميلة. فلماذا تصبح جميلة؟ أو تصبح جميلاً؟ من بحاجة إلى ذلك؟ هو شخصياً لا يحتاج إلى عينين جميلتين، بل إلى عينين تريان تحت الماء.

كان التحول ينبغي أن يحدث في حوض الجد. هوب.. ويصبح سمكة! وبعدها يقفز على الفور من الحوض إلى النهر، إلى التيار الهادر مباشرة وينطلق معه إلى أسفل. وبعد ذلك يمضي على النحو التالي: يقفز ويتلفت حواليه.. فليس من الممتع أن تسبح تحت الماء فقط. وينطلق مع النهر السريع بمحاذاة الجرف الكبير الأحمر الطيني، ماراً بالجنادل والدوامات وبمحاذاة الجبال والغابات، ويودع أحجاره الحبيبة: «مع السلامة أيها «الجمل الراقد»، مع السلامة يا «ذئب»، مع السلامة يا «سرج»، مع السلامة يا «دبابة»». وعندما يمر بحذاء الكوردون يقفز من الماء ويلوح بزعنفته لجده: «مع السلامة يا جدي، سأعود قريباً». ويصاب الجد بالذهول من هذه الأعجوبة فلا يدري ماذا يفعل. والجدة، والخالة بيكي، وجول جمال وابنتها... كلهم يقفون فاغرين أفواههم. إذ كيف يحدث أن يكون الرأس رأس إنسان والجسم

جسم سمكة؟ أما هو فيلوح لهم بزعنفته: «مع السلامة، أنا ذاهب إلى ايصيق- كول، إلى السفينة البيضاء. فهناك أبي البحار». ولا بد أن «بالتيك» سينطلق راكضاً على الشاطئ. فالكلب لم ير شيئاً كهذا أبداً. وإذا همّ «بالتيك»! بأن يقفز إليه في الماء فيصيح به: «لا تفعل يا «بالتيك»! لا تفعل! ستغرق!». ويمضي هو قدماً. ويمر من تحت أسلاك الجسر المعلق، ويمضي بمحاذاة حرج الشاطئ، ثم يهبط مع الشعب الهادر، ويدلف إلى ايصيق - كول مباشرة.

وايصيق - كول ليست بحيرة، إنها بحر كبير. وسوف يسبح مع أمواجه، قافزاً من موجة إلى أخرى، وهكذا حتى يلتقي بالسفينة البيضاء. ويقول لها: «مرحبا أيتها السفيبة البيضاء، هذا أنا! أنا الذي كنت دائماً أنظر إليك بالمنظار». ويدهش ركاب السفينة، ويتزاحمون ليروا هذه الأعجوبة. وعندئذ يقول لأبيه البحار: «مرحبا يا أبي، أنا ابنك. لقد جئت سابحا» - «أي ابن أنت؟ أنت نصف سمكة نصف إنسان!» - «خذني إليك بالسفينة وسأصبح ابنك العادي» - «هذا رائع، هيا نجرب»، ويلقي أبوه بالشباك ويصطاده من الماء ويرفعه إلى سطح السفينة. وهنا يرتد إلى طبيعته. وبعد ذلك، بعد ذلك. . .

بعد ذلك تمضي السفينة البيضاء في طريقها. ويحكي الصبي لأبيه كل ما يعرفه، ويروي له تاريخ حياته. يحدّثه عن الجبال التي يعيش بينها، وعن تلك الأحجار، عن النهر والغابة المحمية، عن حوض الجد الذي تعلّم فيه العوم كالسمك بعينين مفتوحتين. . .

وسيحكي له بالطبع عن أحوال معيشته لدى الجد مأمون. واياك أن يظن أبوه أنهم طالما سموه مأمون الهمام فهذا يعني أنه سيئ. هذا الجد لا مثيل له في أي مكان، إنه أحسن جد. ولكنه ليس ماكراً البتة، ولذلك يهزأ الجميع به. بل إن العم أروزكول يصيح به، تصور، يصيح بالشيخ! وأنا حتى يصيح به أمام الناس. والجد، بدلاً من أن يدافع عن

نفسه، يغفر للعم أروزكول كل شيء، بل يعمل بدلاً منه في الغابة وفي تدبير شؤون المعيشة. ودعك من العمل! فعندما يأتي العم أروزكول مخموراً فإن الجد، بدلاً من أن يبصق في عينيه الوقحتين، يجري نحوه، وينزله من على الحصان، ويوصله إلى المنزل، ويرقده في الفراش، ويغطيه بمعطف الفراء لكي لا يشعر بالبرد ولكي لا يصاب بالصداع، ثم يفك السرج وينظف الحصان ويطعمه. وكل ذلك لأن الخالة بيكي عاقر. فلماذا هذا يا بابا؟ كان من الأفضل لو أن الأمر هكذا: إذا شئت أن تلدي فلتلدي، وإذا لم تشائي فلا داعي لذلك. أشفق على جدي عندما يضرب أروزكول الخالة بيكى. الأفضل لو ضرب الجد نفسه. فكم يتعذب عندما تصرخ الخالة بيكي. وما الذي يستطيع أن يفعله؟ عندما يهم بنجدة ابنته تمنعه الجدة وتقول: «لا تحشر نفسك، دعهما يسويان امورهما. ما دخلك أنت؟ هي ليست زوجتك، فلا تتحرك» - «ولكنها ابنتي!» فتقول الجدة: «وماذا كنت تفعل لو لم تكن قريباً منهما، بيتاً لبيت، لو كنت بعيداً؟ هل كنت تركض بالحصان في كل مرة لتفصل بينهما؟ ومن عندئذ يبقي ابنتك زوجة له؟»

والجدة التي أحدثك عنها ليست تلك التي كانت. ربما لا تعرفها يا بابا. إنها جدة أخرى. جدتي الأصلية ماتت عندما كنت صغيرا. وبعد ذلك جاءت هذه الجدة. والجو عندنا كثيراً ما يكون متقلبا غير مفهوم. . مرة صاف، ومرة مكفهر، ومرة مطر، ومرة بَرَد. وهكذا الجدة، غير مفهومة. مرة طيبة، ومرة شريرة، ومرة لا هذا ولا ذاك. وإذا غضبت فالعياذ بالله. عندئذ نلزم الصمت أنا وجدي. وهي تقول إن الغريب مهما أطعمته وسقيته فلا تتوقع منه الخير. ولكني يا بابا لست غريباً هناك. كنت دائماً أعيش مع جدي. إنها هي الغريبة، هي التي جاءتنا فيما بعد، وأخذت تدعوني بالغريب.

وفي الشتاء يسقط عندنا ثلج غزير يصل إلى عنقي. أوه، ما أكثر أكوام الثلج! فإذا ذهبت إلى الغابة فلن تستطيع إلا على ظهر الجواد «ألباش» الرمادي، فهو يشق الثلج بصدره. والرياح شديدة جداً. لا تكاد تقوى على الوقوف أمامها. وعندما تعلو الأمواج في البحيرة، وعندما تتمايل سفينتك من جنب إلى جنب، فلتعلم أن رياحنا، رياح سان - تاش تهز البحيرة. حكى لي الجد أنه في الماضي البعيد زحفت جيوش الأعداء لتستولي على هذه الأراضي. وعند ذلك هبّت من سان - تاش رياح شديدة أطاحت الأعداء من فوق سروجهم. وحاولوا السير مترجلين فلم يستطيعوا، فقد ساطت الرياح وجوههم حتى نزفت دماً. وعندئذ أداروا ظهورهم للريح فدفعتهم في ظهورهم ولم تمكنهم من التوقف حتى طردتهم عن آخرهم من ايصيق - كول. هذا ما حدث. أما نحن فنعيش في هذه الريح! إنها تبدأ من عندنا. وطوال الشتاء تصر الغابة خلف النهر وتئز وتتأوه في الريح، حتى ليداخلك الخوف.

وفي الشتاء ليس هناك عمل كثير في الغابة. في الشتاء تقفر ناحيتنا تماماً، بعكس الصيف، عندما يفد الرُّحّل. وأنا أحب كثيراً عندما يتوقفون مع قطعان الغنم أو الخيول صيفاً في المرج الكبير للمبيت. صحيح أنهم في الصباح يواصلون سيرهم إلى الجبال. ومع ذلك تشعر بالبهجة معهم. وأولادهم ونساؤهم يأتون في الشاحنات. ويحملون في الشاحنات خيامهم وشتى اللوازم. وبعد أن يستقروا قليلاً نذهب أنا وجدي لنسلم عليهم. نصافحهم فرداً فرداً. وأنا أيضاً أصافحهم. جدي يقول إن الأصغر سناً ينبغي أن يمد يده أولاً ليصافح. ومن لا يمد يده فإنه لا يحترم الناس. ويقول جدي أيضاً إن كل سبعة اشخاص يمكن أن يكون بينهم نبي. وهو رجل طيب وذكي. ومن يصافحه يصبح سعيداً مدى الحياة. وأنا أقول له: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا

يقول هذا النبي إنه نبي فنصافحه جميعاً. فيضحك جدي ويقول: هذه هي المسألة، فالنبي لا يعرف أنه نبي، إنه مجرد إنسان. المجرم وحده يعرف أنه مجرم. وأنا لا أفهم هذا تماماً، ولكني دائماً أصافح الناس، رغم أني أشعر ببعض الخجل.

أما عندما نأتي إلى المرج مع جدي فإني لا أخجل. «أهلا بكم في مراعي الآباء والأجداد، هل الماشية والناس بخير، هل الأولاد بخير؟» - هكذا يقول جدي. أما أنا فأصافحهم فقط. وكلهم يعرفون جدي، وهو يعرفهم كلهم. ما أسعده. فلديه أحاديثه الخاصة. إنه يسأل القادمين ويحكي لهم بدوره عن أحوالنا. أما أنا فلا أعرف عم أتحدث مع الأولاد. ولكننا بعد ذلك نبدأ في لعب «استغماية» و «الحرب»، ونندمج في اللعب حتى لا أعود أرغب في الرحيل. لو أن الصيف يبقى دائماً، لو أنه في الإمكان اللعب دائماً مع الأولاد في المرج!

وبينما نحن نلعب يوقدون النار. أتظن يا بابا أن النار تضيء المرج؟ أبداً! الضوء فقط حول النار، أما أبعد من ذلك فالظلمة أشد من السابق. ونحن نلعب «الحرب»، وفي هذا الظلام نختبئ ونهاجم، ويخيل الينا أننا في السينما فعلاً. فإذا كنت قائداً فالجميع يطيعونك. أظن أن القائد يشعر بالسرور لأنه قائد...

ثم يطلع القمر من وراء الجبال. واللعب في ضوء القمر أفضل، ولكن جدي يأخذني. ونعود إلى البيت عبر المرج وعبر الحرج. والاغنام ترقد في سكون، والخيول ترعى من حولها. وبينما نسير نسمع شخصاً يغني. راعي شاب أو ربما عجوز. ويستوقفني جدي قائلاً: «اسمع. هذه الأغاني لا تسمعها في كل وقت». ونقف ونستمع. ويتنهد جدي، ويومئ برأسه متجاوباً مع الأغنية. يقول جدي إنه من سالف الأزمان أسر خان خاناً آخر. وقال هذا الخان للخان الأسير: «إذا شئت عشت عندي عبداً، وإلا حققت لك أمنيتك الأخيرة

ثم قتلتك». وفكر هذا ثم أجاب «لا أرغب في أن أعيش عبدا. الأفضل أن تقتلني، ولكن قبل ذلك استدع من وطني أول راعٍ يصادفك»- «وما حاجتك إليه؟» - «أريد أن اسمع قبل الموت أغنيةً منه». جدي يقول إن الناس يضحون بحياتهم من أجل أغنية حبيبة. فأي ناس هؤلاء، أود لو أراهم. ربما يعيشون في المدن الكبيرة؟

ويهمس جدي:

- ما أمتع الاستماع، هه؟ يا إلهي، أية أغان كانوا يغنون!..

ولا أدري لماذا أحس بالإشفاق على جدي، ويتملكني حب طاغ له حتى أود أن أبكي...

في الصباح الباكر لا يبقى أحد في المرج، فقد سيقت الأغنام والخيول إلى الجبال لقضاء الصيف هناك. ثم يأتي بعدهم رحّل آخرون من مزارع تعاونية أخرى. وفي النهار لا يتوقفون بل يمضون قدماً. أما في الليل فيبقون للمبيت في المرج، فنذهب مع جدي لمصافحتهم. كم يحب جدي مصافحة الناس، وقد تعلمت منه ذلك. وربما قدر لي أن أصافح يوماً ما نبياً حقيقياً في المرج...

وفي الشتاء يسافر العم أروزكول والخالة بيكي إلى المدينة لزيارة الطبيب. ويقال إن الطبيب يمكن أن يساعد، ويعطي أدوية تمكن من إنجاب الأطفال. ولكن جدتي تقول دائماً إن أحسن شيء هو زيارة المكان المقدس. وهو هناك، وراء الجبال، حيث ينمو القطن في الحقول. هناك، في منطقة منبسطة إلى درجة يصعب معها أن تتصور وجود جبل فيها، يوجد هذا الجبل المقدس.. جبل سليمان. فإذا ذبحت شاة سوداء عند أسفل الجبل ودعوت إلى الله، وسرت صاعداً الجبل وأنت تركع مع كل خطوة وتدعو إلى الله وتتوسل إليه جيداً، فربما تلطّف ورزقك طفلاً. وخالتي بيكي ترغب جداً في الذهاب إلى هناك، إلى جبل سليمان. ولكن العم أروزكول لا يرغب في ذلك

كثيراً. فالمكان بعيد. وهو يقول: «هذا يتطلب نقوداً كثيرة. فلا يمكن الوصول إليه إلا بالطائرة عبر الجبال. ولكي تبلغ الطائرة لا بد من سفر طويل، وهذا أيضاً يحتاج إلى نقود. . .».

وعندما يرحلان إلى المدينة نبقى في الكوردون وحدنا تماماً. أنا وجدي وجدتي، وجيراننا: العم سيد أحمد وزوجته جول جمال وابنتهما الصغيرة. ولا أحد سوانا.

وفي المساء، عندما يفرغ جدي من أعماله، يروي لي الحكايات. وفي تلك الساعة أعرف أن الليل في الخارج مظلم جداً، قارس جداً، والريح تجول شرسة. وحتى أعتى الجبال تشعر بالخوف في تلك الليالي فتتلاصق كتلة واحدة وتقترب من بيتنا، نحو ضوء شباكنا. ويجعلني هذا أشعر بالرهبة والفرحة. ولو كنت عملاقاً لارتديت معطفاً عملاقاً وخرجت من البيت. ولصحت بالجبال: «لا تخافي يا جبال! أنا هنا! فلتهب الريح، وليشتد الظلام، ولتعصف العاصفة، فانا لا أخشى شيئا. وأنت أيضاً لا تخافي شيئاً، ابقي في مكانك، لا تتلاصقي كتلة واحدة». ولمضيت بعد ذلك أخوض في أكوام الثلج ولخطوت عبر الأنهار وذهبت إلى الغابة فالأشجار تشعر بالخوف الشديد أثناء الليل في الغابة. إنها وحدها، وليس هناك من يقول لها كلمة. والأشجار العارية تقف مقرورة في الصقيع ولا تستطيع أن تختبئ في أي مكان. وإذن لمضيت أسير في الغابة وأربت على جذع كل شجرة لكي أبدد خوفها. وربما تكون تلك الأشجار التي لا تخضر في الربيع قد تجمدت من الرعب. وفيما بعد نقطعها ونصنع منها حطباً.

إنني أفكر في هذا كله عندما يروي لي جدي الحكايات. وهو يروي طويلاً. ولديه حكايات مختلفة، منها المضحك، خاصة حكاية الصبي «عقلة الصباغ» الذي يدعى تشيبالاك، والذي بلعه الذئب الجشع

فجلب على نفسه المصائب. كلا، في البداية أكله الجمل. نام تشيبالاك تحت ورقة شجرة، وكان الجمل يتجول في هذه المنطقة، فالتهمه مع الورقة. ولذلك يقولون: لا يعرف الجمل ماذا أكل. وأخذ تشيبالاك يصرخ طالباً النجدة، فاضطر والداه إلى ذبح الجمل لإنقاذ ابنهما. اما مع الذئب فكان الأمر أنكى. فهو أيضاً، لحماقته، بلع تشيبالاك، ثم راح يبكي على ما أصابه. فقد صادف الذئب في طريقه تشيبالاك: «ما هذه الحشرة التي تتسكع هنا؟ سأبلعك في غمضة عين». فقال له تشيبالاك: «لا تلمسني يا ذئب، وإلا جعلت منك كلباً»! فقهقه الذئب: «ها- ها. . من ذا الذي رأى ذئباً يصير كلباً! سآكلك عقاباً على وقاحتك». وبلعه. ثم نسي الأمر. ولكنه منذ ذلك اليوم لم يعد يعرف حياة الذئاب. ما إن يقترب من الغنم متلصلصاً حتى يصيح تشيبالاك في بطنه: «أيها الرعاة، لا تناموا! إنني أنا الذئب الأغبر، أتسلل لكي أسرق غنمة!». ولا يدري الذئب ماذا يفعل، فيعض جبينه، ويتقلب على الأرض. ولكن تشيبالاك لا يكف عن الصياح: «أيها الرعاة، أسرعوا إلى هنا، اضربوني، هيا!» فيهرع الرعاة إلى الذئب بالهراوات ويركض هو هارباً منهم. ويدهش الرعاة وهم يركضون. ماذا دهى الذئب، هل جن حتى يجري ويصيح في الوقت نفسه: «الحقوا بي!» وفي تلك الأثناء يهرب الذئب. ولكن ذلك لا يخفف عنه. فحيثما يذهب يفضحه تشيبالاك. وفي كل مكان يطاردونه ويضحكون منه. وهزل الذئب من الجوع، فلم يبق منه إلا الجلد والعظم. ويقضقض الذئب أسنانه ويقول معولاً: «ما هذه البلوى التي ابتليت بها؟ لماذا أجلب على نفسي المصائب بنفسي؟ يبدو أنني خرفت في آخر العمر وطار عقلي». ولكن تشيبالاك يهمس في أذنه: «أسرع إلى تاشمات فلديه نعاج سمينة! أسرع إلى بايمات، فكلابه صماء! أسرع إلى أرمات، فرعاته نائمون». ولكن الذئب لا يتحرك بل

يقول شاكياً: «لن أذهب إلى أي مكان، الأفضل أن أذهب إلى أي شخص ليستخدمني كلباً. . .».

أليست حكاية مضحكة يا بابا؟ ولدى جدي حكايات أخرى حزينة ومرعبة. ولكن أَحَبَّ حكاية لديّ هي حكاية أمنا الغزالة أم القرون. جدي يقول إن كل من يعيش عند ايصيق- كول ينبغي أن يعرف هذه الحكاية، وحرام ألا تعرفها. ربما تعرفها يا بابا؟ جدي يقول إن كل ما فيها صدق، وإن ذلك حدث في زمن ما. وإننا جميعاً أمنا الغزالة أم القرون. أنا وأنت والآخرون جميعاً. . .

وهكذا نعيش شتاء. وما أطول الشتاء. ولولا حكايات جدي لشعرت بالملل الشديد في الشتاء.

أما في الربيع فأحوالنا طيبة. فعندما يعمّ الدفء يأتي الرعاة إلى الجبال. وعندئذ لا نصبح وحدنا في الجبال. صحيح أنه لا يوجد أحد بعدنا، فيما وراء النهر. هناك الغابة فقط، وكل ما في الغابة. ونحن إنما نعيش في الكوردون حتى نمنع أي شخص من الوصول إليها، وحتى لا يلمس أحد غصن شجرة، بل لقد جاء إلينا ذات مرة علماء. امرأتان، والاثنتان ترتديان السراويل، ورجل عجوز، وشاب. كان ذلك الشاب يدرس عندهم. وعاشوا شهراً كاملاً. كانوا يجمعون الأعشاب وأوراق الشجر والأغصان. وقالوا إنه لم يبق في العالم إلا القليل جداً من الغابات التي تشبه غاباتنا في سان- تاش. بل يمكن القول إنه لم يبق شيء تقريباً. ولذلك ينبغي الحرص على كل شجرة في الغابة.

أما أنا فكنت أظن أن جدنا يحرص على كل شجرة هكذا، لمجرد الحرص. وهو يكره بشدة عندما يهدي أروزكول جذوع شجر الصنوبر. . .

(٣)

ابتعدت السفينة البيضاء. ولم تعد مداخنها ترى بالمنظار. وعما قريب ستختفي تماماً. لقد آن للصبي الآن أن يضع نهاية لرحلته على سفينة أبيه. كان كل شيء يمضي في خياله على ما يرام، أما النهاية فاستعصت عليه. كان يستطيع أن يتصور بسهولة كيف يتحول إلى سمكة، وكيف يسبح في النهر حتى البحيرة، وكيف يلتقي بالسفينة البيضاء، وكيف يلقى أباه. وكيف يروي له كل شيء. وبعد ذلك يتعثر تفكيره. فعلى سبيل المثال ها هو الشاطئ يلوح، وتتجه السفينة إلى المرفأ، ويستعد البحارة للنزول إلى الشاطئ. وسوف يذهبون إلى بيوتهم. وعلى أبيه أيضاً أن يذهب إلى بيته. وعند المرفأ تنتظره زوجته وطفلاه. فما العمل؟ هل يذهب مع أبيه؟ وهل سيأخذه هو معه؟ فإذا أخذه فستسأله زوجته: «من هذا، من أين، ولماذا؟». كلا. الأفضل ألا يذهب. . .

وابتعدت السفينة البيضاء أكثر فاكثر فتحولت إلى نقطة لا تكاد ترى. واستقرت الشمس فوق الماء. وظهر سطح البحيرة في المنظار وهو يلمع بلون ليلكي ناري.

ابتعدت السفينة ثم اختفت. ها قد انتهت حكاية السفينة البيضاء. ينبغي أن يعود إلى البيت.

رفع الصبي الحقيبة من الأرض ووضع المنظار تحت إبطه. وهبط من الجبل بسرعة وهو يركض في خط متعرج فوق السفح. وكلما

اقترب من البيت ازداد قلقه. كان في انتظاره الحساب على الثوب الذي مضغه العجل. ولم يعد يفكر في شيء سوى في العقاب. ولكي لا ينهار تماماً قال للحقيبة: «لا تخافي. سوف يوبخوننا فقط. فأنا لم أفعل ذلك عن عمد. لم أكن أعرف أن العجل هرب. حسناً، ربما ضربوني على قفاي. سأتحمل. وإذا ألقوا بك على الأرض فلا تخافي، فأنت حقيبة ولن تتحطمي. أما إذا وقع المنظار في يد الجدة فلن يسلم. فلنخبئه أولاً في الحظيرة، ثم نذهب إلى البيت...»

وهذا ما فعله. وكان يخشى أن يعبر العتبة.

ولكن هدوءاً مريباً كان يلف البيت. وكان الفناء خاوياً وصامتاً كأنما هجره أهله. واتضح أن زوج الخالة بيكي قد ضربها ثانية. ومن جديد اضطر الجد مأمون إلى تهدئة أروزكول المخبول، ومن جديد اضطر العجوز إلى التوسل إليه والتعلق بقبضتيه الهائلتين، وهو يشهد كل هذا العار.. يرى ابنته مضروبة، ممزقة الثياب، معولة. ويسمع كيف تسب ابنته أقذع سباب في حضرته، هو أبوها. كيف تنعت بالكلبة العاقر، والحمارة العجفاء الملعونة وغيرها من الشتائم. ويسمع كيف تولول ابنته بصراخ مجنون رهيب لاعنة حظها: «هل الذنب ذنبي في أن الله حرمني الإنجاب! ما أكثر النساء اللائي يلدن كالنعاج، أما أنا فقد أصابتني لعنة السماء! ماذا فعلت؟ لماذا يكون حظي هذه الحياة! اقتلني أحسن أيها الوحش! هيا، اضرب، اضرب!..».

جلس العجوز مأمون حزيناً في الركن وهو لا يزال يلهث، وقد أرخى جفنيه، وكانت ذراعاه الراقدتان على ركبتيه ترتعشان. كان شديد الشحوب.

نظر مأمون إلى حفيده ولم يقل شيئاً، وعاد فأغمض عينيه في تثاقل. لم تكن الجدة في البيت، فقد ذهبت تصلح بين الخالة بيكي وزوجها وترتب البيت وترفع حطام الآنية المكسورة. هكذا هي

الجدة: عندما يضرب أروزكول زوجته لا تتدخل وتمنع الجد من التدخل. وبعد الشجار تذهب للإصلاح والتهدئة. شكراً لها على أي حال.

كان الصبي يرثي أكثر شيء للجد. ففي مثل هذه الحالات يكاد العجوز يلفظ انفاسه. كان جالساً في الركن كالذاهل، متوارياً عن الأنظار. ولم يفض بما يدور في خاطره لأي شخص. كان مأمون في تلك اللحظات يفكر في أنه أصبح عجوزاً، وأنه لم يرزق إلا ابناً واحداً، وحتى هذا الابن فقد استشهد في الحرب. ولم يعد أحد يعرف عنه شيئاً، ولا أحد يذكره - ولو عاش ابنه فربما كان الحظ مختلفاً. وحنّ مأمون إلى زوجته المتوفاة، التي عاش معها كل حياته. أما المصيبة الكبرى فهي أن ابنتيه لم تحظيا بالسعادة. فالصغرى ألقت إليه بحفيده ورحلت إلى المدينة، وها هي الآن تشقى بعائلة كبيرة في غرفة واحدة. والثانية تتعذب هنا مع أروزكول. ورغم أنه- مأمون - معها، ورغم أنه مستعد لتحمل كل شيء من أجل ابنته، إلا أنها حرمت من سعادة الأم وما زالت محرومة... وها هي تعيش مع أروزكول منذ سنوات طويلة، وها هي ر تطيق حياتها معه، ولكن ما العمل؟ وماذا سيحدث مستقبلاً - فمن يدري فقد يموت قريباً فهو عجوز - فكيف ستمضي حياتها، هذه البنت المسكينة البائسة؟

شرب الصبي على عجل لبناً رائباً من الكوب وأكل كسرة رغيف، وجلس منزوياً بجوار النافذة. لم يشعل المصباح، إذ لم يشأ أن يزعج جده، فليدعه مع أفكاره. واستغرق الصبي أيضاً في أفكاره الخاصة. لم يستطع أن يفهم لماذا تغدق الخالة بيكي على زوجها الفودكا. فبعد أن يشبعها ضرباً تقوم فتضع أمامه زجاجة فودكا أخرى...

مسكينة الخالة بيكي! كم مرة ضربها زوجها حتى كادت تموت، ولكنها تغفر له كل ذلك. والجد مأمون أيضاً يغفر له دائماً. فلماذا

يغفرون؟ لا ينبغي أن تغفر لأمثال هؤلاء. إنه شخص وغد، فاسد. ولا داعي لوجوده هنا. بدونه نستطيع أن نعيش.

ورسم له خياله الطفولي المستثار صورة حية للعقاب العادل. فها هم جميعاً ينقضون على أروزكول ويسحبونه - هذا السمين، الضخم، القذر - إلى النهر. وبعد أن يؤرجحوه، يلقون به إلى الدوامات فوق صخور النهر مباشرة. أما هو فيتوسل إلى الخالة بيكي والجد مأمون أن يسامحاه. فليس في وسعه أن يصبح سمكة...

أحس الصبي بارتياح، بل لقد داعبه الضحك وهو يرى في أحلامه كيف يتخبط أروزكول في مياه النهر، وقبعته القطيفة تطفو بجواره.

ولكن الكبار، للأسف الشديد، لم يفعلوا ما كان الصبي يعتبره عدلاً. بل كانوا يفعلون العكس تماماً. إذ يأتي أروزكول إلى البيت ثملاً، فيستقبلونه وكأن شيئاً لم يكن. الجد يأخذ الحصان، والزوجة تجري لتشعل السماور. وكأنما كل ما كانوا يفعلونه هو انتظاره. أما هو فيبدأ يتقنزح. في البداية يحزن، ثم يبكي. ويشكو: كيف هذا، كل شخص، حتى من لا قيمة له، حتى ذلك الذي لا ضرورة لأن تصافحه باليد، لديه أطفال كما يحلو له. خمسة أو حتى عشرة. فهل هو، أروزكول، اسوأ من الآخرين؟ ما الذي يعيبه؟ أم أنه لم يبلغ منصباً عالياً؟ إنه، ولله الحمد، كبير مراقبي غابة محمية! أم أنه واحد من المتشردين الضالين؟ حسناً، فحتى الغجري لديه من الأطفال ما يكفيه ويزيد. أم أنه مجهول النسب ولا يحظى بالاحترام؟ كلا، لديه كل شيء، كل ما يبغيه حققه. لديه حصان مسرج، وسوط في يمينه، وفي كل مكان يلقى الاحترام. فلماذا إذن يقيم أترابه حفلات الزفاف لأبنائهم أما هو فلا؟ ومن يكون بدون ابن، بدون نسل؟

والخالة بيكيَ أيضاً تبكي، وتهرول، تريد بصورة ما أن ترضي زوجها. فتُخرج زجاجة الفودكا المخبأة. وتشرب هي أيضاً من

الأسى. وبمضي الوقت يتأزم الموقف. وفجأة يصيح أروزكول كالوحش، فيصب كل غضبه عليها، على زوجته. ولكنها تغفر له كل شيء. والجد أيضاً يغفر له. لا أحد يعقل أروزكول. وعندما يفيق من سكره في الصباح إذا بزوجته- رغم الكدمات الزرقاء في جسمها- قد أشعلت السماور. وإذا الجد قد علف الحصان شعيراً وأسرجه. ويشرب أروزكول الشاي حتى يشبع، ويمتطي الحصان، ويصبح من جديد رئيسا، سيد كل الغابات في سان- تاش. ولا يدور ببال أحد أن رجلاً مثل أروزكول كان ينبغي منذ وقت بعيد أن يلقوا به في النهر. . .

كان الظلام قد أطبق، وحلّ الليل.

وهكذا انتهى ذلك اليوم الذي اشتروا فيه للصبي حقيبته المدرسية الأولى.

وعندما أوى إلى الفراش لم يستطع أن يهتدي إلى مكان يضع فيه الحقيبة. وأخيراً وضعها بجوار رأسه. لم يكن الصبي يعرف- سيعرف فيما بعد- أن مثل هذه الحقيبة بالضبط ستكون لدى نصف تلاميذ الصف تقريباً. ولكن ذلك لن يؤثر فيه بشيء، فمهما كان ستظل حقيبته أكثر الحقائب غير عادية، حقيبة فريدة تماما. ولم يكن يعرف أيضاً أن أحداثاً جديدة تنتظره في حياته الصغيرة، وأنه سيأتي يوم يصبح فيه وحيداً في الدنيا كلها ولن يكون معه سوى الحقيبة. وسيكون السبب في كل ذلك حكايته الحبيبة عن الغزالة الأم، أم القرون. . .

في ذلك المساء رغب بشدة في سماع هذه الحكاية مرة أخرى. وكان مأمون العجوز نفسه يحب هذه القصة ويرويها وكأنما رأى بنفسه كل شيء، ويتنهد ويبكي ويصمت غارقاً في أفكاره الخاصة.

ولكن الصبي لم يجرؤ على إزعاج جده. كان يدرك أن جده ليس في حالة تسمح له برواية الحكايات. «سنطلب منه ذلك في مرة أخرى

- قال الصبي للحقيبة. - أما الآن فسأروي أنا لك عن أمنا الغزالة، أم القرون كما يروي جدي بالضبط. وسأحكي بصوت خافت جداً حتى لا يسمع أحد، فلتسمعي أنت فقط. إنني أحب أن أروي وأرى أمامي كل شيء كما في السينما. جدي يقول إن كل هذا حقيقة. وإن هذا حدث...».

(٤)

حدث كل ذلك منذ زمن بعيد. في الأزمان الغابرة السحيقة، عندما كانت الغابات في الأرض أكثر من الأعشاب، والمياه في نواحينا أكثر من اليابسة، عاشت قبيلة قيرغيزية على شاطئ نهر كبير بارد المياه. وكان هذا النهر يسمى «اينيساي». وهو نهر يجري في مكان بعيد عن هنا، في سيبيريا، ولو ذهبت على ظهر حصان لوصلت إلى هناك في ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر. وقد أصبح اسم هذا النهر الآن «ينيسيي»، أما في ذلك الزمن فكان اسمه «اينيساي». ولهذا كانت هناك أغنية تقول:

هل هناك نهر أعرض منك يا اينيساي،
هل هناك موطن أعز منك يا اينيساي؟
هل هناك حزن أعمق منك يا اينيساي،
هل هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساي؟

ليس هناك نهر أعرض منك يا اينيساي،
ليس هناك موطن أعز منك يا اينيساي؟
ليس هناك حزن أعمق منك يا اينيساي،
ليس هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساي. . . .

هكذا كان هذا النهر، اينيساي.

وكانت شعوب مختلفة تعيش على ضفاف اينيساي آنذاك. وكانت حياتهم شاقة لأنهم كانوا في عداء دائم. وأحاط أعداء كثيرون بالقبيلة القيرغيزية، فكان هؤلاء يغيرون عليها مرة، وأولئك مرة أخرى، وأحياناً كان القيرغيزيون يغيرون على الآخرين، فينهبون الماشية ويحرقون البيوت ويقتلون الناس. كانوا يقتلون كل من يستطيعون قتلهم.. فهكذا كانت تلك الأزمان. لم يكن الإنسان يشفق على الإنسان. كان الإنسان يبيد الإنسان. ووصل الأمر إلى حد أنه لم يعد هناك من يزرع القمح ويربي الماشية ويخرج إلى الصيد. وأصبح العيش عن طريق النهب أسهل. ما عليك إلا أن تأتي وتقتل وتنهب. ولكن القتل يتطلب الرد بمزيد من الدماء، والثأر بمزيد من الثأر. وكلما مضى الزمن ازدادت إراقة الدماء. وجن جنون الناس. لم يعد هناك من يصالح الأعداء. وكانوا يعتبرون أذكى الناس وأفضلهم هم أولئك الذين يتمكنون من أخذ أعدائهم على حين غرة، وإبادة القبيلة الأخرى عن بكرة أبيها والاستيلاء على ماشيتها وثروتها.

وظهر في غابات «التايجا» طائر عجيب. كان يغني ويبكي بصوت بشري شاك طوال الليل وحتى الفجر، ويعدد وهو يتنقل من غصن إلى غصن: «سيجيء بلاء عظيم، سيجيء بلاء عظيم!». وهذا ما كان، وحلّ ذلك اليوم الرهيب.

في ذلك اليوم كانت القبيلة القيرغيزية على شاطئ اينيساي تدفن زعيمها العجوز. ظل البطل كولتشي قائداً سنوات عديدة، وشارك في الكثير من الحملات، وخاض الكثير من المعارك. ونجا من الموت في القتال، ولكن ساعته دنت. وحزن أبناء القبيلة عليه حزناً عظيماً يومين وفي اليوم الثالث استعدوا لمواراة جسده في التراب. وحسب العادة القديمة كان من المفروض أن يُحمل جسد الزعيم إلى مثواه الأخير على شاطئ اينيساي المرتفع، فوق الجروف والنتوءات لكي

تودع روح الراحل من الأعالي اينيساي النهر الأم. فكلمة «أيني» تعني الأم، و«ساي» تعني المجرى أو النهر. ولكي تنشد روحه لآخر مرة أغنية اينيساي:

هل هناك نهر أعرض منك يا اينيساي،
هل هناك موطن اعز منك يا اينيساي؟
هل هناك حزن أعمق منك يا اينيساي،
هل هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساي؟

ليس هناك نهر أعرض منك يا اينيساي،
ليس هناك موطن أعز منك يا اينيساي،
ليس هناك حزن أعمق منك يا اينيساي،
ليس هناك حرية أكثر من حريتك يا اينيساي...

وكان من المفروض عند تل الدفن، بجوار المقبرة المفتوحة، أن يرفعوا الزعيم فوق الرؤوس ليرى الجهات الأربع: «هذا هو نهرك. هذه هي سماؤك. هذه هي أرضك. هؤلاء نحن، المولودين وإياك من أصل واحد، قد جئنا جميعاً لنودعك، فلتنم مطمئناً». وكانوا يضعون على قبر الزعيم كتلة صخرية لتبقى ذكراه للأخلاف القادمين.

وفي أيام الدفن كانت خيام القبيلة كلها تقام سلسلة على امتداد الشاطئ، لكي تستطيع كل عائلة أن تودع الزعيم من أمام عتبة الدار عندما يحملون جسده إلى المقبرة، وتنكس علم الحزن الأبيض وهي تعول وتبكي، ثم تمضي إلى الخيمة التالية مع الجميع، حيث يعددون ويبكون وينكسون علم الحزن الأبيض من جديد، وهكذا حتى نهاية الطريق، حتى تل الدفن نفسه.

وفي صباح ذلك اليوم كانت الشمس قد خرجت إلى رحلة النهار

عندما انتهت جميع الاستعدادات. أخرجت الصواري التي كانت الحراب وشعر ذيول الخيول مثبتة عليها، والتي هي رمز جدارة القائد العسكري، وأخرجت دروع الزعيم الحربية: الترس والرمح. وغطى حصانه بملاءة حداد. واستعد نافخو الأبواق للدق عليها بحيث ترتج غابات التايجا، وتطير الطيور فزعة إلى السماء وتحوم زاعقة، وتركض الوحوش في الأدغال مطلقة زئيراً رهيباً، ويلتصق العشب بالأرض، ويتردد الصدى في الجبال مدوياً، وتنتفض الجبال. وحلت النادبات شعرهن ليندبن نائحات البطل كولتشي. وركع الفرسان على ركبة واحدة لكي يرفعوا على أكتافهم القوية جسده الفاني. كان الجميع مستعدين في انتظار نقل جثمان البطل. وعند طرف الغابة ربطت تسعة أفراس قرابين وتسعة ثيران قرابين، وتسع تسعات من الغنم القرابين لوليمة التأبين.

وهنا وقع ما لم يكن في الحسبان. فمهما بلغ العداء بين الاينيسايين، إلا أنهم في أيام دفن الزعماء كانوا يمتنعون عن محاربة الجيران. أما اليوم فقد أحاطت جحافل الأعداء خفية عند الفجر بمضرب القيرغيزيين الغارق في الحزن، وانقضّت هذه الجحافل من مكامنها من جميع الجهات دفعة واحدة، بحيث لم يتمكن أحد من امتطاء جواده أو امتشاق سلاحه. وبدأت مجزرة لا مثيل لها. أعملوا القتل في الجميع بلا استثناء. فهكذا خطط الأعداء لكي يقضوا بضربة واحدة على القبيلة القيرغيزية الجسور. راحوا يقتلون بالجملة حتى لا يبقى شاهد على هذه الجريمة النكراء، وحتى لا يبقى أحد ليثأر، وحتى تغطي رمال الزمن السافية آثار الماضي، وكأن شيئاً لم يكن. . .

إن ولادة الإنسان وتربيته تستغرقان وقتاً طويلاً، ولكن ليس هناك أسرع من قتله. وهكذا رقد الكثيرون صرعى غارقين في بحور الدماء، وألقى الكثيرون بأنفسهم في النهر هرباً من السيوف والرماح، فغرقوا

في أمواج اينيساي. وعلى طول الشاطئ، بامتداد الجروف والنتوءات اشتعلت خيام القيرغيزيين لفراسخ طويلة وقد أحاطت بها النيران. لم يتمكن أحد من الهرب، ولم يبق أحد على قيد الحياة. وكان كل شيء مدمراً ومحروقاً. وألقوا بأجساد القتلى في اينيساي من فوق الجروف. وهلل الأعداء: «هذه الأرض الآن لنا! هذه القطعان الآن لنا!».

ورجع الأعداء بالغنائم الوفيرة ولم يلاحظوا كيف عاد من الغابة طفلان، صبي وصبية. كان هذان الشقيان العصيان قد تسللا في الصباح، دون علم أهلمها، إلى الغابة القريبة لتقشير اللحاء لصنع السلاسل. واستغرقهما اللهو فلم يلحظا أنهما توغلا في الغابة. وعندما سمعا ضجيج وصراخ المذبحة انطلقا عائدين، ولكنهما لم يجدا أحداً على قيد الحياة، لا آباءهما ولا أمهاتهما ولا أخواتهما ولا إخوتهما. أصبح الطفلان بلا أصل، بلا قبيلة. وركضا وهما يبكيان من كوم رماد إلى آخر ولكنهما لم يجدا أحداً من الأحياء. أصبحا يتيمين في لحظة. أصبحا وحيدين في الدنيا كلها. وعند الأفق تصاعدت سحب الغبار، فقد ساق الأعداء إلى مضاربهم قطعان الخيول والأغنام التي استولوا عليها في غزوتهم الدامية.

وعندما رأى الطفلان سحب الغبار انطلقا للحاق بالركب. ركض الطفلان صارخين باكيين وراء الأعداء الشرسين- الأطفال وحدهم هم الذين يقدمون على ذلك. فبدلاً من أن يختبئا من السفاحين ركضا وراءهم ليلحقا بهم. المهم ألا يبقيا وحدهما، المهم أن يبتعدا عن هذا المكان الخراب الملعون. أمسك الصبي بيد الصبية وركضا خلف الركب وهما يصرخان طالبين من الأعداء أن ينتظروهما ويأخذوهما معهم. ولكن أصواتهما الضعيفة ضاعت في ضجيج الركب السريع وصهيل الخيول ووقع الحوافر.

ركض الصبي والصبية طويلاً في أسى، ولكنهما لم يلحق

بالركب. ثم سقطا على الأرض وهما يخشيان أن ينظرا حولهما أو يتحركا. استولى عليهما رعب رهيب، والتصق كل منهما بالآخر ولم يلحظا كيف ناما.

حقاً يقال إن اليتيم محروس. فقد مرت الليلة بسلام. لم يمسسهما وحش، ولم تخطفهما غيلان الغابة. وعندما استيقظا كان الصباح قد أشرق والشمس تضيء، والعصافير تغني. استيقظ الطفلان وسارا من جديد في اثر الركب. وفي الطريق كانا يجمعان ثمار الغابة. سارا طويلاً، وفي اليوم الثالث بلغا جبلاً. وعندما نظرا من أعلاه شاهدا وليمة عظيمة مقامة في مرج عريض أخضر. الخيام المضروبة لا تعد ولا تحصى، والنيران الموقدة لا تعد ولا تحصى، والناس مجتمعة حول النيران لا تعد ولا تحصى. والبنات يتأرجحن في الأراجيح وينشدن الأغاني. والمصارعون يحومون كالنسور، ويلقي أحدهم بالآخر على الأرض تسلية للنظارة. كان الأعداء يحتفلون بانتصارهم.

وقف الصبي والصبية على الجبل مترددين في النزول. ولكن الرغبة كانت قوية في الاقتراب من النيران حيث انتشرت رائحة لذيذة من اللحم المشوي والخبز والبصل البري.

ولم يصمد الطفلان أمام الإغراء فهبطا من الجبل. ودهش القوم للقادمين فأحاطوا بهما:

- من أنتما؟ من أين؟

فأجاب الصبي والصبية:

نحن جوعى. أعطونا نأكل.

وأدرك القوم من لهجتهما مَن هما، فارتفع اللغط والصخب. ونشب بينهم جدال: هل نقتلهما تواً، هذه البذرة المتبقية من الأعداء، أم نأخذهما إلى الخان. وبينما هم يتجادلون استطاعت امرأة حنون أن تدس في يدي الطفلين قطعتي لحم خيل مسلوق. وسحبوهما إلى

الخان نفسه وهما يقضمان اللحم بنهم. وأدخلوهما خيمة حمراء عالية وقف أمامها حراس يحملون فؤوساً فضية. وانتشر في المضرب نبأ مزعج بظهور أبناء القبيلة القيرغيزية من حيث لا يدري أحد. فما معنى هذا يا ترى؟ وترك الجميع ألعابهم وطعامهم، وأحاطوا جمهوراً غفيراً بخيمة الخان. وفي ذلك الوقت كان الخان مضطجعاً على وسادة بيضاء كالثلج مع كبار جنده. وكان يشرب «الكوميس» المحلى بالعسل، ويصغي إلى أغاني المديح. وعندما عرف الخان بسبب مجيئهم إليه استبد به غضب رهيب: «كيف تجرؤون على إزعاجي؟ ألم نبد القبيلة القيرغيزية عن آخرها؟ ألم أجعلكم أصحاب اينيساي إلى الأبد؟ فلماذا ركضتم إلى هنا يا ذوي النفوس الجبانة؟ انظروا من يقف أمامكم!- وصاح الخان - أيتها العجوز العرجاء المجدورة - وعندما خرجت العجوز من الحشد قال لها: - خذيهما إلى التايجا وافعلي بهما ما تكون فيه نهاية القبيلة القيرغيزية، حتى لا تقوم لها قائمة، وحتى يُنسى اسمها إلى الأبد. هيا أيتها العجوز العرجاء المجدورة، افعلي ما أمرتك به. . .»

اذعنت العجوز العرجاء المجدورة في صمت، وأمسكت بيدي الصبي والصبية وابتعدت بهما. وساروا طويلاً في الغابة، حتى وصلوا إلى شاطئ اينيساي ووقفوا على جرف عال. هنا أوقفت العجوز العرجاء المجدورة الطفلين ووضعتهما جنباً إلى جنب على حافة الجرف. وقبل أن تدفعهما إلى أسفل قالت:

- أيها النهر العظيم إينيساي! لو ألقي جبل في أعماقك لغاص فيها كالحجر. ولو ألقيت صنوبرة عتيقة لجرفتها كالقشة. فلتستقبل مياهك حبتي رمل. . طفلين من أبناء البشر. ليس لهما مكان على وجه الأرض. أنت أعلم يا اينيساي فها أنت بحاجة إلى أن أخبرك؟ لو أن النجوم أصبحت بشراً لضاقت بهم السماء. ولو أصبحت الأسماك بشراً

لضاقت بهم الأنهار والبحار، فهل أنت بحاجة إلى أن أخبرك يا اينيساي؟ فلتأخذهما إليك ولتحملهما معك. وليغادرا عالمنا الشقي وهما طفلان بروحين طاهرتين وضمير طفولي لم تلوثه الأطماع الشريرة والأعمال الشريرة، حتى لا يعرفا آلام البشر وحتى لا يتسببا في عذاب الآخرين. خذهما خذهما يا اينيساي العظيم. . .

وراح الصبي والصبية يبكيان، ينتحبان. وهل كان بوسعهما أن يصغيا إلى كلام العجوز عندما كان مجرد النظر من الجرف إلى أسفل مرعباً. كانت الأمواج تتلاطم بعنف هناك في الأعماق.

وقالت العجوز العرجاء المجدورة:

- تعانقا يا أبنائي عناق الوداع الأخير.

وشمرت عن ساعديها ليسهل عليها دفعهما من فوق الجرف- وقالت: اعذروني يا أبنائي، فهذا هو القدر. ورغم أني أفعل ذلك من دون إرادتي، إلا أنه من أجل خيركما. . .

وما إن قالت هذه الكلمات حتى تردد بالقرب منها صوت يقول:

- انتظري أيتها المرأة الكبيرة الحكيمة، لا تقتلي طفلين بريئين.

والتفتت العجوز العرجاء المجدورة ونظرت فرأت ما أدهشها. رأت أمامها الغزالة، أنثى مارال(*)، بعينين كبيرتين تنظران بعتاب وحزن. أما الغزالة نفسها فكانت بيضاء كلبن الأنثى بعد أول ولادة، وبطنها مغطى بوبر بني كالجمل الصغير. وكانت قرونها هي الجمال بعينه. . متفرعة كأغصان الأشجار في الخريف. وضرعها نظيف ناعم كثدي المرأة المرضعة.

وسألت العجوز العرجاء المجدورة:

- من أنت؟ ولماذا تتحدثين بلغة البشر؟

(*) المارال: أيل سيبيري أصيل. (المعرب).

فأجابتها الغزالة:

- أنا الغزالة الأم. وقد تكلمت هكذا حتى تفهميني وتسمعيني.

- وماذا تريدين أيتها الغزالة الأم؟

- اطلقي الطفلين أيتها المرأة الكبيرة الحكيمة. أرجوك اعطيهما لي.

- وما حاجتك إليهما؟

- لقد قتل الناس ابنيّ التوأمين. إنني أبحث عن أطفال لي.

- أتريدين تربيتهما؟

- نعم أيتها المرأة الكبيرة الحكيمة.

فضحكت العجوز العرجاء المجدورة قائلة:

- وهل فكرت جيداً أيتها الغزالة الأم؟ إنهما من بني الإنسان. وسوف يكبران فيقتلان أبناءك الغزلان.

فأجابتها الغزالة الأم:

- عندما يكبران لن يقتلا أبنائي. فسأكون لهما أماً، وهما سيكونان ابنيّ. فهل سيقتلان إخوتهما وأخواتهما؟

فهزت العجوز العرجاء المجدورة رأسها:

- أوه، إنك لا تعرفين البشر أيتها الغزالة الأم! إنهم لا يشفقون على بعضهم فما بالك بحيوانات الغابة. كان بودي أن أعطيك هذين اليتيمين لكي تتأكدي بنفسك من صدق ما أقول، ولكن الناس سيقتلون ابنيك هذين أيضاً. فلماذا تجلبين على نفسك كل هذه الأحزان؟

- سآخذهما إلى ناحية نائية لن يعثر عليهما فيها أحد. فلترحمي الطفلين أيتها المرأة الكبيرة الحكيمة ولتطلقي سراحهما. سأكون لهما نعم الأم. . لقد امتلأ ضرعي باللبن. ولبني يحنّ إلى الأطفال. لبني يطلب أطفالاً.

ففكرت العجوز العرجاء المجدورة قليلاً ثم قالت:

- حسناً، ليكن كما تشائين. خذيهما وامضي بهما سريعاً. خذي اليتيمين إلى ناحيتك النائية. ولكن إذا هلكا في الطريق الطويل، وإذا قتلهما قطاع طريق صادفوك، وإذا كان ردهما على جميلك النكران والجحود، فلا تلومي إلا نفسك.

شكرت الغزالة الأم العجوز العرجاء المجدورة وقالت للطفلين:

- أنا الآن أمكما وأنتما ابناي. سآخذكما إلى ناحية نائية حيث يقع بحر ايصيق - كول الحار وسط الجبال الثلجية الغابية.

وفرح الصبي والصبية وانطلقا بخفة وراء الغزالة الأم، أم القرون. ولكنهما بعد فترة تعبا وخارت قواهما، وكان الطريق طويلاً، من أقصى الدنيا إلى أقصاها. وما كان في مقدورهما أن يمضيا بعيداً لولا أن أرضعتهما الأم الغزالة، أم القرون لبنها وأدفأتهما في الليالي بجسمها. ساروا طويلاً. أصبحوا بعيدين عن الموطن القديم اينيساي، ولكن المسافة إلى الموطن الجديد، ايصيق - كول، ما زالت طويلة جداً. قضوا صيفاً وشتاء وربيعاً ثم صيفاً وخريفاً ثم صيفاً وشتاء آخر، فربيعاً، فصيفاً آخر وخريفاً وهم يشقون طريقهم عبر الغابات البكر والسهوب القائظة، والرمال المتحركة والجبال الشاهقة والأنهار الهادرة. وطاردتهم قطعان الذئاب، ولكن الغزالة الأم، أم القرون أركبت ولديها على ظهرها وهربت بهما من الوحوش الكبيرة. وطاردهم الصيادون بالسهام على ظهور الخيل وهم يصيحون: «الغزالة سرقت أولاد الناس! امسك، امسك!» وأطلقوا سهامهم في اثرهم، ولكن الغزالة الأم، أم القرون هربت بالطفلين من هؤلاء المنقذين المتطفلين. كانت تركض أسرع من السهام وهي تهمس فقط: «تشبثا يا ولديّ جيداً فهم يطاردوننا!».

وأخيراً بلغت الغزالة الأم، أم القرون بطفليها ايصيق - كول. وقفوا فوق الجبل مأخوذين. كانت السلاسل الثلجية تمتد من حولهم،

ووسط الجبال المغطاة بغابات خضراء لمعت مياه بحر لا يحيط به النظر. والأمواج البيضاء فوق المياه الزرقاء والريح تدفعها من بعيد وتحملها إلى بعيد، ولا ترى لإيصيق - كول بداية أو نهاية. فمن أحد طرفيها تشرق الشمس، بينما الطرف الآخر ما يزال في ظلام الليل، والجبال من حول ايصيق - كول لا تعد ولا تحصى، وراء هذه الجبال جبال ثلجية مثلها لا يعرف أحد عددها.

وقالت الغزالة الأم، أم القرون:

- هذا هو وطنكما الجديد. سوف تعيشان هنا، تحرثان الأرض، وتصيدان السمك، وتربيان الماشية. عيشا هنا بسلام آلاف الأعوام. فليمتد نسلكما وليتكاثر. وليحفظ أبناؤكما لغتكما التي حملتماها إلى هنا، وليهنأوا بالكلام والغناء بلغتهم. عيشا كما ينبغي للناس أن يعيشوا. وسأكون معكما ومع أبناء أبنائكما طوال الزمن. . .

وهكذا أصبح للصبي والصبية، آخر من تبقى من القبيلة القيرغيزية، وطن جديد، عند ايصيق - كول المباركة الخالدة. وسرعان ما دارت الأيام. أصبح الصبي رجلاً قوياً وأصبحت الصبية امرأة ناضجة. وعندئذ تزوجا وعاشا زوجاً وزوجة. أما الغزالة الأم، أم القرون فلم تبرح ايصيق - كول وعاشت في الغابات المجاورة.

وذات مرة هاجت ايصيق - كول في الفجر فجأة واضطربت. لقد جاء المخاض إلى المرأة فراحت تتألم. وخاف الرجل فتسلق صخرة وأخذ يصرخ:

- أين أنت يا أمنا الغزالة، أم القرون؟ أتسمعين صخب ايصيق - كول؟ ابنتك تلد. تعالي بسرعة يا أمنا الغزالة، أم القرون، ساعدينا. . .

وعندذاك تردد من بعيد رنين متموج كرنين اجراس القوافل. وأخذ ذلك الرنين يقترب شيئاً فشيئاً. كانت الغزالة الأم، أم القرون قادمة

ركضاً. وكانت تحمل على قرونها مهد أطفال. كان المهد مصنوعاً من خشب بتولا بيضاء ومن قوسه تدلى جرس فضي صغير رنان. وحتى الآن يرن هذا الجرس من فوق المهود عند ايصيق- كول. وحينما تهز الأم مهد وليدها يرن الجرس الفضي، فكأنما الغزالة الأم، أم القرون قادمة من بعيد على عجل، حاملة على قرونها مهداً من خشب البتولا...

وما إن وصلت الغزالة الأم، أم القرون ملبية النداء حتى ولدت المرأة.

فقالت الغزالة الأم، أم القرون:

- هذا المهد لبكريكما. وسيكون لديكما أطفال كثيرون. سبعة أبناء وسبع بنات!

ففرح الأب والأم. وسمّيا بكريهما «بوجوباي» تكريماً للغزالة الأم، أم القرون. وكبر بوجوباي وتزوج بحسناء من قبيلة كيبتشاك، وأخذ نسل بوجو - نسل الغزالة الأم، أم القرون - يتكاثر، وأصبح نسل البوجيين عند ايصيق - كول كثيراً وقوياً. وكرّم البوجيين الغزالة الأم، أم القرون وقدسوها. وفوق مدخل خيام البوجيين كان يعلق شعار مطرز يصور مارال لكي يكون واضحاً من بُعد أن هذه الخيمة من خيام نسل البوجيين. وعندما كان البوجيون يصدون غارات الاعداء أو يتبارون في الفروسية فإنهم يطلقون صيحة: «بوجو!» فكانوا ينتصرون دائماً. وفي ذلك العهد كانت تمرح في غابات ايصيق - كول أيائل المارال البيضاء ذات القرون والتي كانت نجوم السماء تحسدها على جمالها. كانت تلك الأيائل أبناء الغزالة الأم، أم القرون. ولم يمسسها أحد أو يسمح بأن يصيبها سوء. وعندما يرى البوجي المارال كان يترجل ويفسح له الطريق. وكانوا يقارنون جمال الحبيبة بجمال المارال الأبيض...

وهكذا سارت الأمور إلى أن مات أحد البوجيين من علية القوم ومن أكبر أثريائهم. . كان لديه من الغنم ألف ألف، ومن الخيل ألف ألف، وكل من في المنطقة كانوا رعاة عنده. وأقام له أبناؤه مأتماً عظيماً. ودعوا للمأتم علية القوم من كل أنحاء الدنيا. وأقاموا للضيوف ألف ومائة خيمة على شاطئ ايصيق - كول. ولا يعرف قدر ما ذبح من ماشية وما شرب من كوميس وما قدم من لذيذ الطعام. وراح أبناء الثري يخطرون في عظمة. . ألا فلير الجميع أية ورثة كرماء وأثرياء خلّفهم الفقيد، وكم يحترمونه ويحتفلون بذكراه. . .(«آه يا بني، ما أسوأ أن يتيه الناس فخراً بثرواتهم لا بعقولهم!»)

أما المغنون، الذين كانوا يمتطون جياداً أصيلة مهداة إليهم من أبناء المتوفى، ويخطرون في طواقي من فرو السمور وثياب من الحرير مهداة إليهم، فراحوا يتسابقون في الثناء على الفقيد وورثته.

فأحدهم ينشد:

- أين يمكن أن ترى في الدنيا مثل هذه الحياة السعيدة وهذا المأتم الفاخر؟

ويغني آخر:

- منذ بدء الخليقة لم يحدث شيء كهذا!

ويغني ثالث:

- عندنا فحسب يحترمون الآباء هكذا، ويمجدون ويكرمون ذكرى الوالدين، ويعزون أسماءهم المقدسة.

ويغني رابع:

- أيها المغنون المداحون، ما لكم تتصايحون! هل توجد في الدنيا كلمات تليق بهذا الكرم، وهل توجد كلمات جديرة بعظمة الراحل!

وهكذا ظلوا يتبارون يوماً وليلة («آه يا بني، ما أسوأ أن يتبارى المغنون في المديح، إذ يتحولون من مغنين إلى أعداء للغناء».)

واستمر ذلك المأتم الشهير أياماً طويلة وكأنما كان عيداً. وكان أبناء الثري الغيورون يتوقون إلى أن تطغى شمس مجدهم على الآخرين، وأن يبزوا جميع الناس في الدنيا، وأن يذيع صيتهم في أنحاء المعمورة. فقرروا أن يضعوا على قبر أبيهم قرون مارال لكي يعرف الجميع أن هذا قبر سلفهم العظيم من نسل الغزالة الأم، أم القرون («آه يا بني، منذ القدم قال الناس إن الثراء يلد التكبر، والتكبر يلد السفاهة».)

هكذا أراد أبناء الثري أن يكرموا ذكرى أبيهم بهذا الشرف الذي لم يُسمع به من قبل، ولم يمنعهم شيء. كن فيكون! أرسلوا الصيادين، فقتل الصيادون مارالاً وحزّوا قرونه. كانت قروناً طويلة طول جناحي النسر ساعة الطيران. وأعجبت قرون المارال الآباء، ففي كل قرن ثمانية عشر فرعاً، إذن فعمره ثمانية عشر عاماً. حسناً وأمروا الصناع بوضع القرون على القبر.

وثار الشيوخ غضباً:

- بأي حق قتلتم المارال؟ من ذا الذي جرؤ على رفع يده على نسل أمنا الغزالة، أم القرون؟

فأجابهم ورثة الثري:

- لقد اصطدنا المارال في أرضنا. وكل ما يدب ويزحف ويطير في ممتلكاتنا، من الذبابة إلى الجمل، هو ملكنا. ونحن أدرى كيف نتصرف بما هو ملك لنا. اغربوا من هنا.

وضرب الخدم الشيوخ بالسياط، وأجلسوهم على الجياد ظهورهم إلى الأمام ووجوههم إلى الخلف وطردوهم مجللين بالعار.

ومنذ ذلك اليوم بدأت المصائب. . وحلّ بنسل الغزالة الأم، أم القرون بلاء عظيم. راح كل واحد تقريباً يصطاد المارال الأبيض في الغابات. واعتبر كل بوجى لزاما عليه أن يضع على قبر آبائه قرون المارال. وأصبح ذلك يُعدّ عملاً خيراً وضرباً من الاحترام الخاص لذكرى الراحلين. ومن لم يستطع الحصول على القرون اعتبروه إنساناً غير جدير بالاحترام. وبدأوا يتاجرون في قرون المارال وأخذوا يجمعونها ويكدسونها. وظهر من نسل الغزالة الأم، أم القرون أناس أصبحت مهنتهم الحصول على قرون المارال وبيعها لقاء النقود («آه، يا بني حينما توجد النقود فلا مجال للكلمة الطيبة، ولا مكان للجمال».)

وحلت أيام مهلكة للمارال في غابات ايصيق - كول. ولم يرحمها أحد. وفرت إلى الصخور المنيعة فوصلوا إليها هناك. كانوا يطلقون عليها كلاب الصيد لتطردها إلى الصيادين القابعين في مجرى الكمائن، فيصيبونها بلا خطأ. وكانوا يبيدون المارال جملة ويقتلونه قطعاناً. وكانوا يتراهنون حول من يحصل على قرون بها أفرع أكثر.

واندثر المارال. وأقفرت منه الجبال. ولم يعد يسمع صوته لا في الليل ولا ساعة الفجر. ولم يعد يرى لا في الغابة ولا في السهل، ولا هو يرعى ولا هو يركض وقد طوح قرونه إلى الوراء، ولا هو يقفز عبر الهاوية وكأنما طير يطير. وولد أناس لم يروا في حياتهم كلها المارال مرة واحدة. سمعوا الحكايات عنه فقط ورأوا قرونه على المقابر.

وماذا حدث للغزالة الأم، أم القرون؟

غضبت أشد الغضب من الناس. ويقال إنه عندما ضاقت الحياة على المارال بسبب الرصاص وكلاب الصيد، وعندما لم يبق من المارال إلا ما يعدّ على أصابع اليد، صعدت الغزالة الأم، أم القرون على أعلى قمة في الجبل، وودعت ايصيق - كول واخذت آخر أبنائها

إلى ما وراء الممر الجبلي الكبير، إلى ناحية أخرى وجبال أخرى.

هذا ما يجري في الدنيا. وهذه هي الحكاية كلها. فصدق إن شئت أو لا تصدق.

وقالت الغزالة الأم، أم القرون وهي تمضي إنها لن تعود أبداً. . .

(٥)

حلّ الخريف ثانية في الجبال. وبعد الصيف الصاخب اخذ كل شيء يعود إلى الهدوء الخريفي المعهود. سكن غبار قطعان الماشية وخمدت نيران الرعاة. رحلت القطعان قبل حلول الشتاء، ورحل الناس، وأقفرت الجبال.

لم تعد النسور تحلق أسراباً بل فرادى، وهي تطلق صيحات شحيحة. وخفت صوت الخرير في النهر، فقد ألف النهر خلال الصيف مجراه واستكن وضحل. وكف العشب عن النمو وذبل من جذوره. وتعبت الأوراق من التشبث بالغصون فتساقطت هنا وهناك.

أما على أعلى قمم الجبال فكان يستقر ليلاً ثلج فضي بكر. وفي الصباح تصبح سلاسل القمم الداكنة شيباء كأعراف الثعالب الفضية.

وبردت الريح في الشعاب. بيد أن الأيام كانت لا تزال مشرقة جافة.

وارتدت الغابات المواجهة للكوردون وراء النهر حلة الخريف بسرعة. فمن شاطئ النهر مباشرة وحتى حدود غابة الصنوبر السوداء في الأعلى امتدت نار الخريف حريقاً بلا دخان عبر الأشجار الخفيفة فوق السفح الشديد الانحدار. وكانت غياض الحور الرجراج والبتولا أكثر الأشجار سطوعاً بلونها الأحمر الناري وأشدها تشبثاً بالصعود، فقد ارتقت إلى قمم الغابة الكبيرة الموشحة بالثلج، إلى مملكة الصنوبر والشوح القائمة.

وفي غابة الصنوبر كان كل شيء نظيفاً كالعادة وصارماً كما في المعبد. لم يكن هناك سوى الجذوع البنية الصلبة، ورائحة الصمغ الجافة، والأوراق الابرية البنية التي غطت أرض الغابة، والريح المنسابة دون صوت بين قمم الصنوبرات العتيقة.

أما اليوم فمنذ الصباح لم تكفّ الزيغان المزعجة عن الصياح فوق الجبال. وحوّم سرب كبير فوق غابة الصنوبر وهو ينعق بجنون. فزعت الزيغان فور أن سمعت ضربات الفؤوس، وها هي الآن تنعق دون توقف وكأن أحداً سطا عليها في وضح النهار، وتتعقب رجلين كانا يسحبان جذع صنوبرة مقطوعة هابطين به من الجبل.

كانا يسحبان الجذع بسلاسل مشدودة إلى حصان. وسار أروزكول في المقدمة ممسكاً بلجام الحصان من شكيمته. سار عابسا ومعطفه يشتبك بالأغصان، وكان يلهث كبغل مشدود إلى محراث. ومن ورائه، خلف الجذع سار الجد مأمون. كان هو أيضاً يشعر بالتعب ويكاد يختنق على هذا الارتفاع. وكان في يده عصى من البتولا يسند بها الجذع أثناء سحبه. كان الجذع ينحشر بين الحين والآخر في بقايا الأشجار المجتثة تارة وفي الأحجار تارة أخرى. أما في المنحدرات فكان يوشك على الانحراف بعرض المنحدر ليتدحرج إلى أسفل. ولو حدث ذلك لكانت كارثة ولأودى بحياتهما.

كان الخطر الأكبر يتهدد من يسند الجذع بالعصى. ولكن من يدري كيف تتطور الأمور. ولهذا قفز أروزكول عدة مرات في فزع بعيداً عن الحصان، وفي كل مرة كان يذوب خجلاً وهو يرى العجوز يسند الجذع على المنحدر، مخاطراً بحياته، ومنتظراً عودة أروزكول ليمسك بشكيمة الحصان. ولكن ليس صدفة أن يقال إنه لكي تستر عارك ينبغي أن تدمغ بالعار الآخرين.

فيصيح أروزكول بحميه:

- ماذا؟ أتريد أن تقضي عليّ؟

- لم يكن حولهما أحد يمكن أن يسمع هذا فيدين أروزكول، فمن ذا الذي سمع بمعاملة كهذه لشيخ؟ وقال العجوز على استيحاء إنه هو أيضاً كان معرضاً للوقوع تحت الجذع، فلماذا يصرخ فيه هكذا وكأنه فعل ذلك عن عمد.

ولكن هذا الرد زاد من هياج أروزكول فصاح غاضبا:

- يا لك من شاطر! لو قتلك الجذع فماذا يهمك؟ لقد عشت حياتك. ولو مت أنا فمن يأخذ ابنتك العاقر؟ من بحاجة إليها، هذه العجفاء العاقر؟

فأجابه مأمون على ذلك:

- أنت رجل صعب يا ولدي. ليس لديك احترام للناس.

فوجئ أروزكول حتى أنه توقف، وقاس العجوز بنظره:

- العجائز أمثالك يرقدون من زمان عند الأفران، يدفئون مؤخراتهم على الرماد. أما أنت فتتقاضى راتباً. أياً كان. فمن أين لك هذا الراتب؟ عن طريقي أنا. فأي احترام تريد بعد؟

فقال مأمون مسالماً:

- طيب، طيب، أنا لم أقصد.

وهكذا سارا. وبعد أن صعدا مرتفعاً آخر توقفا هناك ليلتقطا أنفاسهما. وابتل الحصان عرقاً وغطت جسده رغوة كالصابون.

ولم تهدأ الزيغان وواصلت تحويمها. كانت أسراباً غفيرة، وأخذت تنعق لدرجة بدا معها أنها قررت ألا تفعل شيئاً اليوم سوى النعيق طوال النهار.

وتمتم مأمون ليغيّر مجرى الحديث ويلطف ثورة أروزكول:

- إنها تحس بقرب حلول الشتاء. تستعد للهجرة. - أضاف

وكأنما يعتذر عن الطيور غير العاقلة - إنها لا تحب أن يزعجها أحد.

فاستدار أروزكول نحوه بحدة وقال وقد احمرّ فجأة:

- ومن الذي يزعجها؟- ثم قال بصوت خافت وبنبرة تهديد - ماذا تقصد أيها العجوز؟

وفكر في نفسه: «انظر إلى أي شيء يلوّح! حسناً، أمن أجل خاطر طيوره هذه لا ينبغي أن تلمس صنوبرة أو تقطع غصناً؟ هذا لن يكون! أنا ما زلت السيد هنا». ونظر شذراً إلى الأسراب الناعقة وقال في نفسه: «لو معي رشاش!» واستدار وأطلق سباباً مقذعاً.

لزم مأمون الصمت فليست هذه أول مرة يسمع فيها سباب صهره المقذع. وقال في نفسه حزيناً: «ها قد هاج ثانية. إذا شرب يصيح كالوحش. وإذا أفاق لا تقترب منه. - وتساءل مأمون بأسى- لماذا يصيح الناس هكذا؟ تقبل عليه بالخير فيستقبلك بالشر. ولا يخجل ولا يراجع نفسه، وكأنما هذا ما ينبغي أن يكون. دائماً يعتبر نفسه على حق. المهم أن يكون هو بخير. وعلى كل من حوله أن يستجيبوا لما يريد. فإذا امتنعت أجبرك. الحمد لله أن شخصاً مثله يعيش في الجبال، في الغابة، وكل ما تحت يده من بشر لا يتعدى الحفنة. فماذا لو كانت لديه سلطة أكبر؟ أعوذ بالله.. وأمثاله لا ينقرضون. دائماً يختطفون نصيبهم. وليس لك مهرب من أمثاله. إنه ينتظرك في كل مكان ويجدك. ولكي يعيش على هواه يعصر روحك. ويبقى على حق. نعم، أمثاله لا ينقرضون...»

وقطع أروزكول على العجوز أفكاره آمراً:

- كفى وقوفاً.. هيا!

وتحركا.

منذ الصباح وأروزكول معتكر المزاج. ففي الصباح عندما كان عليهما أن ينتقلا بالمعدات إلى الغابة على الشاطئ الآخر، أسرع

مأمون لتوصيل حفيده إلى المدرسة. لقد صار مخرفاً هذا العجوز! كل صباح يسرج الحصان، ويوصل الصبي إلى المدرسة، ثم ينطلق ثانية ليعود به من المدرسة. يشغل نفسه بهذا اللقيط المهجور. يا سلام، يقول لا يمكن أن يتأخر عن المدرسة! وهذا العمل الذي لا يعرف إلا الله كيف تكون نهايته، يمكن تأجيله، هكذا إذن؟ يقول: «سأعود حالاً، سأخجل من المدرّسة لو تأخر الصبي عن الدرس». إذن فقد وجد من يخجل منه، هذا الأحمق! من تكون هذه المدرّسة؟ خمس سنوات تلبس المعطف نفسه. لا تراها إلا حاملة الدفاتر والحقائب. تقف على الطريق تستوقف السيارات.. دائماً تريد الذهاب إلى المركز، ودائماً بحاجة إلى شيء ما.. مرة إلى فحم للمدرسة، ومرة إلى زجاج، أو طباشير، أو حتى خرق. فهل يمكن أن تعمل مدرّسة محترمة في مثل هذه المدرسة؟ حتى الاسم الذي أطلقوه عليها عجيب: مدرسة قزمية. وبالفعل فهي مدرسة قزمية. فما فائدتها؟ المدرسون الحقيقيون في المدينة. والمدارس هناك كلها من زجاج. والمدرسون يرتدون أربطة عنق. ذلك في المدينة... والرؤساء هناك لا يمشون بل يركبون، وأية سيارات! عندما تراها تود أن تنتصب جامداً وتشد قامتك إلى أن تمر من أمامك هذه السيارة السوداء اللامعة المنسابة. أما سكان المدينة فكأنما لا يلاحظون هذه السيارات، فلا وقت لديهم، إنهم مستعجلون. يركضون إلى أماكن ما. نعم الحياة في المدينة حياة بحق! لو كان من الممكن أن أنتقل إلى هناك، وأدبر لي مكاناً! هناك يعرفون كيف يحترمون الإنسان لمنصبه. ما دام مفروضاً أن تحترمه فعليك أن تحترمه. وكلما كبر المنصب ازداد الاحترام. إنهم أناس مهذبون. وإذا نزلت ضيفاً هناك أو أخذت هدية ما فلست مضطراً مقابل ذلك أن تسحب لهم الجذوع أو تفعل شيئاً مثل ذلك. ليسوا مثل الناس هنا.. يعطيك الواحد خمسين روبلاً، أو مائة إلى

أقصى تقدير، ويمضي بالخشب، ثم يكتب شكوى بأن أروزكول مرتشٍ و. . و. . يا للجهل!

نعم، لو أنتقل إلى المدينة! إذن لأرسلت إلى الشياطين هذه الجبال، وهذه الغابات، وهذه الجذوع الملعونة، وهذه الزوجة الفارغة البطن، وهذا العجوز المأفون وجروه هذا، الذي يهتم به كأنه أعجوبة. ولرقصت طرباً كالحصان الشبعان شعيراً! ولعرفت كيف أجبرهم على احترامي: «يا أروزكول بالاجانوفتش، هل تسمح بدخول مكتبكم؟» ولتزوجت هناك من حضرية. ولم لا؟ من ممثلة مثلاً. . حسناء من أولئك اللائي يغنين ويرقصن وفي أيديهن ميكروفونات. يقولون إن المهم بالنسبة لهن أن يكون للشخص منصب. اذن لأخذتها وعلقت ذراعها بذراعي، وسرت بربطة عنق. ثم إلى السينما. أما هي فتدق بكعب حذائها، وتنشر العطر حولها. والمارة يتشممون بأنوفهم. وإذا بالأولاد يولدون. إذن لجعلت الولد يدرس القانون، والبنت تعزف على البيانو. فأطفال المدينة أذكياء. في البيت لا يتحدثون إلا بالروسية. . طبعاً، فلماذا يحشون رؤوسهم بالكلمات القروية. ولربيتهم هكذا: «بابي، مامي أريد هذا، أريد تلك. . .» وهل تبخل على فلذة كبدك بشيء؟ أوه إذن لتفوّق على الكثيرين ولأراهم من هو! فهل هو أسوأ من الآخرين؟ وهل الذين هم أعلى منه منصباً أفضل منه؟ إنهم أناس مثله. كل ما هناك أن الحظ ساعدهم، أما هو فلم يساعده. هربت منه السعادة. وهو أيضاً مخطئ. فبعد دورة حراس الغابات كان ينبغي أن يذهب إلى المدينة، ويلتحق بالمعهد المتوسط، أو حتى العالي. لكنه تعجل. . شدّه إليه المنصب. ورغم أنه منصب صغير، فهو منصب. إذن فلتمش الآن في الجبال ولتسحب الجذوع كالحمار. وفوق ذلك هذه الطيور. . ما بالها تنعق وتحوم؟ آه لو معي رشاش. . .

كان لاعتلال مزاج أروزكول ما يبرره.. فقد انتهت متع الصيف، واقترب الخريف، ومع انقضاء الصيف انقضت فترة استضافة الرعاة له. وكما تقول الأغنية: «ذبلت الزهور في الجبال، وحان أوان النزول إلى السهل..»

حلّ الخريف. وكان على أروزكول أن يدفع حساب التكريم والحفاوة، أن يرد الديون ويفي بالوعود. وأن يدفع أيضاً ثمن التباهي: «ماذا تريد؟ فقط جذعي صنوبر؟ وهل هذا طلب! تعال وخذ ما تشاء!»

ثرثر كثيراً وتلقى الهدايا وشرب الفودكا... وها هو الآن يختنق ويتصبب عرقاً، ويلعن كل شيء في الدنيا وهو يجرجر هذه الجذوع في الجبال. انقلبت هذه الجذوع همّاً ثقيلاً. وحياته أيضاً همّ ثقيل. وفجأة ومض في ذهنه خاطر طائش: «فلأبصق على كل شيء وأرحل إلى آخر الدنيا». ولكنه أدرك فوراً أنه لن يرحل إلى أي مكان، فلا أحد بحاجة إليه، ولن يجد في أي مكان هذه الحياة التي يريدها لنفسه.

فلتحاول أن ترحل من هنا أو تخلف بوعدك! اصحابه وخلانه هم الذين سيشون به. أصبح الناس لا أمان لهم. في العام المنصرم وعد واحداً من البوجيين، من بني قبيلته، بجذع صنوبر مقابل حمل أهداه له ذاك. وفي الخريف لم يرغب أروزكول في صعود الجبل لقطع الصنوبرة. من السهل أن تعد، ولكن فلتحاول أن تصل إليها، ثم فلتقطعها، ثم فلتسحبها. فإذا كانت هذه الصنوبرة معمرة منذ عشرات السنين فسوف تشقى معها! نعم، لن تجد لديك الرغبة في هذا العمل ولو أعطيت مقابله ذهباً. وفي ذلك الوقت بالذات مرض العجوز مأمون ولزم الفراش. وهو وحده لن يستطيع، بل إنه ليس في وسع أحد أن يقطع صنوبرة بمفرده في الجبال. ربما استطاع أن يقطعها، ولكنه لن يستطيع أن يسحبها إلى أسفل... ولو كان يدري ما

سيحدث لذهب مع سيد أحمد لقطعها. ولكن أروزكول تكاسل عن الصعود إلى الجبل وقرر أن يتخلص من بلدياته بأول شجرة تصادفه. ولكن الرجل عاند، وأصرّ على جذع الصنوبر ولا شيء غيره: «تعرف كيف تأخذ الحمل ولا تعرف كيف تفي بالوعد؟» وجن جنون أروزكول فطرده من بيته: إذا كنت لا تريد أن تأخذ هذا الجذع فلتغرب من هنا. ولكن الرجل لم يكن غافلاً، فدبج شكوى في ملاحظ غابة سان- تاش المحمية أروزكول بالاجانوف، وذكر فيها من الحقائق والأكاذيب ما كان كفيلاً بإعدام أروزكول رمياً بالرصاص باعتباره «مخرب الغابة الاشتراكية». وبعدها ظلوا طويلاً يجرجرون أروزكول أمام لجان التفتيش المختلفة من المركز ومن وزارة الغابات. وأفلت بالكاد. . . فلتنظر إلى هؤلاء الأقارب! وبعد هذا يقولون: «نحن جميعاً أبناء الغزالة الأم، أم القرون. الفرد من أجل الجماعة، والجماعة من أجل الفرد!» كل هذا كلام فارغ، فأية غزالة هناك بحق الشيطان عندما ترى كلاً منهم على استعداد للإطباق على رقبة صاحبه أو الإلقاء به في السجن! في العهود الماضية فقط كان الناس يؤمنون بالغزالة. كم كانوا أغبياء وجهلة أولئك الناس، شيء مضحك. أما الآن فالجميع مهذبون، متعلمون! من بحاجة إليها حكايات الأطفال هذه!

ومن بعد ذلك أقسم أروزكول ألا يعطي أحداً غصناً أو عود حطب، سواء من المعارف أو من بني قبيلته، حتى لو كانوا أولاد الغزالة الأم، أم القرون أباً عن جد.

ولكن الصيف عاد. وانتشرت الخيام على المروج الجبلية الخضراء، وارتفع صخب القطعان، وتصاعد دخان النيران عند الجداول والأنهار. وأشرقت الشمس، وانتشرت رائحة«الكوميس» المسكر والزهور. وما أجمل أن تجلس في الهواء الطلق على العشب الأخضر بجوار الخيمة، وحولك الأصحاب والخلان، وتستمتع

بالكوميس واللحم الطازج. ثم تجرع كوباً من الفودكا يدير رأسك. وتشعر ساعتها أنك قادر على اقتلاع شجرة بجذورها أو على تحطيم رأس ذلك الجبل... في تلك الأيام كان أروزكول ينسى قَسَمه. وكان يدغدغ أحاسيسه أن يسمعهم يلقبونه بالسيد الكبير صاحب الغابة الكبيرة. ومن جديد يعد، ومن جديد يقبل الهدايا... ومن جديد لا تحدس إحدى الصنوبرات الأثرية في الغابة بأن أيامها أصبحت معدودة وأن نهايتها رهن بحلول الخريف.

وكان الخريف يتسلل إلى الجبال خلسة من الحقول المحصودة بينها، ويقفز هنا وهناك. وحيثما يمر يحمر العشب وتحمر أوراق الشجر في الغابة.

وتنضج الثمار. وتكبر الحملان، فيقسمونها إلى قطعان، النعاج على حدة، والخرفان على حدة. وتخبئ النساء الجبن المجفف في أكياس الشتاء. ويبدأ الرجال في التشاور حول من يتقدم ليشق طريق العودة إلى الوديان. أما أولئك الذين اتفقوا مع أروزكول صيفاً فينبّهونه قبل رحيلهم إلى أنهم سيأتون في اليوم الفلاني والساعة الفلانية إلى الكوردون بالسيارات لنقل ما وعدهم به من أخشاب.

واليوم مساء ستأتي سيارة بمقطورة لتنقل جذعي صنوبر. وكان أحد الجذعين في الأسفل وقد نقل عبر النهر إلى المكان الذي ستأتي إليه السيارة. والثاني ها هما يسحبانه إلى أسفل. ولو كان باستطاعة أروزكول أن يعيد الآن ما أكله وشربه مقابل هذين الجذعين لفعل ذلك فوراً ليتخلص من التعب والعذاب اللذين يضطر إلى تحمّلهما.

للأسف، ليس هناك وسيلة لتغيير حظه الملعون في الجبال، فالسيارة ذات المقطورة ستأتي مساء اليوم لكي تنقل الجذعين ليلاً. وسيكون من حسن حظه أن ينتهي كل شيء على ما يرام. فالطريق يمر عبر السوفخوز، بجوار مقر الإدارة مباشرة، وليس هناك طريق آخر،

وأحياناً تأتي إلى السوفخوز الشرطة وقلم التفتيش الحكومي، وعموماً ما أكثر من يأتي إلى هناك من المركز. فإذا وقع نظرهم على السيارة المحملة بالخشب فسيسألون: «من أين تحملون الخشب، وإلى أين؟».

اقشعر بدن أروزكول من هذه الفكرة، فتفجرت في نفسه الكراهية لكل شيء.. للطيور الناعقة فوق رأسه، وللعجوز البائس مأمون، ولسيد أحمد الكسول الذي فطن للأمر فسافر منذ ثلاثة أيام إلى المدينة ليبيع البطاطس. لقد كان يعلم أنهم سيجرجرون الجذوع من الجبال! إذن فقد تملّص... ولن يعود إلا بعد أن يفرغ من أموره في السوق. ولو كان هنا لأمره أروزكول هو والعجوز بسحب الجذوع ولارتاح هو من العذاب.

ولكن سيد أحمد كان بعيداً، والطيور أيضاً صعبة المنال. وفي أسوأ الأحوال كان من الممكن أن يضرب زوجته، ولكن الطريق إلى المنزل كان لا يزال طويلاً. فلم يبق إلا العجوز مأمون. وهكذا سار أروزكول وهو يزداد شراسة من الاختناق بسبب قلة الهواء في الجبال، ويطلق السباب مع كل خطوة. كان يسير غير عابئ بأغصان الخمائل، غير مشفق على الحصان أو على العجوز السائر من خلفه. فلينفق هذا الحصان، ولينفق هذا العجوز، ولينفق هو نفسه من انفجار القلب! ما دام يعاني هو فليعاني الآخرون. والخراب لهذا العالم الذي رتبت فيه الأمور على غير ما ينبغي، على غير ما يتفق وفضائل أروزكول ومنصبه!

لم يعد أروزكول يسيطر على نفسه فقاد الحصان عبر الحرج إلى المنحدر الشديد مباشرة. فليرقص مأمون الهمام حول الجذع، وليحاول أن يفلته! «إذن فسأشبع هذا الأحمق العجوز ضرباً، وانتهينا» - قرر أروزكول. ما كان ليجرؤ في أي وقت غير هذا على الاتجاه

بالجذع المجرور نحو منحدر خطر كهذا. ولكن الشيطان أضله. ولم يسعف الوقت مأمون ليوقفه، كل ما استطاع أن يفعله هو أن يصيح: «إلى أين؟ إلى أين؟ قف!»، وإذا بالجذع يلتف بالسلاسل ويندفع إلى أسفل ساحقاً تحته الخمائل. كان الجذع طرياً، ثقيلاً. وحاول مأمون أن يعرقله عن التدحرج بالعصى. ولكن الصدمة كانت قوية فأطارت بالعصى من يد العجوز.

حدث كل شيء في لحظة خاطفة. سقط الحصان على جبينه وسحبه الجذع إلى أسفل. وبينما هو يسقط أوقع أروزكول أرضاً. أخذ يتدحرج وهو يتشبث بالخمائل في تشنج. وفي هذه اللحظة قفزت فزعة حيوانات ما بقرون في الحرج الكثيف الأوراق. وراحت تقفز قفزات عالية قوية حتى اختفت في غيضة البتولا.

- المارال! المارال!

صرخ الجد مأمون مأخوذاً من الرهبة والفرحة. ثم صمت وكأنه لا يصدق عينيه.

وفجأة عمّ الهدوء الجبال. واختفت الزيغان دفعة واحدة. وتوقف الجذع على المنحدر وقد هرس تحته أشجار بتولا شابة قوية. ونهض الحصان وهو يتخبط في أحزمته.

وزحف أروزكول جانباً ممزق الثياب. وأسرع مأمون لإنقاذ صهره.

- أيتها الأم المقدسة، الغزالة أم القرون! إنها هي التي أنقذتنا! هل رأيت؟ إنهم أبناء الغزالة الأم أم القرون. لقد عادت أمنا! هل رأيت؟

نهض أروزكول، وهو لا يصدق بعد أنه نجا، وكان عابساً وخجلاً من نفسه، ونفض ثيابه.

- كفى ثرثرة يا شيخ! هيا خلّص الحصان من السيور.

واندفع مأمون منصاعاً ليخلص الحصان.

- أيتها الأم الرائعة، أيتها الغزالة أم القرون!- مضى العجوز يتمتم بفرح - عادت أسرة المارال إلى غاباتنا. لم تنسنا الأم أم القرون! غفرت لنا ذنبنا. . .

فقال أروزكول بغضب:

- ما زلت تتمتم؟ - كان قد أفاق من نوبة الذعر وعادت الكراهية السابقة تعتمل في قلبه - أتحكي حكايتك؟ ألأنك جننت تظن أن الناس ستصدق اختلاقاتك الحمقاء!

فلم يستسلم الجد مأمون وقال:

- لقد رأيتها بعيني. كانت تلك مارالاً. ألم تراها يا بني؟ أنت أيضاً رأيتها.

- حسناً، رأيت. يبدو ثلاثة مارال مرت. . .

- صحيح. ثلاثة. أنا أيضاً خيل إليّ أنها ثلاثة.

- وماذا بعد؟ فلتكن مارالاً. ما الذي يفرحك وأمامك إنسان كاد يدق عنقه. وإذا كانت تلك مارالاً فهي قد جاءت إذن من وراء الغابات الواقعة على الناحية الأخرى من الجبال. فهناك غابات محمية أيضاً وربما هذه حيوانات محمية. وليكن أنها جاءت. فما دخلنا نحن. لا شأن لنا بكازاخستان.

فقال الجد مأمون حالماً:

- أليس من الجائز أن تألف المكان هنا؟ ربما بقيت لدينا. . .

فقاطعه أروزكول:

- كفى! هيا بنا!

كان أمامهما طريق طويل إلى أسفل وهما يسحبان الجذع، ثم كان

عليهما أن يعبرا به النهر وهما يسحبانه بالحصان. وكان ذلك أيضاً عملاً شاقاً. وإذا استطاعا سحب الجذع بنجاح عبر النهر فسيكون عليهما أيضاً أن يرفعاه إلى الربوة التي ستشحن منها السيارة.

ما أكثر الجهود!..

أحس أروزكول أنه يائس تماماً. وبدا له كل ما حوله مرتباً بصورة غير عادلة. فالجبال لا تحس بشيء ولا ترغب في شيء ولا تشكو من شيء. إنها تقف غير عابئة. والغابات تدخل الخريف، ثم الشتاء ولا ترى في ذلك أية صعوبة. وحتى الزيغان تطير طليقة وتنعق ما وسعها النعيق. والمارال - إذا كانت تلك مارالاً حقاً - قد جاءت من وراء الممر وسوف تجول في الغابة كما يحلو لها وأينما يحلو لها. وفي المدن يسير الناس في الشوارع المسفلتة بلا هموم، ويركبون التاكسي، ويجلسون في المطاعم ويتسلون. أما هو فقد ألقت به المقادير في هذه الجبال، فيا له من بائس... حتى مأمون الهمام هذا، حموه التافه، أسعد منه لأنه يؤمن بالحكايات. يا له من أحمق! الحمقى دائماً راضون عن حياتهم.

أما أروزكول فيمقت حياته. فهي لا تناسبه. إنها لأمثال مأمون الهمام. فما الذي يحتاج إليه مأمون؟ طوال حياته وهو يحني ظهره كل يوم بلا راحة. ولم يكن لديه أبداً شخص تحت إمرته، بل هو دائماً تحت إمرة الجميع، حتى زوجته العجوز فهو لا يعارضها بكلمة. مثل هذا البائس تسعده حتى حكاية. ما إن رأى المارال في الغابة حتى طفرت الدموع من عينيه وكأنما رأى إخوته الأشقياء الذين ظل يبحث عنهم مائة سنة.

ايه، ما جدوى الكلام!..

وصلا أخيراً إلى آخر مرحلة، حيث يبدأ منها منحدر طويل حاد نحو النهر. وتوقفا لالتقاط الانفاس.

وراء النهر، في فناء الكوردون انبعث دخان بجوار دار أروزكول. ومن الدخان كان يمكن التخمين بأن ذلك هو السماور. إذن فزوجته تنتظره. ولكن ذلك لم يخفف عن أروزكول. كان يتنفس بفم مفتوح واسع من قلة الهواء. وكان صدره يؤلمه، ودوت دقات قلبه في رأسه كالصدى. ولسع العرق المتصبب من جبينه عينيه. وما زال أمامه منحدر طويل حاد. وفي البيت تنتظره زوجة خاوية البطن. انظر، قد أشعلت السماور، تريد إرضاءه... وفجأة أحس برغبة جارفة في أن يركض ويركل بقدمه هذا السماور الأبعج حتى يطير في ألف داهية، وبعد ذلك ينهال على زوجته ضرباً حتى يسيل دمها، حتى الموت. وتلذذ بذلك في خياله وهو يسمع عويلها ولعناتها لحظها العاثر. وقال في نفسه: «فليكن.. ليكن! إذا كنت أنا أعاني، فلماذا ينبغي أن تكون هي بخير؟»

وقطع مأمون عليه حبل أفكاره:

- لقد نسيت يا ولدي...- قال متذكراً وأسرع نحو أروزكول- عليّ أن أذهب إلى المدرسة لأعود بالصبي. الدروس انتهت.

فقال أروزكول بهدوء متعمد:

- وماذا بعد؟

- لا تغضب يا ولدي. فلندع الجذع هنا ولننزل. تناول غداءك في البيت. وأثناء ذلك أركض بالحصان إلى المدرسة، وآخذ الصبي. ثم نعود وننقل الجذع.

وقال أروزكول متهكماً:

- وهل فكرت طويلاً أيها العجوز حتى توصلت إلى هذا؟

- ولكن الصبي سيبكي.

فاستشاط أروزكول غضباً:

- ثم ماذا؟ - أخيراً أصبح بوسعه أن يلقن العجوز درساً كما ينبغي. ظل طوال اليوم يبحث عن شيء يتمحك به، وها هو مأمون يقدم له المبرر بنفسه - الصبي سيبكي ونحن سنترك العمل؟ في الصباح صدعت رأسي: سأحمله إلى المدرسة. حسناً، ها قد حملته، والآن: سأعود به؟ وأنا ماذا؟ أم أننا هنا نلهو؟

فقال مأمون متوسلاً:

- لا داعي يا بني. في مثل هذا اليوم! أنا لا يهم، ولكن الصبي سينتظر، وسيبكي في مثل هذا اليوم...

- ماذا في هذا اليوم؟ أي شيء خاص في هذا اليوم؟

- المارال عادت، فلماذا في مثل هذا اليوم...

بهت أروزكول، بل لزم الصمت من الدهشة. لقد نسي من زمن طويل هذه المارال التي يبدو أنها مرقت كظلال سريعة راكضة عندما كان يتدحرج في الحرج الشائك، عندما غاص قلبه إلى قدميه رعبا. كان الجذع المنتفض من المنحدر يوشك في كل لحظة أن يسحقه. كان في شغل عن هذه المارال وعن ثرثرة هذا العجوز.

وقال بهدوء وغيظ وهو يفح في وجه العجوز:

- من تراك تحسبني؟ من المؤسف أنه ليس لديك لحية وإلا كنت سحبتك منها حتى لا تعتبر الآخرين أغبى منك. ما الذي يهمني من مارالك الحمقاء! لا ينقصني إلا أن أفكر فيها. دعك من اللف والدوران. هيا قف بجوار الجذع. وإياك أن تنطق بشيء قبل أن تنقله عبر النهر. ليس لي أي شأن بمن يذهب إلى المدرسة أو بمن يبكي. كفى، هيا...

وكالعادة انصاع مأمون. أدرك أنه لن يفلت من براثن أروزكول إلى أن ينقلا الجذع إلى المكان المحدد، فانهمك في العمل بصمت واستماتة. ولم يتفوه بكلمة رغم أن روحه كانت تتمزق ألماً. فحفيده

ينتظره عند المدرسة. كل الأطفال عادوا إلى بيوتهم. وهو وحده، حفيده اليتيم، ينظر إلى الطريق وينتظر الجد.

وتخيل العجوز كيف خرج جميع تلاميذ الصف من المدرسة وهم يدقون بأقدامهم، وكيف ركضوا كل إلى داره. كانوا جائعين. ويشمون، وهم بعد في الشارع، رائحة الطعام المعد لهم، فيركضون تحت نوافذ بيوتهم فرحين منفعلين. وأمهاتهم، ينتظرنهم، وكل منهن تبتسم ابتسامة تدير الرأس. وأياً كانت حالة الأم سيئة أم حسنة فانها تجد في نفسها القوة دائماً لتبتسم لطفلها. وحتى لو صاحت فيه بحزم: «ويداك؟ يداك من سيغسلهما؟» فإن عينيها تخفيان الابتسامة نفسها.

أما يدا حفيد مأمون فقد أصبحتا ملوثتين دائماً بالحبر منذ أن بدأ الدراسة. بل إن ذلك أعجب الجد، فهذا يعني أن الصبي يمارس عملاً. وها هو حفيده يقف الآن على الطريق، بيدين ملوثتين بالحبر، ممسكاً بحقيبته المحببة التي اشتروها له هذا الصيف. لا بد أنه تعب من الانتظار وبدأ يتطلع بقلق ويتنصت.. ترى ألم يظهر الجد فوق ظهر الحصان على الربوة. إنه دائماً يأتي في موعده. وعندما يخرج الصبي من المدرسة يكون الجد المترجل منتظراً غير بعيد. ويتفرق الصبية إلى بيوتهم أما هو فيركض إلى جده. ويقول الصبي للحقيبة: «ها هو جدي هناك، فلنركض!». وعندما يبلغه يرتمي عليه خجلاً ويعانقه دافناً وجهه في بطنه ويستنشق رائحة الملابس القديمة والدريس الصيفي الجاف المألوفة: ففي هذه الأيام ينقل الجد الدريس من الشاطئ المقابل، فالوصول إليه صعب شتاء عبر الثلج العميق، فمن الأفضل نقله في الخريف. وتظل رائحة غبار الدريس المرة تنبعث من مأمون فترة طويلة.

ويُجلس الجد الصبي خلفه على كفل الحصان، ويمضيان عائدين والحصان يسير تارة بخبب قصير، وتارة بالخطو العادي، وهما

يصمتان تارة، وتارة يتحدثان عن شيء ما غير ذي أهمية حتى يصلا دون أن يلاحظا. وخلال الفجوة بين الروابي يهبطان إلى منزلهما في وهدة سان - تاش.

كان ولع الصبي الجنوني بالمدرسة يثير الجدة. فما إن يستيقظ حتى يرتدي ملابسه بسرعة ويضع الكتب والدفاتر في الحقيبة. وكان مما يُغضب الجدة أنه يضع الحقيبة إلى جواره عندما يأوي إلى الفراش. «ما لك التصقتَ بهذه الحقيبة القذرة؟ لو تصبح زوجتك لوفرت علينا مهر العروسة. . .» وكان الصبي لا يلقي بالاً إلى كلمات الجدة هذه، كما أنه لم يكن يفهم جيداً معنى الحديث. كان أهم شيء لديه ألا يتأخر عن المدرسة. فيركض إلى الفناء ويستعجل جده. ولا يطمئن حتى تلوح المدرسة لناظره.

ومع ذلك فقد تأخر ذات مرة. ففي الأسبوع الماضي توجه مأمون في الفجر الباكر إلى الشاطئ الآخر. فقد قرر أن يقوم في الصباح بنقلة دريس. وكان من الممكن أن تمضي الأمور على ما يرام لولا أن رباط حزمة الدريس انفك. واضطر إلى ربط الحزمة من جديد. وبسبب العجلة تبعثر الدريس مرة أخرى عند الشاطئ تماماً.

وكان حفيده ينتظره على الضفة الأخرى. كان واقفاً على حجر مسنن وهو يلوّح بالحقيبة ويصرخ بشيء ما ويناديه. واستعجل العجوز فاشتبكت الحبال وانعقدت حتى استحال فكها. بينما مضى الصبي يصرخ، وأدرك العجوز أنه يبكي. عندئذ ترك كل شيء - الدريس والحبال - وامتطى الحصان، وأسرع إلى صبيه عبر مخاضة النهر.

وإلى أن عبر النهر مر طبعاً بعض الوقت. فخلال المخاضة لا تستطيع الرفس، فالمياه كثيرة والتيار سريع. في نهاية الصيف ليس العبور بهذه الخطورة، اما في بدايته فقد تدفع المياه بالحصان فيسقط ويهلك. وعندما عبر مأمون النهر أخيراً وبلغ حفيده كان هذا ينتحب

عاليا. لم ينظر إلى جده بل كان يبكي وهو يردد: «تأخرت، تأخرت عن المدرسة...» وتدلى العجوز من فوق الحصان ورفع الصبي إليه في السرج وانطلق بالحصان. لو كانت المدرسة قريبة لركض إليها الصبي كل يوم بنفسه. ولقد ظل يبكي آنذاك طوال الطريق ولم يستطع العجوز أن يهدئه. وهكذا وصل المدرسة وهو يبكي، وكانت الدروس قد بدأت فقاده إلى الصف مباشرة.

واعتذر مأمون كثير للمدرّسة ووعد بألا يتكرر ذلك ثانية. لكن أكثر شيء أذهل العجوز هو كيف بكى حفيده وكيف عانى تأخره. وقال الجد في نفسه: «ربنا يديم عليك حبك هذا للمدرسة». ومع ذلك فلماذا بكى الصبي هكذا؟ إذن فهو يحمل في نفسه زعلاً، زعلاً خاصاً لم يبح به...

والآن، وبينما مأمون يسير بجوار الجذع ويدور حوله تارة من هذه الناحية، وتارة من تلك، ويدفعه ويسنده بالعصي لكي لا ينحشر في شيء ولكي ينزلق أسرع من فوق الجبل، ظل طوال الوقت يفكر: ترى كيف حفيده هناك؟

اما أروزكول فلم يكن متعجلاً. كان يسير في المقدمة آخذاً بزمام الحصان. وحتى لو أردت أن تستعجل هنا فلن تستطيع، إذ إن المنحدر حاد طويل، ومن ثم اضطرا إلى النزول بانحراف. ومع ذلك ألم يكن في وسعه أن يستجيب لرجائه فيتركان الجذع هنا مؤقتاً ثم يعودان فيما بعد لأخذه؟ آه لو كانت لديه القوة لألقى بهذا الجذع على كتفه، وعبر النهر به، ورماه في ذلك المكان الذي ستشحن منه السيارة! خذوا، هذا جذعكم، واتركوني. ثم أسرع بعد ذلك إلى حفيده.

ولكن هيهات! عليهما أولاً أن يصلا إلى شاطئ النهر، ويسيرا فوق الأحجار والحصى، ثم يسحبا الجذع بالحصان عبر المخاضة إلى

الشاطئ الآخر. والحصان مرهق تماماً، فكم سار في الجبال صعوداً وهبوطاً. . . سيكون حظهما طيباً لو سار كل شيء على ما يرام، وإلا فما العمل لو انحشر الجذع بين الأشجار في وسط النهر، أو تعثر الحصان وسقط؟

وعندما خاضا في الماء كاد مأمون يبكي متوسلاً: «ساعديني يا أمنا الغزالة أم القرون، لا تدعي الجذع ينحشر، لا تدعي الحصان يسقط!». وخلع الجد مأمون حذاءه الطويل وألقى به على كتفه، وشمر سرواله إلى أعلى الركبتين وأسرع يلاحق بالعصى الجذع العائم. كانا يسحبان الجذع بخط مائل ضد التيار. وبقدر ما كانت المياه نقية وشفافة بقدر ما كانت قارسة. . كانت مياهاً خريفية.

وتجلد العجوز. . فلتتجمد قدماه. . ليكن، المهم أن ينقلا الجذع بسرعة. ومع ذلك انحشر الجذع كأنما نكاية به، واستقر على الأحجار في أكثر الأماكن امتلاء بها. وفي مثل هذه الأحوال ينبغي أن تترك الحصان ليستريح قليلاً، ثم تصيح به وتحثه جيداً، وبشدّة قوية يمكن انتشال الجذع. ولكن أروزكول كان راكباً على الحصان المنهك المتهالك وهو ينهال عليه بالسوط بلا رحمة. فكان الحصان يقعي على ساقية الخلفيتين وينزلق، ويتعثر. بينما لا يتزحزح الجذع من مكانه. وتجمدت قدما العجوز، بينما لا يتزحزح الجذع من مكانه. وتجمدت قدما العجوز، وغامت عيناه. كان رأسه يدور. الجرف، الغابة فوق الجرف، السحب في السماء تميل، وتسقط في النهر وتندفع مع تياره السرسع، ثم تعود من جديد. أصبحت حالة مأمون سيئة. يا للجذع الملعون! لو كان جافاً، مقطوعاً من مدة طويلة لكان الحال غير الحال، فالخشب الجاف يطفو على الماء من تلقاء نفسه، وما عليك إلا أن تمسك به. أما هذا فما إن قطعوه حتى حملوه تواً عبر النهر. هل هناك أحد يفعل ذلك! هذه هي النتيجة. العمل السيئ نتيجته

سيئة. لم يجرؤ أروزكول على ترك جذع الصنوبرة حتى يجف، فقد تفاجئهم لجنة تفتيش وتحرر محضراً بقطع الأشجار الثمينة في غابة محمية. ولذلك ما إن قطعوا الجذع حتى أسرعوا يسحبونه بعيداً عن الأنظار.

راح أروزكول يضرب الحصان بكعبيه وبالسوط، ويضربه على رأسه، ويطلق السباب البذيء، ويصيح بالعجوز وكأنما مأمون هو السبب في كل ما حدث، ولكن الجذع لم يتحرك من مكانه، بل غاص أكثر بين الأحجار. ونفد صبر العجوز. ولأول مرة في حياته يرفع صوته بغضب:

- انزل من على الحصان! - قال وهو يقترب من أروزكول بحزم ويشده من السرج - ألا ترى أن الحصان لا يقدر على الجر؟ انزل حالاً!

وأذعن أروزكول المندهش في صمت. قفز من السرج إلى الماء مباشرة دون أن يخلع الحذاء. ومنذ تلك اللحظة بدا وكأنما أصبح غبياً، أصم، فاقدا ذاته.

- هيا! ارفع! هيا معاً!

وبأمر مأمون ضغطا معاً على العصا فرفعا الجذع من مكانه، محررينه من قبضة الأشجار.

ويا له من حيوان ذكي هذا الحصان! لقد اندفع بالذات في هذه اللحظة، وشد السيور وهو يتعذر وينزلق على الأشجار. ولكن الجذع تحرك من مكانه قليلاً وانزلق، ثم انحشر ثانية. واندفع الحصان مرة أخرى، ولم يستطع الصمود فسقط في الماء وراح يتخبط وهو يشتبك في العدة.

ودفع مأمون أروزكول صائحاً:

- الحصان، أنهض الحصان!

وتمكنا معاً، بعد جهد، من مساعدة الحصان على الوقوف.

كان الحصان يرتعش من البرد وهو لا يكاد يقوى على الوقوف في الماء.

- فك العدة!

- لماذا؟

- فك العدة قلت لك. سنعيد تسريجه. انزع السيور.

ومن جديد أذعن أروزكول في صمت. وعندما أصبح الحصان حراً من عدته أمسك مأمون بلجامه وقال:

- والآن هيا بنا. سنعود فيما بعد. فليسترح الحصان.

- ماذا؟ قف!- وانتزع أروزكول اللجام من يد العجوز. وبدا كأنما أفاق. عاد فجأة إلى ما كان عليه. - تريد أن تضحك على من؟ لن تذهب إلى أي مكان. سننقل الجذع الآن. في المساء سيأتون لشحنه. سرّج الحصان بدون كلام، أتسمع؟

استدار مأمون في صمت، ومضى يعرج على قدميه المتجمدتين خائضاً في النهر نحو الشاطئ.

- إلى أين أيها العجوز؟ إلى أين قلت لك؟

- إلى أين! إلى أين! إلى المدرسة. الولد منتظر هناك من الظهر.

- هيا عد! عد!

ولكن العجوز لم يذعن. وترك أروزكول الحصان في النهر ولحق بمأمون عند الشاطئ تقريبا، فأمسك بكتفه وأداره نحوه.

وأصبحا وجهاً لوجه.

خطف أروزكول الحذاء المشمع القديم المدلى على كتف مأمون، وضرب به حماه مرتين على رأسه ووجهه بكل قوته.

وفحّ ارزكول وهو يطوح بالحذاء جانباً:

- هيا، أتسمع؟

مضى العجوز إلى الحذاء فرفعه من على الرمل المبلل، وعندما استقام طفر الدم على شفتيه.

وقال مأمون وهو يبصق دماً:

- يا سافل!

- وألقى بالحذاء على كتفه من جديد.

صدر هذا القول عن مأمون الهمام، الذي لم يوجه أبداً إلى أحد كلمة نابية، صدر هذا القول عن عجوز بائس ازرقّ جلده من البرد، ومن كتفه يتدلى حذاء قديم، وعلى شفتيه يقبق الدم.

- هيا!

قال أروزكول وشده وراءه. ولكن مأمون تخلص منه بقوة ومضى مبتعداً دون أن يلتفت.

فصاح أروزكول في أثره وهو يلوّح بقبضته:

- حسناً أيها العجوز الأحمق، سأريك! لن أنسى لك هذا!

ولم يلتفت مأمون. وعندما بلغ الدرب بقرب «الجمل الراقد» جلس وارتدى حذاءه وأسرع إلى المنزل. ودون أن يتوقف في أي مكان قصد الاصطبل مباشرة وأخرج منه الجواد الرمادي «ألباش» جواد أروزكول العداء الذي لا يمس ولا يجرؤ أحد على ركوبه، هذا الجواد الذي لم يكونوا يستخدمونه في العمل حتى لا تفسد خطوته. وانطلق مأمون به من الفناء بلا سرج أو ركاب وكأنما يسرع إلى مكان شب فيه حريق. وعندما مرق بجوار النوافذ، وبجوار السماور الذي كان الدخان لا يزال يتصاعد منه، أدركت النساء اللائي اندفعن إلى الخارج - زوجة مأمون العجوز وابنته بيكي وجول جمال الشابة - على الفور أن شيئاً جرى للعجوز. إذ لم يحدث أبداً أن ركب «ألباش» ولم يحدث أبداً أن ركض بالحصان هكذا في الفناء غير عابئ بشيء. لم يعرفن بعد أن

تلك كانت ثورة مأمون الهمام. ولم يعرفن بعد كم ستكلفه هذه الثورة في أواخر أيامه. . .

ومن جهة المخاضة ظهر أروزكول قادماً يسحب حصاناً بلا عدة. وكان الحصان يعرج على ساقه الأمامية. تطلعت النساء إليه في صمت وهو يقترب من الفناء. لم يخمّن بعد ما كان يعتمل في نفس أروزكول ولا ما كان يحمله لهن في هذا اليوم من مصائب وأهوال. . .

اقترب منهن بخطوات ثقيلة وئيدة، في حذاء ميلل يبقبق، وسروال مبلل، وتطلع شذراً إليهن. واعترى القلق زوجته بيكي فقالت:

- ماذا بك يا أروزكول؟ ماذا حدث؟ إنك مبلل كلّك. هل جرف النهر الجذع؟

- كلا - أشاح بيده، وسلم اللجام لجول جمال - خذي، سوقي الحصان إلى الاصطبل. - واتجه إلى الباب قائلاً لزوجته: - لندخل البيت.

وأرادت الجدة أن تذهب معهما ولكن أروزكول منعها من الدخول.

- اذهبي يا عجوز. ليس لك ما تفعلينه هنا. اذهبي إلى بيتك ولا تأتي.

فقالت الجدة مهانة:

- ماذا بك؟ ما معنى هذا؟ وأين شيخنا؟ ماذا حدث؟

فأجاب أروزكول:

- اسأليه هو.

وفي البيت نزعت بيكي عن زوجها ملابسه المبللة وأعطته معطف الفراء، وأدخلت السماور وبدأت تصب له شاياً في القدح.

فرفض أروزكول بحركة من يده:

- لا داعي. أعطني شراباً.

اخرجت زوجته زجاجة فودكا لم تفض، وصبت منها في الكوب.
فأمرها أروزكول:
- املئي الكوب.
وأفرغ في جوفه كوب الفودكا دفعة واحدة، والتف بمعطف الفراء، واضطجع على الكليم ثم قال لزوجته:
- أنت طالق. اذهبي. إياك أن أرى وجهك هنا. اذهبي قبل فوات الآوان.
زفرت بيكي، وجلست على السرير، وسحت دموعها كالعادة وقالت بصوت خافت:
- ثانية؟
فزأر أروزكول:
- ماذا ثانية؟ اخرجي من هنا!
قفزت بيكي واندفعت خارجة من المنزل، وأعولت كعادتها بأعلى صوتها وهي تلوح بيديها:
- ياحظي البائس، لماذا ولدت يا ربي!
وفي تلك الاثناء كان مأمون يركض على ظهر «ألباش» إلى حفيده. «ألباش» جواد سريع. ومع ذلك تأخر مأمون ساعتين وأكثر. التقى بحفيده في الطريق. وكانت المدرّسة قد أخذته لتوصله بنفسها. تلك المدرّسة نفسها، ذات اليدين الملوحتين الخشنتين، وفي المعطف المعهود نفسه الذي ترتديه للعام الخامس. كانت هذه المرأة المتعبة تبدو عابسة. أما الصبي، فبعد أن شبع بكاء من زمن طويل، سار إلى جوارها بعينين منتفختين، ممسكاً بحقيبته في يديه، وبدا بائساً ومهاناً. وبّخت المدرّسة العجوز مأمون بشدة. ووقف أمامها مترجلاً مطأطأ الرأس.
قالت المدرّسة:

- لا تأت بالصبي إلى المدرسة إذا لم تكن ستأخذه في الوقت المناسب. لا تعول عليّ، فعندي أولادي أربعة.

ومن جديد اعتذر مأمون، ومن جديد وعد بألا يتكرر هذا ثانية.

وعادت المدرّسة إلى جيليساي، وتوجه الجد وحفيده إلى البيت.

لزم الصبي الصمت وهو جالس أمام جده على الحصان. ولم يدر العجوز ماذا يقول له.

وسأله:

- هل أنت جائع جداً؟

فأجاب الصبي:

- لا، المدرّسة أعطتني خبزاً.

- ولماذا أنت ساكت؟

فلم يرد الصبي على ذلك بشيء.

ابتسم مأمون ابتسامة مذنبة:

- كم أنت سريع الغضب يا بني...- ونزع عنه العمرة وقبّله في رأسه. ثم ألبسه العمرة ثانية.

ولم يلتفت الصبي نحوه.

هكذا مضيا صامتين مهمومين. لم يطلق مأمون العنان «لألباش»، بل كان قابضاً على اللجام بحزم، خشية أن يتعرض الصبي للهزات على ظهر جواد غير مسرج. كما أنه، فيما بدا للعجوز، لم يعد ثمة داع للعجلة الآن.

وسرعان ما أدرك الحصان ما يراد منه فسار بشبه رهونة خفيفة، وهو ينفر بمنخاريه ويدق على الطريق بحوافره. على جواد كهذا يطيب السفر عندما تكون وحدك، وتدندن بأغان خافتة، هكذا لنفسك. ما أكثر ما يمكن أن تغني عنه بينك وبين نفسك! عن الآمال التي لم تتحقق، عن السنين التي مرت، عما كان آنذاك حين كنت تحب...

إذ يروق للمرء أن يتنهد متأسفا على تلك الفترة، حيث بقي هناك إلى الأبد شيء لا يطال. وإن كنت لا تدرك تماماً ما هو. ولكنك تود أحياناً أن تفكر في ذلك، تود أن تحس بنفسك.

يا له من رفيق طيب الحصان الجيد، الحسن السير. . .

وفكر العجوز مأمون وهو ينظر إلى قفا حفيده الحليق وعنقه الرفيع وأذنيه المنتصبتين، بأنه لم يتبق لديه الآن من كل حياته البائسة، من كل أعماله وكده، من كل همومه وأحزانه سوى هذا الطفل، هذا المخلوق الضعيف بعد. حسناً لو يتمكن الجد من وضعه على قدميه. أما إذا بقي وحده فسيلاقي المتاعب. انظر، ما زال بحجم كوز الذرة ولكنه معتد بنفسه. رغم أنه يحتاج إلى أن يكون أبسط، وأرقّ. . . فأمثال أروزكول سوف يمقتونه، سوف يمزقونه كما تمزق الذئاب غزالاً مطارداً. . .

وهنا تذكر مأمون المارال، تلك التي مرقت آنذاك كالظلال السريعة الخاطفة فانتزعت من قلبه صيحة الدهشة والفرحة.

فقال الجد مأمون:

- أتدري يا بني؟ لقد جاءت المارال إلينا.

التفت الصبي نحوه بحيوية وسأل:

- صحيح؟

- صحيح. رأيتها بنفسي. ثلاث رؤوس.

- ومن أين جاءت؟

- أظن من وراء الممر. . فهناك أيضاً غابة محمية. الخريف هذا العام كالصيف، والممر لذلك مفتوح. وها هي جاءت إلى ضيافتنا.

- وهل ستبقى عندنا؟

- إذا أعجبها الحال فستبقى. إذا لم يمسسها أحد ستعيش هنا.

فالعشب هنا وفير. . يكفي ولو لألف مارال. . . في سالف الزمان، أيام أمنا الغزالة أم القرون كانت المارال هنا لا تعد ولا تحصى. . .

وعندما أحس العجوز أن الجليد يذوب من على قلب الصبي وهو يسمع هذا النبأ، وأنه ينسى زعله، راح يحكي له من جديد عن العهود الغابرة، وعن الغزالة الأم أم القرون. وفكر وهو مندمج مع روايته: ما أبسط أن تصبح فجأة سعيداً وتحمل السعادة للآخرين! آه لو أمكن أن تعيش هكذا دائماً. نعم هكذا، مثلما الآن، في هذه اللحظة. ولكن الحياة لا تسير هكذا. فإلى جانب السعادة تتربص المصيبة دائماً وتقتحم عليك روحك وحياتك، وتتعقبك كظلك، هذه اللعنة الأزلية التي لا تحيد. وحتى في هذه اللحظة، عندما كانا هو وحفيده سعيدين، إلى جانب الفرحة اعتمل في قلب العجوز القلق: ترى كيف أروزكول هناك؟ ماذا أعد له، أية نكاية؟ أي عقاب سينزله به، هو العجوز الذي جرؤ على عصيانه؟ فأروزكول لن يترك ذلك يمر هكذا. وإلا لما كان أروزكول.

ولكي لا يفكر في المصيبة التي تنتظر ابنته وتنتظره هو نفسه أخذ مأمون يحكي لحفيده عن المارال، وعن نبل هذه المخلوقات وجمالها وسرعتها، يحكي بتفانٍ وكأنما سيستطيع بذلك أن يدرأ المحتوم.

وكان الصبي مستمتعاً بالحديث. ولم يخمن ما الذي ينتظره في البيت. كانت عيناه وأذناه متقدة. كيف، أحقاً عادت المارال؟ إذن فكل هذا حقيقة! الجد يقول إن الغزالة الأم أم القرون غفرت للناس ما ارتكبوه ضدها من جرائم، وسمحت لأولادها بالعودة إلى جبال ايصيق - كول. قال الجد إن ثلاثة من المارال قد جاءت لتتعرف على الاحوال هنا، وإذا ما أعجبتهم فسوف تعود المارال كلها إلى الوطن.

وقاطع الصبي جده:

- يا جدي، أليس جائزاً أن أمنا الغزالة أم القرون قد جاءت

بنفسها؟ ربما أرادت أن تعرف الأحوال عندنا، وبعد ذلك تدعو أولادها؟ هه؟

- ربما، ربما.. - أجاب العجوز متردداً وتلعثم. لقد أحس بالحرج: ألم يندمج أكثر من اللازم، ألم يؤمن الصبي أكثر من اللازم بكلماته؟ ولكن الجد مأمون لم يشأ أن يحطم إيمان الصبي، كما أن ذلك أصبح الآن متأخراً - من يدري، من يدري - وهز كتفيه - ربما، ربما تكون أمنا الغزالة أم القرون قد جاءت بنفسها. من يدري...

فقال الصبي:

- نحن سندري. هيا بنا يا جدي نذهب إلى ذلك المكان الذي رأيت فيه المارال. أنا أيضاً أريد أن أراها.

- ولكنها لا تبقى في مكان واحد.

- سنتبع آثارها. سنسير طويلاً طويلاً مع آثارها. وما إن نراها، ولو بطرف العين، حتى نعود. وعندئذ ستفكر بأن الناس لن تمسها.

فضحك الجد:

- يا لك من طفل. عندما نصل سنرى.

كانا قد اقتربا من الكوردون على الدرب المار من خلف البيوت. البيت من الخلف كالرجل من ظهره. لم تصدر عن البيوت الثلاثة أية إشارة إلى ما يدور داخلها. وكان الفناء أيضاً خاوياً وصامتاً. وعصر هاجس كريه قلب مأمون. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ هل ضرب أروزكول بيكي البائسة؟ هل شرب حتى سكر؟ ما الذي يمكن أن يكون قد حدث غير ذلك؟ لماذا يسود هذا الهدوء، ولماذا لا يوجد أحد في الفناء في هذه الساعة؟ وقال مأمون لنفسه: «لو كل شيء على ما يرام فلا بد من انتشال هذا الجذع المشؤوم من النهر. ما علينا من أروزكول. الأفضل ألا تحتك به. الأفضل أن تفعل ما يريد ولتبصق على ذلك. هل تستطيع إقناع الحمار بأنه حمار».

اقترب مأمون من الاصطبل.

- انزل. ها قد وصلنا، - قال لحفيده وكأنما جاءا من سفر بعيد محاولاً ألا يفصح عن قلقه.

وعندما همّ الصبي أن يعدو بحقيبته إلى البيت استوقفه مأمون:

- انتظر، سنذهب معا.

وضع «ألباش» في الاصطبل، وأخذ الصبي من يده وسار إلى المنزل. وقال الجد لحفيده:

- اسمع، إذا ما رأيتهم يشتمونني فلا تخف، ولا تلق بالاً إلى ما يقال. هذا لا يخصك. ما عليك إلا أن تذهب إلى المدرسة.

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. عندما دخلا البيت ألقت الجدة على مأمون نظرة إدانة طويلة وزمت شفتيها وعادت إلى الحياكة. ولم يقل لها الجد هو الآخر شيئاً، ووقف وسط الغرفة عابساً محاذراً، ثم أخذ من على الموقد صفحة كبيرة بها حساء. والتقط ملعقتين وخبزاً، وجلس مع حفيده يتناولان غداءهما المتأخر.

أكلا في صمت، أما الجدة فحتى لم تنظر نحوهما. تحجر الغضب على وجهها البني الذابل. وأدرك الصبي أن شيئاً سيئا للغاية قد حدث. ولكن العجوزين ظلا صامتين.

استولى الفزع والقلق على الصبي حتى أنه لم يعد قادراً على ازدراء الطعام. ليس هناك ما هو أسوأ من أن يصمت الناس أثناء الأكل، وكل منهم يفكر في شيء خاص به، شيء سيئ ومريب. وقال الصبي في نفسه مخاطباً الحقيبة: «قد نكون وإياك المذنبين؟» وكانت الحقيبة فوق رف النافذة. وتدحرج قلب الصبي على الأرض وتسلق الجدار إلى رف النافذة ليصبح قريباً من الحقيبة وراح يتهامس معها.

«ألا تعرفين أنت شيئاً؟ لماذا جدي حزين هكذا؟ ما هو ذنبه؟ ولماذا تأخر اليوم، لماذا جاء على ظهر «ألباش» وبدون سرج؟ إن ذلك

لم يحدث أبداً. ربما يكون قد تأخر لأنه رأى المارال في الغابة؟ ولكن ربما ليس هناك أية مارال؟ ربما ليس هذا صحيحاً؟ فما العمل إذن؟ لماذا حكى؟ ستغضب أمنا الغزالة أم القرون جداً لو كان جدي قد خدعنا...»

وبعد أن فرغ الجد مأمون من الغداء قال للصبي بصوت خافت:

- اذهب إلى الفناء. هناك عمل ستساعدني فيه. سآتي حالا.

خرج الصبي مطيعاً، وما إن أغلق خلفه الباب حتى دوى صوت الجدة:

- إلى أين؟

فأجاب مأمون:

- سأذهب لنقل الجذع. كان قد انحشر في النهر.

فصرخت الجدة:

- آه، تذكرت؟ أفقت؟ اذهب لترى ابنتك. جول جمال آوتها عندها. من بحاجة إليها الآن، ابنتك الحمقاء العاقر. اذهب ودعها تخبرك من هي الآن، زوجها طردها من البيت كما يطرد الكلب الأجرب.

فقال مأمون بمرارة:

- طيب، طردها يعني طردها..

- انظروا إليه! من تكون أنت؟ فسدت بنتاك، أتظن أنك بالتعليم ستجعل من حفيدك رئيساً؟ هذا مستحيل! أمن أجل هذا ترمي بنفسك إلى الهلاك؟ ثم تركب «ألباش» وترمح! يا سلام عليك! كان يجب أن تعرف قدرك وضد من تقف... أنه يستطيع أن يكسر عنقك كما تكسر عنق دجاجة. ومنذ متى أصبحت تعارض؟ منذ متى أصبحت بطلاً؟ إياك أن تفكر في المجيء بابنتك إلى هنا. لن أدعها تدخل...

تسكع الصبي مكتئباً في الفناء. واستمرت صيحات الجدة تتردد في البيت، ثم اصطفق الباب واندفع مأمون خارجاً منه. واتجه العجوز إلى منزل سيد أحمد، ولكن جول جمال قابلته في الطريق.

- لا داعي الآن، فيما بعد أفضل، - قالت لمأمون فتوقف هذا حائراً. - إنها تبكي، لقد ضربها - همست جول جمال. - تقول إنهما لن يعيشا بعد الآن معاً. إنها تلعنك.. تقول إنك السبب في كل شيء.

صمت مأمون، فماذا يقول؟ حتى ابنته لم تعد تريد أن تراه.

وقالت جول جمال في همس:

- أما أروزكول فجالس في بيته يشرب. صار كالوحش. أطرقا صامتين. ثم زفرت جول جمال وقالت بعطف:

- لو يأتي سيد أحمد بسرعة! من المفروض أن يعود اليوم. إذن لحملتما هذا الجذع معاً وخلصنا من هذا.

فهز مأمون رأسه:

- وهل المشكلة في الجذع؟ وأطرق مفكراً، وعندما رأى حفيده بجواره قال له: اذهب انت، العب.

تنحى الصبي جانباً، ثم ذهب إلى الحظيرة فأخذ المنظار المخبأ هناك. ومسح عنه الغبار. وقال للمنظار بحزن: «أحوالنا سيئة. يبدو أنني والحقيبة السبب في ذلك. لو كانت هناك مدرسة أخرى، لذهبت أنا والحقيبة إليها لنتعلم، بحيث لا يعرف أحد. ولكني أشفق على جدي، فسوف يبحث عنا. وأنت يا منظار، مع من ستتطلع إلى السفينة البيضاء؟ أتظن أنني لن أتحول إلى سمكة؟ سترى. سأسبح إلى السفينة البيضاء...»

اختبأ الصبي خلف كوم الدريس وراح يتطلع فيما حوله بالمنظار. تطلع قليلاً وبلا مرح. في وقت آخر لا تمل النظر.. فها هي الجبال

الخريفية مغطاة بالغابات الخريفية، وفي الأعلى يرقد الثلج الأبيض، وفي الأسفل تشتعل نيران حمراء.

وضع الصبي المنظار في مكانه، وعندما خرج من الحظيرة رأى جده يقود عبر الفضاء حصاناً مسرجاً. كان متوجهاً إلى المخاضة. وهمّ الصبي بالركض نحو جده ولكن أوقفته صيحة أروزكول. قفز أروزكول من داره بالقميص الداخلي ومعطف الفراء مسدل على كتفيه. وكان وجهه أحمر كضرع ملتهب.

- اسمع يا أنت!- صاح في مأمون مهدداً. - إلى أين تسوق الحصان؟ ضعه في مكانه. سنحمل الجذع بدونك. وإياك أن تلمسه. أنت هنا لست شيئاً الآن. إنني أطردك من الكوردون. اذهب إلى حيث تريد!

ضحك الجد ضحكة مرة وعاد بالحصان إلى الاصطبل. وفجأة أصبح مأمون عجوزاً ضئيلاً. سار دون أن يلتفت ونعلاه يحتكان بالأرض.

اختنق الصبي بالغضب للإهانة التي لحقت الجد، ولكي لا يراه أحد وهو يبكي ركض إلى شاطئ النهر. وكان الدرب يغشاه ضباب الدموع فيختفي، ثم يعود إلى الظهور تحت قدميه. كان الصبي يركض ودموعه تنهمر. ها هي أحجاره الحبيبة: «الدبابة» و «الذئب» و «السرج» و«الجمل الراقد». لم يقل لها الصبي شيئاً، فهي لا تفهم شيئاً وتقف هكذا جامدة. احتضن الصبي سنام «الجمل الراقد»، وارتمى على جرانيته الأحمر وانفجر بالبكاء بمرارة ولوعة. بكى طويلاً، ثم هدأ بالتدريج حتى كف عن البكاء. وأخيراً رفع رأسه، ومسح عينيه، ونظر أمامه فذهل. أمامه مباشرة، على الشاطئ المقابل وقفت ثلاث مارال قرب الماء النهر. مارال حقيقية. حية. كانت تشرب الماء، ويبدو أنها ارتوت. أما ذلك المارال صاحب أطول وأثقل قرون، فقد

نكس رأسه ثانية نحو الماء وأخذ يمتصه بشفتيه، وبدا كأنه يتملى في المياه الضحلة قرونه كما في مرآة. كان لونه يميل إلى البني، عريض الصدر، قوي البنية. وعندما رفع رأسه تساقطت قطرات المياه من شفته المشعرة الشقراء. وتطلع ذو القرون إلى الصبي باهتمام وهو يحرك أذنيه.

ولكن أكثرها تحديقاً في الصبي كانت تلك الغزالة البيضاء المنتفخة الجبين، التي كانت تحمل على رأسها تاجاً من القرون الرفيعة المتشعبة. كانت قرونها أصغر قليلاً ولكنها غاية في الجمال. وكانت تشبه الغزالة الأم أم القرون تماماً. كانت عيناها كبيرتين صافيتين. أما هي فكانت كالفرس الفخمة التي تلد كل عام مهراً. حدقت الغزالة الأم أم القرون في الصبي بانتباه وهدوء، كأنما كانت تتذكر أين رأت هذا الصبي الكبير الرأس النافر الأذنين. ولمعت عيناها المبللتان وسطعتا من بعيد. ومن منخاريها تصاعد بخار خفيف. ووقف بجوارها أيل صغير شاب مستديراً بظهره وهو يقضم أغصان الشجيرات. لم يكن مهتماً بشيء. وكان مدملجاً، قوياً ومرحاً. كف فجأة عن قضم الأغصان وقفز بمرح فمس الغزالة بكتفه، ثم راح يقفز من حولها ويلاطفها. وحك رأسه الخالي من القرون في جنبي الغزالة الأم أم القرون. أما الغزالة الأم أم القرون فلم تحول عينيها عن الصبي.

كتم الصبي أنفاسه، وخرج من خلف الحجر، وكما في الحلم مد يده أمامه واقترب من الشاطئ، من الماء مباشرة. ولم يبد على المارال أنها خافت على الإطلاق، وظلت تحدق فيه بهدوء من الشاطئ الآخر.

وبينهما كان يتدفق نهر سريع أخضر رائق يفور ويتموج عبر الأحجار الغائصة فيه. ولولا النهر الفاصل بينهما لكان من الممكن، فيما يبدو، الاقتراب من المارال ولمسها باليد. كانت المارال تقف على الشاطئ المنبسط المفروش بالحصى النظيف. ومن خلفها، عند

نهاية شريط الحصى، تأججت الأحراج الخريفية الحمراء. وإلى أعلى جرف طيني، ومن فوق أشجار البتولا والحور الرجراج الذهبية الحمراء، وإلى أعلى منها غابة كبيرة وثلج أبيض على السفوح الصخرية.

أغمض الصبي عينيه ثم فتحهما ثانية، فتبدت لناظريه اللوحة ذاتها، وعلى خلفية الشجيرات الحمراء كانت تقف المارال الأسطورية نفسها على الحصى النظيف.

ولكن ها هي تستدير وتمضي صفاً فوق الحصى إلى الغابة. في المقدمة سار المارال الكبير، وفي الوسط الأيل الصغير، ومن خلفه الغزالة الأم أم القرون. والتفتت، ونظرت إلى الصبي مرة أخرى. ثم دلفت المارال إلى الخمائل وسارت عبرها. واهتزت الغصون الحمراء فوقها وتساقطت أوراق حمراء فوق ظهورها المرنة الملساء.

ثم سارت على الدرب إلى أعلى وارتقت الجرف، وهنا توقفت وخيل للصبي من جديد أن المارال كانت تتطلع إليه. ومد المارال الكبير عنقه، وطوح قرونه إلى الخلف فوق ظهره وصاح كالنفير: «باو!.. باو!..» وانداحت صيحته فوق الجرف ثم فوق النهر صدى طويلا: «آو.. آو...».

وهنا فقط أفاق الصبي. انطلق يعدو بأقصى سرعة إلى البيت على الدرب المعروف. كان يجري بكل قواه. ومرق من الفناء وفتح الباب في صخب وصاح وهو يلهث فوق العتبة:

- يا جدي! المارال جاءت! المارال جاءت! إنها هنا! نظر إليه الجد مأمون من ركن الغرفة حزيناً منطوياً، ولم يقل شيئاً كأنما لم يفهم عم يدور الحديث.

ونهرته الجدة:

- كفاك صياحاً! فلتكن جاءت، لدينا من الهم ما يكفي.

وخرج الصبي بهدوء. كان الفناء خاوياً. ومالت شمس الخريف وراء جبل الحراسة، خلف السلسلة المجاورة من الجبال العارية الغسقية. اشتعلت الشمس لهباً داكناً لا دفء فيه فوق الصحارى الجبلية التي راحت تبرد. ومن هنا انتشر هذا اللهب البارد إلى الأماكن المجاورة وهجاً متموجاً فوق قمم الجبال الخريفية. والتفّت الغابات بعتمة المساء.

برد الجو، وهبّت رياح آتية من الثلوج. وارتعش الصبي. كان يرتجف من الحمى.

(٦)

كان يرتجف من الحمى أيضاً عندما أوى إلى الفراش. وظل طويلاً لا يستطيع النوم. وكان الليل الأسود قد شمل الفناء. كان يشعر بصداع ولكنه لزم الصمت. ولم يعرف أحد أنه مرض. نسوه. وكيف لا ينسونه وهم في هذه الحال!

اختلطت الأمور على الشيخ تماماً. ولم يهدأ له مستقر. فمرة يخرج، ومرة يدخل، ومرة يجلس مغتماً ويزفر بأسى، ومرة ينهض ثانية وينصرف إلى مكان ما. وكانت الجدة توبخ العجوز بغضب وترمح هي أيضاً جيئة وذهاباً، وتارة تخرج إلى الفناء، وتارة تعود. وترددت في الفناء أصوات مقتضبة غير واضحة، وخطوات عجلى وسباب ما. . . يبدو أن أروزكول عاد إلى السباب، وبكى شخص ما وهو يشهق. . .

كان الصبي راقداً في هدوء وقد أرهقته أكثر فأكثر كل هذه الأصوات والخطوات، وكل ما كان يجري في البيت وفي الفناء.

أغمض عينيه، وحاول أن يخفف من وحدته ونسيانهم له فتذكر ما حدث اليوم وما أراد أن يراه. كان واقفاً على شاطئ نهر كبير. وتدفقت مياه النهر بسرعة إلى درجة كان من الصعب معها النظر إليها طويلاً، وإلا دار الرأس. ومن الشاطئ الآخر حدقت فيه المارال. المارال الثلاث جميعاً التي رآها قبيل المغيب كانت تقف الآن هناك

ثانية. وتكرر كل شيء من جديد. المارال الكبير ذو القرون تساقطت من شفته المبللة القطرات نفسها عندما رفع رأسه عن الماء. أما الغزالة الأم أم القرون فكانت تحدق في الصبي بانتباه، كما كانت تفعل، بعينين طيبيتين فاهمتين. وكانت عيناها كبيرتين داكنتين مبللتين. ودهش الصبي جداً عندما رأى الغزالة الأم أم القرون تتنهد كما يفعل البشر. بحزن وأسى كجده. وبعد ذلك انصرفت المارال عبر الخمائل. واهتزت الغصون الحمراء فوقها، وتساقطت الأوراق الحمراء فوق ظهورها الملونة الملساء. وارتقت إلى الجرف. وهنا توقفت. ومد المارال الكبير عنقه وطوح قرونه إلى الخلف فوق ظهره وصاح كالنفير: «باو!. باو!» وابتسم الصبي في سره وهو يتذكر كيف انداحت صيحة المارال الكبير فوق النهر صدى طويلاً. وبعد ذلك اختفت المارال في الغابة. ولكن الصبي لم يكن يريد أن يفارقها ولهذا أخذ يختلق ما كان يود أن يراه.

ومن جديد تدفق النهر الكبير أمامه بسرعة. ودار رأسه من سرعة التيار. وقفز فطار متخطياً النهر. وهبط برفق وسلاسة غير بعيد عن المارال التي ظلت واقفة على شريط الحصى. ونادته الغزالة الأم أم القرون إليها:

- ابن من أنت؟

صمت الصبي فقد شعر بالخجل أن يقول لها ابن من هو. ثم تمتم:

- أنا وجدي نحبك جداً يا أمنا الغزالة أم القرون. كنا ننتظرك منذ زمن بعيد.

فقالت الغزالة الأم أم القرون:

- وأنا أيضاً أعرفك. وأعرف جدك أيضاً. إنه إنسان طيب.

وفجأة قال لها:

- أتريدين أن أصبح سمكة وأسبح في النهر إلى ايصيق - كول، إلى السفينة البيضاء؟

كان يعرف كيف يفعل ذلك، ولكن الغزالة الأم أم القرون لم تجب على ذلك بشيء. عندئذ شرع الصبي يخلع ملابسه، وكما كان يفعل في الصيف نزل إلى الماء وهو ينكمش، ممسكا بغصن شجيرة الشاطئ. ولكن الماء لم يكن بارداً بل حاراً، ساخناً، خانقاً. وسبح تحت الماء بعينين مفتوحتين، وإذا أعداد هائلة من حبات رمال القاع الذهبية والحصى الدقيق تدور من حوله كسرب نحل طنان. وبدأ يختنق، بينما مضى التيار الساخن يسحبه.

وصاح الصبي بصوت عال:

- الحقيني يا أمنا الغزالة أم القرون، الحقينى، أنا أيضاً ابنك!

وجرت الغزالة الأم أم القرون على الشاطئ في أثره، جرت بسرعة، وصفرت الريح في قرونها، وعلى الفور أحس بشيء من الراحة.

كان مبللاً بالعرق. وتذكر الصبي أن جده في مثل هذه الأحوال كان يدثره أكثر فشد الغطاء والتحف به أفضل. لم يكن أحد في المنزل. واحترق فتيل المصباح الكيروسيني فانبعث ضوؤه شاحباً. وأراد الصبي أن ينهض ليشرب، ولكن ترددت في الفناء من جديد أصوات حادة، وصاح أحد ما في أحد ما، وبكى شخص ما وراح شخص آخر يهدئه. وسمعت جلبة ووقع اقدام... ثم مر بجوار النافذة تماماً شخصان يتأوهان ويتوجعان، وبدا كأن أحدهما يسحب الآخر. وفتح الباب في صخب، ودفعت الجدة الجد مأمون إلى داخل البيت دفعاً وهي تلهث هائجة. لم ير الصبي في حياته جده مذعوراً بهذه الصورة. وبدا أنه لا يفقه شيئاً وكانت نظراته زائغة حائرة. ودفعته الجدة في صدره وأجبرته على الجلوس.

- اجلس، اجلس أيها الأحمق العجوز ولا تحشر نفسك فيما لا يعنيك. هل هذه أول مرة يحدث بينهما هذا؟ إذا كنت تريد أن ينتهي كل شيء بسلام فاجلس ولا تحشر نفسك. افعل ما أقول لك، سامع؟ وإلا سمَّم علينا حياتنا، فاهم؟ وإلى أين نذهب في آخر العمر؟ إلى أين؟ - قالت الجدة ذلك ثم صفقت الباب وراءها وانطلقت من جديد.

عاد الهدوء يلف البيت. ولم تسمع سوى أنفاس الجد المتحشرجة المتقطعة. كان جالساً على المصطبة بجوار الفرن دافناً رأسه بين ذراعيه المرتعشتين. وفجأة ارتمى العجوز على ركبتيه ورفع يديه متأوهاً، موجهاً كلامه إلى مجهول:

- خذني إليك، خذني أنا البائس! فقط امنحها طفلاً! لا أستطيع أن أنظر إليها. أعطها ولو طفلاً وحيداً. . ارأف بنا. . .

ونهض العجوز وهو يبكي ويترنح ويتشبث بالجدار حتى عثر على الباب. وخرج، وأغلقه خلفه، وهناك، خلف الباب انخرط في نحيب مكتوم وهو يسد فمه بقبضته.

ساءت حالة الصبي، وعاد يرتجف، تارة يشتعل بالحمى، وتارة يصطك من البرد. وأراد أن ينهض ويذهب إلى جده. ولكن ساقيه ويديه لم تطاوعه وضج رأسه بالألم. بينما كان العجوز يبكي خلف الباب، وفي الفناء عاد أروزكول الثمل إلى هياجه، وولولت الخالة بيكي بجنون، وكانت أصوات جول جمال والجدة تستعطفهما وترجوهما.

وتركهم الصبي إلى عالمه الخيالي.

وقف من جديد على شاطئ النهر السريع، وعلى الشاطيء الآخر، فوق الحصى وقفت المارال نفسها. وعندئذ توسل الصبي: «يا أمنا الغزالة أم القرون، أحضري للخالة بيكي مهداً على قرونك! أتوسل إليك أحضري لهما مهداً، فليكن لديها طفل». وجرى في الماء نحو

الغزالة أم القرون. ولم تغص قدماه في الماء، بيد أنه لم يقترب من الشاطئ الآخر كأنما كان يجري في محله. وكان طوال الوقت يتوسل إلى الغزالة الأم أم القرون ويستحلفها: «أحضري لهما مهدا على قرونك. اجعلي جدي لا يبكي، واجعلي العم أروزكول لا يضرب خالتي بيكي، واجعلي لهما طفلاً. سوف أحب الجميع، وسأحب العم أروزكول، لكن أعطيه طفلاً، أحضري لهما مهداً على قرونك! . .»

وخيل للصبي أن جرساً صغيراً رن بعيداً. وازداد الرنين ارتفاعاً. كانت تلك هي الأم الغزالة تجري في الجبال تحمل على قرونها مهد أطفال من خشب البتولا بجرس صغير. كانت الأم الغزالة أم القرون تركض على عجل. واقترب رنين الجرس أكثر فاكثر. . .

ولكن ما هذا؟ اتحد برنين الجرس أزيز محرك من بعيد. في مكان ما سارت شاحنة. وارتفع أزيز السيارة أقوى فأقوى وهو يزداد وضوحاً، بينما تراجع الجرس وخفت وتباعدت دقاته، وسرعان ما اختفى في هدير المحرك.

سمع الصبي السيارة وهي تدلف إلى الفناء وتقرقع من اصطدام المعدن بالمعدن. واندفع الكلب إلى الفناء الخلفي نابحاً. وللحظة لاح في النافذة انعكاس ضوء المصابيح ثم انطفأ تواً. وتوقف المحرك. واصطفقت أبواب كابينة السائق. ومر القادمون وهم يتحدثون بجوار النافذة التي يرقد خلفها الصبي، وكان يبدو من أصواتهم أنهم ثلاثة.

- سيد أحمد وصل،- دوى فجأة صوت جول جمال المبتهج وكان مسموعاً وقع خطواتها المسرعة للقاء زوجها.- لقد طال انتظارنا!

ورد عليها الغرباء:

- مرحبا!

وسأل سيد أحمد:

- وكيف أحوالكم؟

- لا بأس. نعيش. لماذا تأخرت هكذا؟

فقال سيد أحمد:

- بل قولي هذا من حظي. لقد وصلت إلى السوفخوز وأخذت أنتظر سيارة عابرة. ولو إلى جيليساي. وإذا بهم قادمون إلينا لنقل الخشب. الوادي مظلم، والطريق كما تعرفين.

وسأل أحد القادمين:

- وأين أروزكول؟ في البيت؟

فأجابت جول جمال حائرة:

- في البيت. مرض قليلاً. لا تقلقوا، اقضوا الليلة عندنا. لدينا مكان. تفضلوا.

وتقدموا. ولكنهم توقفوا بعد بضع خطوات.

- مرحبا يا اكسكال. مرحبا يا جدة.

كان الغرباء يسلمون على الجد مأمون والجدة. إذن فقد خجلا من الوافدين فاستقبلاهم في الفناء كما ينبغي أن تستقبل الغرباء. ربما يخجل أروزكول كذلك؟ لو أنه لا يجلب العار على نفسه وعلى الآخرين!

هدأ الصبي قليلاً. وعموماً فقد تحسنت حالته. خف الصداع عن السابق، حتى أنه فكر: ألا ينهض ويذهب ليتفرج على السيارة، ليرى كيف تبدو، بأربع عجلات أم بست؟ جديدة أم قديمة؟ وكيف تبدو المقطورة؟ ذات مرة، في هذا الربيع، قدمت إليهم في الكوردون شاحنة عسكرية.. بعجلات عالية، وكانت قصيرة الأنف كأنما قطعوه. وسمح السائق الجندي الشاب للصبي بالجلوس في الكابينة. شيء رائع! أما الضابط القادم، ذو الكتافيات الذهبية. فقد ذهب مع أروزكول إلى الغابة. فلماذا؟ لم يحدث شيء كهذا أبداً من قبل.

وسأل الصبي الجندي:

- ماذا، أتبحثون عن جاسوس؟

فضحك الجندي وقال:

- نعم، نبحث عن جاسوس.

فدمدم الصبي بحزن:

- أما نحن فلم يأت إلينا بعد أي جاسوس.

وقهقه الجندي:

- وما حاجتك إليه؟

- كنت أطارده وأقبض عليه.

- اوه، يا لك من همام! لكنك ما زلت صغيراً، فلتكبر أولاً.

وظل الصبي يتحدث مع السائق طوال الفترة التي قضاها الضابط ذو الكتافيات الذهبية مع أروزكول في الغابة.

قال الصبي:

- أنا أحب كل السيارات وكل السائقين.

فاستفهم الجندي:

- وما السبب؟

- لأن السيارات جيدة وقوية وسريعة. وتفوح منها رائحة البنزين اللذيذة. والسائقون.. لأنهم جميعاً شبان، وكلهم أبناء الغزالة أم القرون.

ولم يفهم الجندي فقال:

- ماذا؟ ماذا؟ أية أم بقرون؟

- وهل أنت لا تعرف؟

- كلا. لم أسمع قط بهذه الأعجوبة.

- ومن أنت؟

- أنا كازاخي، من قره غندة. درست في مدرسة المناجم.

- لا، ابن من أنت؟

- ابن ابي وأمي.

- وهما ابناء مَنْ؟

- أيضاً أبناء أبيهما وأمهما.

- وهما؟

- اسمع، هكذا يمكن السؤال بلا نهاية.

- أما أنا فابن أبناء أمنا الغزالة أم القرون.

- من قال لك هذا؟

- جدي.

فقال الجندي بشك وهو يهز رأسه:

- كلام غريب.

أثار اهتمامه هذا الصبي الكبير الرأس، المنتصب الأذنين، ابن أبناء الغزالة الأم أم القرون. إلا أن الجندي أحس بالحرج قليلاً عندما اتضح أنه لم يكن يعرف لا بداية أصله فحسب، بل ولا يعرف حتى جده السابع، الذي لا بد أن يعرفه كل إنسان. كان الجندي يعرف فقط أباه وجده وأبا جده. وماذا بعدهم؟

سأله الصبي:

- ألم يعلموك أن تحفظ الأسماء حتى الجد السابع؟

- لم يعلموني. وما الداعي؟ ها أنا ذا لا أعرف، ومع ذلك لا بأس، أعيش ولا أشكو.

- جدي يقول إن الناس إذا لم تذكر آباءهما فستفسد.

- من سيفسد؟ الناس؟

- نعم.

- ولماذا؟

- جدي يقول إنه ساعتها لن يخجل أحد من اعماله السيئة، لان

أولاده وأولاد أولاده لن يذكروه. ولن يصنع أحد أعمال الخير، لأن أحداً منهم لن يعرف ذلك على أي حال.

فقال الجندي بدهشة حقيقية:

- يا له من جد جدك هذا! جد طريف. إلا أنه يملأ رأسك بالكلام الفارغ. وأنت رأسك كبير... وأذناك تشبهان الرادار عندنا في ميدان التدريب. لا تسمع ما يقوله. إننا نسير نحو الشيوعية، ونحلق في الفضاء.. فماذا يعلمك؟ لو أخذناه عندنا في دروس التثقيف السياسي، لعلمناه فوراً. اسمع، عندما تكبر وتتعلم ارحل بعيداً عن جدك. إنه رجل جاهل غير متحضر.

فاعترض الصبي:

- كلا، لن أرحل إلى أي مكان بعيداً عن جدي أبداً. إنه طيب.

- حسناً، هذا ما تراه الآن، فيما بعد ستفهم.

تذكّر الصبي الآن، وهو يصغي إلى الأصوات، تلك السيارة العسكرية، وكيف أنه لم يستطع آنذاك أن يوضح للجندي جيداً لماذا يعتبر السائقون المحليون، أو على الأقل أولئك الذين كان يعرفهم، أبناء الغزالة الأم أم القرون.

كان الصبي يحدثه بالحقيقة. ولم يكن في كلامه أي اختلاق. ففي العام الماضي، في مثل هذا الوقت من الخريف، أو ربما في وقت متأخر عن ذلك قليلاً، جاءت سيارات السوفخوز إلى الجبال لتنقل الدريس. لم تمر بجوار الكوردون، بل انعطفت قبله بقليل مع الطريق إلى سهل «ارتشا» وصعدت إلى أعلى، حيث كانوا في الصيف قد حصدوا العشب لنقله في الخريف إلى السوفخوز. وعندما سمع الصبي هدير المحركات الذي لم يسبق له مثيل فوق جبل الحراسة، ركض إلى مفترق الطرق. كل هذه السيارات دفعة واحدة! واحدة تلو الأخرى. طابور كامل. وأحصاها فكانت خمس عشر سيارة.

كان الطقس على وشك التحول، ومن المتوقع أن يهطل الثلج بين يوم وآخر، وساعتها قل للدريس الوداع حتى العام القادم. ففي هذه الأماكن إذا لم تنقل الدريس في الوقت المناسب، فلا تحاول بعد ذلك حتى أن تفكر فيه. فلن تصل إليه. ويبدو أنهم تأخروا في السوفخوز إذ انشغلوا بشتى الأعمال، وعندما ضاق الوقت قرروا أن ينقلوا الدريس دفعة واحدة، بالسيارات كلها. ولكن هيهات!..

لم يكن الصبي يعرف ذلك، وعلى العموم فما شأنه به؟ راح فقط يجري بفرح وإلحاح ليستقبل كل سيارة ويجاريها قليلاً، ثم يستقبل السيارة التالية. وكانت الشاحنات كلها جديدة، بكبائن جمسلة وزجاج عريض. وفي الكبائن جلس فرسان شبان، كلهم بلا شوارب كأنما اختاروهم اختياراً، وفي بعض الكبائن كان يجلس شابان اثنان. كانوا ذاهبين لشحن الدريس وربطه. وبدوا جميعاً للصبي جميلي الوجوه، جسورين، مرحين. كما في الأفلام.

وعموماً لم يخطئ الصبي، فذلك ما كان في الواقع. كانت سيارات الشبان في حالة جيدة، فانطلقوا بها مسرعين، وعبروا المنحدر من جبل الحراسة على طريق حجري صلب. كان مزاجهم رائعاً، فالطقس لا بأس به، وعلاوة على ذلك يظهر هذا الولد الشقي من حيث لا تدري، فيركض لاستقبال كل سيارة وقد طار عقله من شدة الفرحة. فكيف إذن لا تضحك وتلوح له بيدك وتهدده مازحاً ليزداد مرحاً وشقاوة...

بل إن آخر شاحنة توقفت. وأطلّ من كابينتها شاب في زي جندي ومعطف بلا كتافيات وبدون عمرة عسكرية بل كان يرتدي «كسكتة»، كان هو السائق.

وغمز للصبي بعينيه محيياً وقال بحفاوة:

- مرحباً، ماذا تفعل هنا؟

فأجاب الصبي بشيء من الخجل:

- هكذا. . لا شيء.

- هل أنت حفيد الجد مأمون؟

- نعم.

- هذا ما ظننته. إنني أيضاً بوجي. وكل الشبان السائقين هنا بوجيون. ذاهبون لإحضار الدريس. البوجيون الآن لا يعرفون بعضهم بعضاً، لقد تفرقوا. . . بلغ جدك السلام. قل له إنك رأيت كولوبيك ابن تشوتباي. قل له إن كولوبيك عاد من الجيش ويعمل الآن سائقاً في السوفخوز. حسناً، وداعاً!- وأهدى للصبي وهو يودعه شارة عسكرية، طريفة جداً، تشبه الوسام.

زأرت السيارة كالنمر الجبلي، وانطلقت لتلحق بالأخريات. وأحس الصبي فجأة برغبة شديدة في الرحيل مع هذا الشاب البشوش الجسور ذي المعطف، مع هذا الأخ البوجي. ولكن الطريق كان قد أقفر، فعاد أدراجه إلى البيت. عاد فخوراً، ولكنه أخبر جده بذلك اللقاء. أما الشارة فعلقها على صدره.

في ذلك اليوم قبيل المساء هبّت فجأة رياح سان - تاش من هناك، من القمة الواقعة تحت السماء، وانقضت كالزوبعة. وطارت أوراق الشجر فوق الغابة وارتفعت كالعمود أعلى فأعلى، ثم اندفعت فوق الجبال يصحبها هدير. وفي لحظة خاطفة ساء الجو إلى درجة أصبح مستحيلاً معها أن تفتح عينيك. وعلى الفور هطل الثلج. ارتمى الظلام الأبيض على الأرض، وتمايلت الغابات، وهدر النهر. وهطل الثلج غزيراً عاصفاً.

وتمكنوا بعد جهد من إدخال الماشية في الحظيرة، وجمع بعض الأشياء في الفناء، وتمكنوا كيفما اتفق من نقل المزيد من الحطب إلى المنزل، وبعد ذلك لم يجرؤوا على مجرد الإطلال من البيت.

مستحيل في مثل هذه العاصفة الرهيبة المبكرة.

وقال الجد مأمون باستغراب وقلق وهو يشعل الموقد:

- ما معنى هذا يا ترى...

وظل طوال الوقت يصغي إلى صفير الريح، ويقترب من النافذة بين الحين والآخر.

وخلف النافذة اخذ الظلام الثلجي المدوّم يطبق بسرعة.

ودمدمت الجدة متذمرة:

- اجلس في مكانك واستقر! هل هذه أول مرة؟- وقلدته ساخرة - «ما معنى هذا يا ترى؟».. معناه أن الشتاء جاء.

- مرة واحدة هكذا، في يوم واحد؟

- ولم لا؟ هل يستأذنك؟ أراد الشتاء أن يأتي فأتى.

عوت المدخنة. وفي البداية أحس الصبي بالرهبة، كما أنه شعر بالبرد وهو يساعد جده في شؤون المنزل. ولكن سرعان ما اشتعل الحطب وانتشر الدفء، وفاحت في البيت رائحة الصمغ الحار ودخان الصنوبر، فهدأت نفس الصبي وسرى فيه الدفء.

وبعد ذلك تعشوا. ثم أووا إلى الفراش. أما في الفناء فاستمر الثلج يهطل ويدور، وعربدت الريح.

وفكر الصبي وهو يصغي إلى الأصوات خلف النافذة: «لا بد أن الجو مخيف في الغابة». وتملّكه الرعب عندما أخذت أصوات وصيحات ما تتناهى فجأة من الخارج. كان شخص ما ينادي أحداً، وشخص ما يرد النداء. في البداية ظن الصبي أن ذلك خيل اليه. فمن الذي يمكن أن يأتي في هذا الوقت إلى الكوردون؟ ولكن الجد مأمون والجدة أيضاً أصاخا السمع بترقب وقالت الجدة:

- هناك ناس.

فردّ العجوز بلا ثقة:

- نعم.

ثم اعتراه القلق: فمن أين جاؤوا في هذا الوقت؟ وراح يرتدي ملابسه على عجل. واستعجلت الجدة أيضاً. فنهضت وأشعلت المصباح. ولسبب ما شعر الصبي بالخوف فارتدى ملابسه على عجل. وفي تلك الأثناء اقترب الناس من البيت. أصوات كثيرة وأرجل كثيرة. وصر الثلج المتراكم تحت أقدام القادمين، وقرقعت أحذيتهم على أرضية الشرفة، ثم توالت دقاتهم على الباب:

- افتح يا اكسكال! إننا نتجمد من البرد.

- من أنتم؟

- لسنا غرباء.

وفتح مأمون الباب. ومع دوامات البرد والهواء والثلج اندفع إلى داخل البيت أولئك السائقون الشبان الذين مروا نهاراً متجهين إلى سهل «ارتشا» لجلب الدريس. كان الثلج يغطيهم. وعرفهم الصبي على الفور. وعرف فيهم كولوبيك ذا المعطف، والذي أهدى إليه الشارة العسكرية. كانوا يسحبون أحدهم من تحت إبطيه وكان يئن ويجرجر ساقه. وعلى الفور دب الهرج في المنزل.

وردد الجد مأمون والجدة في صوت واحد:

- ماذا جرى لكم؟

- فيما بعد، فيما بعد! هناك سبعة من رجالنا في الطريق. نخشى أن يضلوا. حسناً، اجلس هنا. التوت قدمه - قال كولوبيك بسرعة وهو يُجلس الشاب المتأوه على المصطبة بجوار الفرن.

فقال مأمون بعجلة:

- وأين هم رجالكم؟ سأذهب حالا وآتي بهم. وأنت اذهب بسرعة - قال للصبي - وقل لسيد أحمد أن يأتي بالمصباح بسرعة، المصباح الكهربائي.

اندفع الصبي خارجاً فاختنق. وحتى آخر حياته ظل يذكر تلك اللحظة الرهيبة. أطبق على زوره وحش خرافي مشعث، بارد مصفَّر وراح يمزقه. ولكنه لم يجبن. أفلت من مخالبه القابضة وركض إلى بيت سيد أحمد وهو يحمي رأسه بيديه. لم تكن المسافة تزيد على عشرين أو ثلاثين خطوة، ولكن خيل إليه أنه يركض إلى بعيد عبر العاصفة كالبطل الأسطوري المسرع إلى نجدة محاربيه. وامتلأ قلبه بالشجاعة والعزيمة. وبدا لنفسه مهولاً لا يهزم. وخلال المسافة التي قطعها إلى بيت سيد أحمد تمكن من القيام ببطولات ومآثر تبهر الانفاس. قفز عبر الهوات من جبل إلى جبل، وأعمل السيف في جحافل الأعداء، وأنقذ الكثيرين من الموت حرقاً وغرقاً. وطارد بطائرة مقاتلة نفاثة براية حمراء خفاقة وحشاً خرافياً مشعثاً أسود كان يفر من أمامه عبر الشعاب والصخور. وانطلقت مقاتلته النفاثة وراء الوحش كالرصاصة. وأطلق الصبي عليه رشاش طائرته صائحاً: «اضرب الفاشست!» وفي كل الأحوال كانت الغزالة الأم أم القرون حاضرة. كانت فخورة به. وعندما وصل الصبي إلى باب بيت سيد أحمد قالت له الغزالة الأم أم القرون: «والآن انقذ أبنائي، السائقين الشبان!» - «سأنقذهم يا أمنا الغزالة أم القرون، أقسم لك!» - قال الصبي بصوت مسموع ودق الباب.

- أسرع يا عم سيد أحمد، هيا ننقذ رجالنا! - أطلق الصبي هذه الكلمات بسرعة حتى أن سيد أحمد وجول جمال قفزا رعباً.

- ننقذ من؟ ماذا يحدث؟

- جدي قال أن تحضر المصباح الكهربائي بسرعة، سائقو السوفخوز ضلوا الطريق.

فسبه سيد أحمد:

- أيها الأحمق، هكذا كان يجب أن تقول، - وأسرع يستعد.

ولكن ذلك لم يغضب الصبي أبداً. فمن أين لسيد أحمد أن يعرف بالمآثر التي حققها حتى يصل إليهم وأي قسم أقسمه. ولم يشعر الصبي أيضاً بالحرج عندما عرف أن الجد مأمون وسيد أحمد قابلا السائقين السبعة بجوار الكوردون مباشرة وأحضراهم. ألم يكن من الجائز أن يحدث العكس؟ الخطر بسيط عندما يمر. . . وعموماً فقد عثروا على المفقودين، وأخذهم سيد أحمد إلى منزله. حتى أروزكول استضاف خمسة منهم للمبيت، فقد اضطروا إلى إيقاظه هو أيضاً. وازدحم الباقون في منزل الجد مأمون.

ولم تهدأ العاصفة في الجبال. وخرج الصبي إلى الشرفة، وبعد دقيقة لم يعد يعرف أين يمينه وأين شماله، وأين فوق وأين تحت. فقد عربد الليل العاصف. وهطل الثلج وتراكم حتى الركب. والآن فقط، بعد أن تم العثور على جميع سائقي السوفخوز، وبعد أن تدفأوا وزايلهم الخوف والبرد، استفسر الجد مأمون بحذر عما حدث لهم، رغم أنه كان من الواضح أن العاصفة دهمتهم في الطريق. وبينما مضى الشبان يحكون أخذ الجد والجدة يتنهدان:

- اوه، اوه. . .- كانا يبديان دهشتهما لما حدث ويحمدان الله، ضامين أيديهما إلى صدريهما.

وعاتبتهم الجدة وهي تصب لهم الشاي الحار:

- لبستم ملابس خفيفة يا أولادي. هل يجوز أن تذهبوا إلى الجبال بهذه الملابس؟ ما زلتم أطفالاً. . تريدون التشبه بابناء المدينة. لو انكم ضللتم الطريق لما جاء الصباح إلا وقد تجمدتم كالجليد، لا قدّر الله.

فأجابها كولوبيك:

- ومن كان يدزي أن هذا سيحدث؟ ولماذا نلبس ملابس ثقيلة. أن سياراتنا بها مدافئ في الداخل. فلتجلس كأنك في بيتك. وما

عليك إلا أن تمسك بالمقود. انظري إلى الطائرة، على أي ارتفاع تطير، حتى أن هذه الجبال تبدو من أعلى وكأنها تلال، ودرجة الحرارة خارج الطائرة أربعون تحت الصفر، أما في داخلها فالناس تجلس بالقمصان فقط...

كان الصبي راقداً على فروة بين السائقين. انحشر بجوار كولوبيك وراح يصغي إلى حديث الكبار بإنصات شديد. ولم يحدس أحد أنه كان سعيداً بهبوب هذه العاصفة المفاجئة التي أجبرت هؤلاء الرجال على البحث عن مأوى لديهم في الكوردون. وفي قرارة نفسه كان يود ألا تهدأ العاصفة أياماً طويلة، على الاقل ثلاثة أيام. فليبقوا هنا، فما أحلى الحياة معهم! وما أطرفها. واتضح أن الجد يعرف الجميع. وإن لم يعرف أحداً فلا بد يعرف أباه وأمه.

وقال الجد لحفيده، ولاح في نبرته شيء من التباهي:

- وهكذا، فقد رأيت إخوتك البوجيين. والآن عرفت من هم. انظر كيف هيئتهم! ما أطولهم فرسان هذه الأيام! فليهبكم الله العافية. إنني أذكر عندما جاؤوا بنا أثناء الحرب في شتاء عام اثنين وأربعين إلى مغنيتوغورسك للبناء...

وراح الجد يروي تلك القصة التي يعرفها الصبي جيداً، كيف صفوهم، هم جيش العمل الذين أحضروهم من شتى أنحاء البلاد، صفاً طويلاً حسب طول قاماتهم، واتضح أن جميع القيرغيزيين في نهاية الصف، فقد كانوا قصيري القامة. ونودي عليهم، ثم منحوا فترة راحة. وإذا بعملاق أحمر الشعر ضخم الجسم يقترب منهم، ويصيح بهم:

- من أين انتم؟ من منشوريا؟

وكان بينهم معلم عجوز، فأجابه:

- نحن قيرغيزيون. وعندما كنا نحارب المنشوريين غير بعيد عن

هنا، لم يكن هناك حتى مجرد ذكر لمغنيتوغورسك. وكانت قاماتنا طويلة مثلك. انتظر حتى ننتهي من الحرب وعندئذ سنكبر. . .

تذكّر الجد هذه الواقعة البعيدة. وتطلع مرة أخرى إلى ضيوفه الليليين وهو يضحك بسرور.

- كان ذلك المعلم على حق. فعندما أذهب إلى المدينة أو في الطريق أتأمل الناس فأراهم أصبحوا جميلي الوجوه، طوال القامة. ليس كما كانوا في الماضي. . .

وابتسم الشبان ابتسامة تدل على أنهم يفهمون أن العجوز يهوى الثرثرة والمزح.

وقال أحدهم:

- صحيح أننا طوال، ولكننا أوقعنا السيارة في خندق الطريق، واجتمعنا كلنا فلم تسعفنا قوانا لانتشالها. . .

فقال الجد مأمون مهوّناً عليهم:

- هذا صعب. فالسيارة محملة بالدريس، وفي مثل هذه العاصفة. لا بأس. إن شاء الله نسوي الأمر غداً. المهم أن تهدأ الريح.

وروى الشبان للجد كيف وصلوا إلى المحصد العلوي في «ارتشا»، حيث قامت ثلاثة أكوام كبيرة من الدريس الجبلي. وبدأوا الشحن من الأكوام الثلاثة دفعة واحدة. وجعلوا الأحمال عالية، أعلى من المنزل بحيث كانوا يضطرون إلى استخدام الحبال للنزول من فوقها. وهكذا شحنوا سيارة تلو سيارة. ولم تظهر من السيارات حتى الكبائن، بل الزجاج الأمامي وغطاء المحرك والعجلات فقط. لقد أرادوا - طالما جاؤوا - أن ينقلوا الدريس كله بحيث لا يعودون ثانية. فقد كانوا يعرفون أنه إذا تبقى شيء من الدريس فسيظل هناك حتى العام القادم. عملوا بنشاط. وكان السائق الذي تشحن سيارته يقودها جانباً ويتركها ليشارك في شحن السيارة التالية. وشحنوا الدريس كله تقريباً،

لم يتبق إلا حملان لا أكثر. ثم استراحوا قليلاً، واتفقوا على نظام السير، وتحركوا قافلة. ساروا بحذر، وكانوا يتحسسون الطريق وهم يهبطون من الجبال. فالدريس ليس حملاً ثقيلاً، ولكنه غير مريح، بل وخطر، وخاصة في الأماكن الضيقة وفي المنعطفات الحادة.

ساروا وهم لا يفطنون إلى ما ينتظرهم.

وهبطوا من هضبة «ارتشا» وساروا عبر الشعب. وعند المخرج من الشعب، وكان الوقت قبيل المساء، هبت العاصفة وهبط الثلج.

وقال كولوبيك:

- وعندها كان ما كان. حدث ما جعل العرق يتصبب غزيراً. خيم الظلام فجأة، والريح تكاد تقتلع عجلات القيادة من أيدينا. وتخشى أن تنقلب السيارة بين لحظة وأخرى. وفوق ذلك هذا الطريق الخطر حتى في النهار...

أصغى الصبي وهو لا يكاد يتنفس أو يتحرك، ولم يحول عينيه البراقتين عن كولوبيك. الريح نفسها والثلوج نفسها التي دار عنها الحديث كانت تعربد خلف النافذة. وكان كثير من السائقين والحمالين قد ناموا ممددين على الأرض في ثيابهم وأحذيتهم - وكا ما عانوه أصبح يعانيه الآن من جديد هذا الصبي الكبير الرأس ذو العنق النحيل والأذنين المنتصبتين.

بعد بضع دقائق غاب الطريق عن البصر. وسارت السيارات كل منها تمسك بالأخرى كما يمسك العميان بمن يقودهم، وتطلق طول الوقت أبواقها حتى لا تنحرف إحداها عن الطريق. وكان الثلج يهطل كالجدار ويتراكم على المصابيح، وعجزت المساحات عن مسح الجليد عن الزجاج. فاضطروا إلى قيادة السيارات، وقد أطلوا بأجسادهم من الكبائن. ولكن هل يمكن السير هكذا؟ بينما استمر الثلج يهطل... وبدأت العجلات تدور في مكانها. وتوقفت القافلة

أمام مصعد حاد، وزأرت محركات السيارات بجنون.. ومن دون فائدة... وقفز السائقون من الكبائن وأخذوا يركضون من سيارة إلى أخرى مسترشدين بالأصوات حتى تجمعوا عند مقدمة الطابور. ما العمل؟ من المستحيل إشعال النار. وإذا جلسوا في الكبائن ينتظرون فمعناه أن يحرقوا بقية الوقود الذي لا يكاد يكفي الآن للوصول إلى السوفخوز. وإذا لم يدفئوا الكبائن فما أسهل أن يتجمدوا. وارتبك الشبان. فقد وقفت الآلات الجبارة عاجزة. فما العمل؟ اقترح أحدهم تفريغ الدريس من إحدى السيارات والاختباء فيه. ولكن كان واضحاً أنه ما أن تفك رباط الحمل حتى لا يبقى عود من الدريس، ستبدده العاصفة في غمضة عين. وفي تلك الأثناء أخذ الثلج يتراكم فوق السيارات، وارتفعت أكوامه تحت العجلات. ارتبك الشبان تماماً وكادوا يتجمدون من البرد وهم واقفون في الريح.

ومضى كولوبيك يروي للجد مأمون:

- وفجأة تذكرت يا أكسكال أنه عندما كنا ذاهبين إلى أرتشا قابلت هذا الأخ البوجي الصغير - وأشار إلى الصبي ومسد شعره برقة. - كان يجري قرب الطريق. وتوقفت أنا.. كيف لا، وسلمت عليه. وتحدثنا. أليس كذلك؟ لماذا لا تنام؟

هز الصبي رأسه وهو يبتسم. وآه لو علم من حوله بالفرحة والفخار اللذين جعلا قلبه يدق بهذه الحرارة والعنف. لقد كان كولوبيك نفسه يتحدث عنه. كولوبيك أقوى هؤلاء الشبان وأشجعهم وأجملهم. لو يستطيع أن يصبح مثله!

وأثنى الجد على الصبي وألقى في النار حطباً:

- هكذا هو. يحب سماع الأحاديث. انظر كيف نصب أذنيه!

ومضى كولوبيك يقول:

- كيف تذكرته فجأة في تلك اللحظة، لا أعرف! فقلت للأولاد،

صرخت تقريباً، إذ كانت الريح تصم الآذان: «هيا بنا نذهب إلى الكوردون. وإلا فسنهلك هنا». فصاح الأولاد في وجهي تماماً: «وكيف نذهب؟ لن نصل سيراً على الأقدام، ولا يمكننا أن نترك السيارات».

فقلت لهم: «هيا ندفع السيارات إلى الجبل، ومن هناك ستنحدر مع الطريق. المهم أن نصل إلى وادي سان- تاش فقط، ومن هناك نستطيع أن نبلغ حراس الغابة على الأقدام، فليسوا بعيدين». ووافق الأولاد وقالوا: «هيا تولّ القيادة». حسناً، ما دام الأمر هكذا... وبدأنا بالسيارة الأمامية: «اركب يا عثمان علي في الكابينة» ودفعنا جميعاً السيارة بأكتافنا. وتحركت! في البداية سارت الأمور جيداً، ولكن قوانا خارت تماماً بعد ذلك. ولا نستطيع أن نتراجع. وخيل إلينا أننا لا ندفع إلى الأعلى السيارة بل جبلاً كبيراً. فأي حمل، كوم دريس على عجل! لم أشعر بشيء سوى أنني فقط أصيح بكل قواي: «هيا، هيا، هيا!» ولكني لا أسمع صوتي. والريح والثلوج تعصف فلا ترى شيئاً. والسيارة تعول، وتبكي كأنها مخلوق حي. وتتسلق بآخر قواها. ونحن بجوارها. ويخيل إليك أن قلبك سينفجر الآن ويتطاير شظايا. والرأس يدور...

فقال الجد مأمون متأوهاً:

- آه، آه، آه! يا لكم من مساكين. أكيد أن الغزالة أم أم القرون حمتكم، أنتم ابناءها. أنقذتكم. وإلا فمن كان يدري... أتسمع؟ العاصفة لا تهدأ في الخارج، ما زالت تدور وتعصف...

كانت جفون الصبي تنطبق، فيقاوم النعاس ولكن جفونه تعود تنطبق. وأخذ سمعه وهو بين النوم واليقظة يلتقط مقاطع من حديث العجوز وكولوبيك، فاختلطت في وعيه الحقائق بصور الخيال. خيل إليه أنه هو أيضاً بين أولئك الشبان الذين فاجأتهم العاصفة في الجبال.

وتبدى لناظريه طريق صاعد بشدة نحو جبل ثلجي ناصع البياض. والصقيع يلسع خديه، ويخز عينيه. وكانوا يدفعون إلى أعلى سيارة ضخمة، بحجم البيت، محملة بالدريس. صعدوا ببطء شديد. ولكن الشاحنة توقفت ثم بدأت تتراجع. شيء رهيب! والعتمة شديدة، والريح لاسعة. انكمش الصبي رعباً، كان يخشى أن تنحدر السيارة وتسحقه. وإذا بالغزالة الأم أم القرون تظهر فجأة. ركزت قرونها في السيارة وأخذت تساعدهم في دفعها إلى أعلى. وصاح الصبي: «هيا، هيا!». فتحركت السيارة. وصعدوا إلى الجبل، ثم انحدرت السيارة من تلقاء نفسها مع الطريق. ثم مضوا يدفعون السيارة الثانية، فالثالثة، فسيارات أخرى كثيرة. وفي كل مرة كانت الغزالة الأم أم القرون تساعدهم. لم يرها أحد، ولم يعرف أحد أنها بجوارهم. ولكن الصبي كان يرى ويعرف. في كل مرة، عندما يشق عليهم ويستولي عليهم الخوف من أن قواهم لن تسعفهم، كان يرى كيف تأتي الغزالة الأم أم القرون راكضة فتساعدهم بقرونها على دفع السيارة إلى أعلى. ويصيح الصبي: «هيا، هيا، !». وكان طوال الوقت إلى جانب كولوبيك. ثم قال له كولوبيك: «اجلس إلى المقود». فجلس الصبي في الكابينة. وارتعشت السيارة وأزت. ودار المقود في يديه بسلاسة، من تلقاء نفسه، كطوق البرميل الحديدي الذي كان يلعب به لعبة السيارة وهو طفل صغير. وشعر الصبي بالخجل من أن المقود أصبح في يديه كاللعبة. وفجأة أخذت السيارة تميل وتسقط على جنبها. ثم سقطت محدثة دوياً، وتحطمت. وبكى الصبي بصوت عال. أحس بالخجل الشديد. خجل من النظر إلى عيني كولوبيك.

- ماذا بك؟ ماذا بك؟ - أيقظه كولوبيك.

وفتح الصبي عينيه. وفرح عندما رأى أن ذلك كان حلماً. أما كولوبيك فقد رفعه على ذراعيه وضمه إليه:

- ماذا، حلمت؟ خفت؟ يا لك من بطل! - وقبّل الصبي بشفتيه الخشنتين. - حسناً هيا أرقدك، ينبغي أن تنام.

أرقد الصبي على الأرض فوق الكليم بين السائقين النائمين، ورقد بجواره، وقربه منه حتى صار في كنفه، وغطاه بطرف المعطف.

في الصباح الباكر أيقظ الجد الصبي:

- استيقظ - قال له بصوت خافت. - أثقل من ملابسك. ستساعدني. قم.

كان غبش الصباح قاتماً عبر النافذة. وفي البيت كان السائقون راقدين مكومين.

وقال الجد مأمون:

- خذ، البس الحذاء اللباد.

كانت رائحة الدريس الطازج تفوح من الجد. إذن فقد أطعم الخيول. وارتدى الصبي الحذاء اللباد وخرج مع جده إلى الفناء. كان الثلج أكواماً. ولكن الريح هدأت، اللهم إلا هبات قليلة فوق سطح الأرض.

وارتجف الصبي قائلاً:

- برد!

فدمدم الجد:

- لا بأس. يبدو أن الجو سيتحسن. يا سلام، أمن أول مرة ينقلب هكذا! طيب، المهم ألا ينتهي بسوء...

ذهبا إلى المعلف حيث توجد خمس نعاج ملك لمأمون. وتحسس العجوز بيده العمود حتى وجد المصباح عليه فأشعله. وأطلت النعاج من الركن ونفضت أجسادها.

وقال العجوز للصبي وهو يناوله المصباح:

- امسك، سوف تضيء لي. سنذبح الشاة السوداء. فالبيت مليء بالضيوف. علينا أن نعد اللحم قبل أن يستيقظوا.

أضاء الصبي بالمصباح لجده. وكانت الريح لا تزال تصفر في الشقوق والجو لا يزال معتماً بارداً في الخارج. وفي البداية ألقى العجوز بحزمة من الدريس النظيف عند المدخل. وسحب الشاة السوداء إلى هذا المكان وقبل أن يرقدها ويوثق قوائمها توقف مفكراً ثم جلس القرفصاء.

وقال للصبي:

- ضع المصباح. اجلس أنت أيضاً.

وراح يتمتم وقد بسط راحتيه أمام وجهه:

- يا والدتنا العظيمة، يا أمنا الغزالة أم القرون. أقدم لك هذه الشاة السوداء ضحية. تقديراً لإنقاذ أبنائنا ساعة الخطر. ولِلَبَنكِ الأبيض الذي أرضعته أسلافنا، ولقلبك الطيب، ولعينك الساهرة. لا تتركينا في الممرات، وفي الأنهار الهادرة، وفي الدروب الزلقة. لا تتركينا في أرضنا أبد الآبدين، نحن أبناءك. آمين!

ومسح وجهه هابطا براحتيه من الجبهة إلى الذقن مسحة الدعاء. وفعل الصبي مثله. وعندئذ أرقد الجد الشاة على الأرض وأوثق قوائمها. وأخرج خنجره الآسيوي القديم من غمده.

وأضاء الصبي له بالمصباح.

أخيراً هدأ الجو. أطلت الشمس بذعر مرتين أو ثلاث من خلال الفجوات بين السحب الراكضة. وكانت آثار الليلة العاصفة الماضية في كل مكان: أكوام الثلج المائلة، والخمائل المهروسة، والأشجار الفتية المحنية كالأقواس تحت ثقل الثلوج، والأشجار العتيقة المقلوبة. وكانت الغابة وراء النهر تقف صامتة، ساكنة وتلوح حزينة. أما النهر

فكأنما غاص إلى أسفل وارتفعت ضفافه من الثلج المتراكم وأصبحت أشد انحداراً. وخفت خرير المياه.

ولم تستقر الشمس على حال، فكانت تظهر تارة، وتختفي تارة أخرى.

ولكن شيئاً من ذلك لم يعكر صفاء الصبي أو يثر قلقه. نسي هموم الليلة الماضية، ونسي العاصفة، أما الثلج فلم يعقه، بالعكس كان هكذا أطرف. راح يجري هنا وهناك وكتل الثلج الصغيرة تتطاير من تحت قدميه. كان فرحاً لأن البيت يعجّ بالناس، ولأن الشبان استيقظوا وأخذوا يتحدثون بصوت عال ويضحكون، ولأنهم أكلوا بشهية لحم الضأن الذي أعد لهم.

وفي تلك الأثناء بدأت الشمس تستقر. أصبحت تسطع أنقى وأطول. وتفرقت السحب شيئاً فشيئاً. بل إن الجو صار دافئاً. وأخذ الثلج المبكر يترسب بسرعة، خاصة على الطرق والدروب.

صحيح أن الصبي اعتراه القلق عندما بدأ السائقون والحمالون يستعدون للرحيل. خرجوا جميعا إلى الفناء، وودعوا اصحاب الكوردون وشكروهم على إيوائهم وإطعامهم. ورافقهم على الخيول الجد مأمون وسيد أحمد. وحمل الجد معه حزمة حطب وحمل سيد أحمد صفيحة كبيرة لتسخين الماء للمحركات المتجمدة.

وتحرك الجميع من الفناء.

وركض الصبي إلى جده:

- يا جدي، خذني معك، أريد أن أذهب.

- ألا ترى أني أحمل الحطب، وسيد احمد يحمل الصفيحة. لا أحد يستطيع أن يأخذك. وما الداعي لذهابك؟ ستتعب من الخوض في الثلوج.

غضب الصبي وعبس. وعندئذ أخذه كولوبيك.

قال له وهو يأخذ بيده:

- هيا معنا. وفي العودة سترجع مع جدك.

وذهبوا إلى مفترق الطرق، إلى المكان الذي كان ينحدر نحوه الطريق المفضي من محصد «أرتشا». كان الثلج لا يزال كثيفاً على الطريق. ولم يكن من السهل مجاراة هؤلاء الشبان الأقوياء في السير. وبدأ الصبي يشعر بالتعب.

فقال له كولوبيك:

- تعال، هيا اركب على ظهري.

وأمسك بيد الصبي، وبمهارة ألقى به خلف كتفيه. حمله بطريقة معتادة وكأنه كان يحمله على ظهره كل يوم.

وقال السائق السائر بجواره:

- ما أشطرك يا كولوبيك في هذا.

فرد كولوبيك متفاخراً:

- طوال عمري وأنا أحمل إخوتي وأخواتي. كنا ستة وكنت الأكبر، وأمي تعمل في الحقل، وأبي أيضاً. والآن أصبح لاخواتي أولاد. وعندما عدت من الجيش، أعزب، لم التحق بعد بالعمل، قالت لي أكبر أخواتي: «تعال وعش عندنا، فأنت شاطر في تربية الأطفال». فقلت لها: «لا، كفاني! الآن سأحمل ابنائي أنا...»

وهكذا ساروا وهم يتحدثون في شتى الأمور. وكان الصبي يشعر بالراحة والطمأنينة وهو راكب على ظهر كولوبيك القوي. وراح الصبي يحلم: «لو أن لي أخاً مثله! ما كنت أخشى أحداً. وليحاول أروزكول عندئذ أن يصيح بوجه جدي أو يلمس أحداً، كانت نظرة غاضبة من كولوبيك تجعله ينكمش فوراً».

كانت السيارات المحملة بالدريس والتي تركوها ليلة الأمس تقف

على بعد حوالى كيلومترين إلى أعلى مفترق الطرق. وكانت تشبه وهي مدفونة في الثلج أكوام الدريس شتاء في الحقول. وبدا أنه لن يكون في وسع أحد أبداً أن يزحزحها من اماكنها.

ولكن ها هم قد اشعلوا النار. وسخنوا الماء وبدأوا يديرون المحرك بذراع التشغيل، فدبت الحياة فيه، وعطس، ثم دار. وبعد ذلك سارت الامور أسرع. أداروا كل سيارة بعد ذلك بالسحب. فكانت السيارة الدائرة الساخنة تقطر السيارة التي تقف خلفها في الطابور.

وبعد أن دارت جميع الشاحنات قامت شاحنتان بسحب تلك التي سقطت ليلاً في خندق الطريق. وساعدها كل الحاضرين على الصعود إلى الطريق. والصبي أيضاً وقف في الطريق وأيضاً ساعد. كان طوال الوقت يخشى أن يقول له أحدهم: «ما لك تتسكع هنا بين الأقدام؟ هيا ابتعد، امشِ من هنا!». ولكن لم يقل له أحد ذلك ولم يطرده. ربما لأن كولوبيك سمح له بالمساعدة. وهو هنا أقواهم، وكلهم يحترمونه.

وودعهم السائقون مرة أخرى. وتحركت السيارات. في البداية ببطء، ثم بعد ذلك أسرع. وامتدت قافلتها على الطريق بين الجبال المكسوة بالثلوج. لقد رحل أبناء الغزالة الأم أم القرون. رحلوا وهم لا يعرفون أن الغزالة الأم أم القرون كانت تركض أمامهم على الطريق وهي لا تُرى. هكذا شاء خيال الصبي. كانت تركض بقفزات طويلة سريعة في مقدمة قافلة السيارات. تحرسهم من المصائب والبلايا في طريقهم الشاق. تحميهم من الانهيالات وانهيارات الثلوج، ومن العواصف، والضباب، وغيرها من الاخطار التي ذاق القيرغيزيون منها الأمرّين طوال قرون من حياتهم المتنقلة. ألم يكن هذا هو ما طلبه الجد مأمون من الغزالة الأم أم القرون عندما قدم لها الشاة ضحية ساعة الفجر؟

رحلوا. ورحل الصبي أيضاً معهم. بخياله. كان جالساً في الكابينة مع كولوبيك. وقال له: «يا عم كولوبيك، أتدري أن الغزالة الأم أم القرون تركض أمامنا على الطريق؟» - «ماذا تقول؟»- «صحيح. أقسم بشرفي، ها هي!».

وأفاق على صوت الجد مأمون:

- فيم تفكر؟ ما لك واقف؟ اركب، هيا بنا. - وانحنى من فوق الحصان ورفع الصبي إلى السرج. - هل أنت بردان؟- قال العجوز وغطى الصبي جيداً بأطراف معطفه.

لم يكن الصبي آنذاك قد دخل المدرسة.

والآن، عندما كان يستيقظ بين الحين والآخر من نومه المرهق، يروح يفكر في قلق: «كيف سأذهب غداً إلى المدرسة؟ لقد مرضت، وحالتي سيئة...» ثم يغيب عن الوعي. ويخيل إليه أنه ينقل إلى دفاتره الكلمات التي خطتها المدرسة على السبورة: «أت. أتا. تاكا»(*). يملأ دفتره كله، صفحة تلو صفحة بهذه التمرينات الكتابية لتلميذ الصف الأول. «أت، أتا. تاكا، أت. أتا. تاكا». ثم يتعب، وتهتز في عينيه المرئيات، ويحس بالحر، بالحر الشديد، فيزيح عنه الغطاء ويتعرى. وعندما يرقد عارياً ويبرد، تعاوده من جديد شتى الأحلام. فتارة يسبح سمكة في نهر بارد المياه، متجهاً إلى السفينة البيضاء دون أن يتمكن أبداً من الوصول. وتارة تداهمه العاصفة الثلجية. وفي الزوبعة الدخانية الباردة تدور «على الفاضي» عجلات السيارات المحملة بالدريس على طرق صاعد بشدة إلى الجبل. وتعول السيارت كما يعول البشر، ومع ذلك لا تتحرك من مكانها. وتدور

(*) حصان، أب، حدوة (بالقيرغيزية).

العجلات بسرعة جنونية وتصبح حمراء نارية. وتشتعل العجلات ويتصاعد منها اللهب. وتركز الغزالة الأم أم القرون قرونها في صندوق السيارة وتدفعها بحمل الدريس إلى الجبل. والصبي يساعدها بكل قواه. ويتصبب عرقاً حاراً غزيراً. وفجأة يتحول الحمل إلى مهد أطفال. وتقول الغزالة الأم للصبي: «فلنركض بسرعة، ولنحمل المهد إلى الخالة بيكي والعم أروزكول». وينطلقان. ويتخلف الصبي عنها. ولكن جرس المهد يظل يرن في الأمام، في الظلام. ويركض الصبي على نداء رنينه.

استيقظ على وقع خطوات في الشرفة ثم صر الباب. عاد الجد مأمون والجدة وكأنما كانا أهدأ قليلاً. يبدو أن وصول غرباء إلى الكوردون اضطر أروزكول والخالة بيكي إلى التزام الهدوء. أو ربما تعب أروزكول من السكر ونام أخيراً. لم يُسمع في الفناء صراخ أو سباب.

وحوالي منتصف الليل صعد القمر فوق الجبال. وتعلق قرصاً ضبابياً فوق أعلى قمة جليدية. تسامى هذا الجبل المكبل بالجليد الدائم في الظلام، ولمعت كشبح أضلاعه غير المستوية. ومن حوله استقرت في صمت مطبق الجبال والصخور والغابات السوداء الجامدة، وهناك في الأسفل تماماً تدفق النهر بصخب مصطدماً بالأحجار.

وسقط ضوء القمر الشاحب تياراً مائلاً على النافذة. وأزعج هذا الضوء الصبي، فراح يتقلب ويزر عينيه. وأراد أن يطلب من جدته أن تسحب الستارة على النافذة، ولكنه عدل. . . فقد كانت جدته غاضبة على جده.

همست وهي تأوي إلى الفراش:

- يا أحمق، إذا كنت لا تعرف كيف تعيش بين الناس، فلتصمت على الأقل، ولتسمع كلام الآخرين. مصيرك بين يديه. وراتبك يأتيك

عن طريقه. ليكن قليلاً. ولكنه كل شهر. ومن تكون بدون راتب؟ عجوز مخرف...

لم يردّ العجوز. وصمتت الجدة. ثم قالت فجأة بصوت عال غير متوقع:

- إذا أخذوا من الرجل راتبه لا يعود رجلاً. يصبح لا شيء.

ومرة ثانية لم يرد العجوز.

أما الصبي فلم يستطع أن ينام. انتابه صداع في رأسه واختلطت أفكاره. كان يفكر في المدرسة ويقلق. لم يكن قد غاب عن المدرسة بعد يوماً واحداً، ولا يستطيع الآن أن يتصور ماذا يفعل إذا لم يتمكن غداً من الذهاب إلى مدرسته في جيليساي. وفكر الصبي أيضاً في أنه لو طرد أروزكول جده من العمل فإن الجدة ستسمم حياة العجوز. فماذا يفعلان إذن؟

لماذا يعيش الناس هكذا؟ ولماذا بعضهم شرير وبعضهم طيب؟ لماذا يوجد سعداء وتعساء؟ لماذا يوجد أناس يخشاهم الجميع، وأناس لا يخشاهم أحد؟ لماذا يوجد لدى البعض أطفال ولدى البعض الآخر لا يوجد؟ ولماذا يمكن لبعض الناس أن يمنعوا الراتب عن الآخرين؟ ربما كان أفضل الناس هم أولئك الذين يتقاضون أكبر راتب. ولكن الجد يتقاضى قليلاً، والجميع يهينونه. آه، لو أمكن تدبير الأمر بحيث يحصل الجد على راتب أكبر! ربما بدأ أروزكول عندها يحترم الجد.

وبسبب هذه الأفكار ازدادت وطأة الصداع. وتذكر من جديد المارال التي رآها قبيل المساء عند مخاضة النهر. ترى كيف حالها الآن في الليل؟ إنها وحدها في الجبال الصخرية الباردة، في الغابة السوداء المطبقة. يا للرعب! وماذا لو هاجمتها الذئاب؟ من إذن سيأتي للخالة بيكي بالمهد السحري على قرونه؟

وراح في سبات قلق، وقبل أن ينام توسل إلى الغزالة الأم أم

القرون أن تأتي لأروزكول وللخالة بيكي بمهد من خشب البتولا. واستحلف الغزالة الأم أم القرون: «فليكن لديها أطفال، فليكن لديها أطفال!». وسمع رنين جرس المهد يتناهى من بعيد. كانت الغزالة الأم أم القرون تركض مسرعة حاملة على قرونها مهداً سحرياً...

(٧)

في الصباح الباكر استيقظ الصبي من لمسة يد. كانت يد الجد باردة فقد جاء من الخارج. وانكمش الصبي لاإرادياً.

- ارقد، ارقد. - قال الجد، وأدفأ راحته بأنفاسه وتحسس جبين الصبي، ثم صدره وبطنه، وقال بحزن- يبدو أنك مرضت. عندك حمى. أما أنا ففكرت: ما له راقد؟ حان موعد المدرسة.

- حالاً، سأنهض، - ورفع الصبي رأسه فدار كل شيء أمام عينيه، وأحس بطنين في أذنيه.

لكن الجد أرقد الصبي على الوسادة:

- إياك حتى أن تفكر في هذا، من الذي يأخذك إلى المدرسة وأنت مريض؟ هيا أرني لسانك.

وحاول الصبي أن يصر على موقفه:

- المدرّسة ستغضب. إنها لا تحب أن يتخلف أحد عن المدرسة...

- لن تغضب. سأخبرها بنفسي. هيا، أرني لسانك.

تفحص الجد باهتمام لسان الصبي وبلعومه. وبحث طويلاً عن نبضه: وبأعجوبة استطاعت أصابعه الخشنة المتخشبة من العمل الشاق أن تلمس نبضات القلب في يد الصبي الساخنة المبللة بالعرق. وقال مهدئاً بعد أن تأكد من شيء ما:

- الحمد لله. مجرد برد بسيط. البرد دخل جوفك. ارقد اليوم في السرير، وقبل النوم سأدهن لك قدميك وصدرك بدهن الخروف فتعرق، وإن شاء الله تنهض غداً كالحمار الوحشي.

وتذكر العجوز ما حدث بالأمس وما ينتظره اليوم فدهمته الكآبة وهو جالس في فراش حفيده، وتنهد واستغرق في التفكير، ثم همس زافراً «منه لله!»

وخاطب الصبي:

- متى مرضت؟ لماذا لم تقل؟ هل كان مساء؟

- نعم، قرب المساء. عندما رأيت المارال عند النهر. جئت ركضاً إليك. ثم احسست بالبرد.

ولسبب ما قال العجوز بنبرة مذنبة:

- طيب، لا بأس.. نم أنت، إنني ذاهب.

ونهض، ولكن الصبي أمسك به:

- يا جدي، أمنا الغزالة أم القرون كانت هناك بنفسها، أليس كذلك؟ تلك البيضاء كاللبن، عيونها كبيرة، وتنظر كالبشر...

فابتسم مأمون بحذر:

- أيها الأحمق الصغير... طيب، ليكن كما تريد. - وقال بصوت مكتوم - ربما كانت هي.. أمنا الغزالة المقدسة، من يدري؟.. أما أنا فأظن...

ولم يكمل العجوز كلامه، فقد ظهرت الجدة في الباب. كانت قادمة من الفناء على عجل، يبدو أنها استكشفت شيئاً ما.

وقالت وهي على العتبة:

- هيا يا شيخ، اذهب إلى هناك. - وعلى الفور ذهل مأمون عند سماعه هذه الكلمات وأصبح بائساً ذليلاً. - إنهم يريدون سحب

الجذع من النهر بالسيارة. هيا اذهب، افعل كل ما يأمرونك به. . . أوه يا الهي لم أغل اللبن بعد - تذكرت العجوز وأسرعت تشعل الموقد وهي تقرقع بالأوعية.

عبس العجوز. أراد أن يعارض ويقول لها شيئاً ما. إلا أن الجدة لم تدع له فرصة ليفتح فمه.

قالت ثائرة:

- ما لك، لماذا تحملق هكذا؟ ما هذا العناد؟ لسنا نحن مَنْ يعاند، آه من حظي البائس! من أنت حتى تقف ضدهم؟ انظر أي رجال جاؤوا إلى أروزكول. انظر إلى سيارتهم. تستطيع حمل عشرة جذوع والسير بها في الجبال. أروزكول حتى لا يلتفت إلينا. كم استعطفته. كم تذللت إليه. لكنه لم يسمح لابنتك بدخول البيت. إنها جالسة عند سيد أحمد، ابنتك العاقر. بكت حتى كادت تعمى. . وتلعنك، تلعن أباها الأحمق. . .

- كفى، كفى! . .- لم يطق العجوز صبراً. وقال لها وهو يتجه إلى الباب: - اعطيه لبناً ساخناً، الولد مرض. . .

- سأعطيه، سأعطيه لبناً ساخناً، اذهب أنت لأجل الله. - ومضت تدمدم بعد أن شيعت العجوز. - ماذا جرى له فجأة؟ لم يعارض أحداً أبداً، كان لا صوت له ولا حركة، وفجأة يفعل هذا! وعلاوة على ذلك يركب حصان أروزكول، بل ويرمح به. كل هذا بسببك،- ورمت الصبي بنظرة نارية.- لو كان هناك من يستحق أن يعرّض نفسه من اجله للمتاعب. . .

ثم أحضرت للصبي لبناً ساخناً بسمن بلدي أصفر مسيّح. ولسع اللبن شفتيه. ولكن الجدة أصرّت وضغطت عليه:

- اشرب، اشربه وهو ساخن، لا تخف. البرد لا يطرده إلا الساخن.

وكوى اللبن الصبي، وطفرت الدموع من عينيه، وفجأة أصبحت الجدة طيبة:

- طيب، برِّده، برده قليلاً. . .- وتنهدت - يا إلهي، أتمرض في هذا الوقت!

كان الصبي يريد أن يتبول منذ وقت طويل. ونهض وهو يشعر في جسده كله بضعف غريب لذيذ. ولكن الجدة سبقته:

- انتظر، سآتيك بالطست.

استدار الصبي محرجاً وأطلق شلالاً في الطست، وقد أخذته الدهشة من أن بوله كان إلى هذه الدرجة أصفر، ساخناً.

وأحس بأنه أفضل كثيراً، وخف الصداع.

رقد الصبي في الفراش في هدوء، شاكراً لجدته معروفها، وفكر بأنه يجب أن يشفى حتى الصباح ولا بد أن يذهب إلى المدرسة. وفكر أيضاً في أنه سيخبرهم في المدرسة عن المارال الثلاثة التي ظهرت في غابتهم، وأن انثى المارال الوالدة البيضاء هي بالذات أمنا الغزالة أم القرون، وأن معها ولدها، وهو كبير ومتين الجسم، ومعها مارال بني عملاق بقرون ضخمة، وهو قوي، يحمي الغزالة الأم أم القرون وولدها من الذئاب. وفكر في أنه سيخبرهم أيضاً بأنه إذا بقيت المارال عندهم ولم ترحل فسوف تأتي الغزالة الأم أم القرون قريباً للعم أروزكول والخالة بيكي بمهد سحري.

أما المارال فنزلت في الصباح إلى الماء. خرجت من الغابة العليا عندما صعدت شمس الخريف القصيرة فوق سلسلة الجبال. وكلما ارتفعت الشمس أعلى ازداد الضوء والدفء في الأسفل بين الجبال. وبعد جمود الليل دبت الحياة في الغابة وامتلأت بحركة الضوء والألوان.

سارت المارال بين الأشجار على مهل وهي تتدفأ في الأماكن المكشوفة المشمسة وتقضم الأوراق الندية من الأغصان. سارت بالترتيب نفسه: الذكر ذو القرون الكبيرة في المقدمة، والمارال الصغير في الوسط، وفي المؤخرة الأم الغزالة أم القرون، المستديرة الجنبين. سارت المارال على الدرب نفسه الذي سار عليه بالأمس أروزكول ومأمون ساحبين جذع الصنوبر المشؤوم إلى النهر. وكان أثر سحب الجذع على التربة الجبلية السوداء لا يزال طازجاً مثل خط محراث تحفه قطع من النجيل الممزق. وكان هذا الدرب يفضي إلى المخاضة، حيث بقي الجذع المحشور في أحجار النهر.

توجهت المارال إلى هذا المكان لأنه سهل المورد. وسار أروزكول وسيد أحمد والشخصان القادمان لأخذ الخشب إلى هنا ليحددوا أفضل طريقة لوضع السيارة التي ستنتشل الجذع من النهر بواسطة سلك. وسار الجد مأمون خلفهم متردداً ومطأطا الرأس. كان لا يدري كيف يتصرف بعد فضيحة الأمس وكيف ينبغي أن يكون سلوكه وماذا يفعل. ترى هل سيسمح له أروزكول بالعمل؟ ألن يطرده كما فعل معه بالأمس عندما أراد أن ينتشل الجذع بالحصان؟ وماذا لو أنه قال له: «ماذا تريد هنا؟ قلت لك إنك مفصول من العمل!» ماذا لو أنه شتمه أمام الناس وأعاده إلى البيت؟ تخاطفته الشكوك فسار وكأنما يساق إلى العذاب، بيد أنه سار. ومن خلفه سارت الجدة. وكأنما لا علاقة لها بهم، وإنما جاءت بدافع الفضول. أما في الواقع فقد مضت لتحرس العجوز. كانت تحث مأمون الهمام على مصالحة أروزكول وعلى أن يستحق منه العفو.

سار أروزكول بعظمة، كالسيد في أملاكه. سار وهو يشخر ويخنف وينظر حوله بصرامة. ورغم أنه كان يعاني الصداع من سكره بالأمس، إلا أنه أحس بارتياح انتقامي. التفت إلى الوراء فرأى الجد

مأمون وهو يلاحقهم بخطواته القصيرة، كأنما كلب وفيّ ضربه صاحبه. «مهلاً، ليس هذا كل شيء بعد، سأريك. لن أنظر إليك بعد الآن. أنت بالنسبة لي لا شيء، سوف ترتمي على قدميّ بنفسك»- فكر أروزكول متشفياً، وهو يتذكر كيف أعولت زوجته في الليلة الماضية عويلاً يمزق القلب وهي ملقاة تحت قدميه عندما أخذ يركلها ويطردها بالركلات بعيداً عن عتبة الدار. «فليكن! بعد أن يرحل هؤلاء بالجذوع، سأجمعها بأبيها، فلينبشا أظفارهما في بعضهما البعض. سوف تفقأ عيني أبيها. توحشت، صارت كالذئبة»،- هكذا فكر أروزكول في فترات السكون التي تخللت حديثة مع الرجل الوافد أثناء سيرهما.

كان هذا الرجل يدعى كوكتاي. وكان رجلاً أسمر عفياً، يعمل محاسباً للسوفخوز. وكان على علاقة صداقة بأروزكول منذ فترة طويلة. فمنذ حوالي اثنتي عشرة سنة شيد كوكتاي بيتاً، وساعده أروزكول بالخشب. باع له الجذوع بثمن بخس لتقطع ألواحاً. ثم زوج الرجل ابنه الأكبر، فشيد للزوجين بيتاً. ومده أروزكول أيضاً بالخشب. والآن جاء دور الابن الأصغر في الاستقلال ببيته، ومن جديد احتاج الرجل إلى الخشب. ومن جديد أنقذه صديقه القديم أروزكول. آه، ما أصعب الحياة! ما إن تنتهي من عمل وتقول لنفسك: الآن أعيش مطمئناً، حتى تخترع لك الحياة شيئاً آخر. وهل تستطيع الآن أن تفعل شيئاً بدون عون رجال مثل أروزكول. . .

- إن شاء الله ندعوك للاحتفال بالبيت الجديد قريباً. تعال وسوف نمرح بروعة،- قال كوكتاي لأروزكول.

وراح هذا ينفخ برضا وينفث دخان سيجارته:

- شكراً. إذا دعينا لا نرفض، وإذا لم ندع لا نتطفل. عندما تدعوني سآتي. ليست أول مرة أنزل عليك ضيفاً. وها انا الآن أفكر:

هلا انتظرت إلى المساء، لكي ترحل في الظلام؟ أهم شيء أن تمر عبر السوفخوز دون أن يلحظك أحد. وإلا، فلو ضبطوك. . .

فقال كوكتاي متردداً:

- هذا صحيح طبعاً، ولكن الانتظار إلى المساء يستغرق طويلاً. سنرحل بهدوء. ليس هناك نقطة تفتيش في الطريق، أليس كذلك؟ ستكون صدفة بحتة لو قابلنا الشرطة أو أحداً آخر. .

فدمدم أروزكول مكشراً بسبب الحموضة والصداع:

- تلك هي المسألة! مائة سنة تسافر لقضاء أعمالك فلا تلقى في الطريق كلباً واحداً، وتنقل الخشب مرة واحدة في المائة سنة فإذا بك تقع. هكذا دائماً. . .

وصمتا، وكل منهما يفكر فيما يخصه. كان أروزكول الآن في غاية الاستياء من اضطراره إلى ترك الجذع في النهر بالأمس. ولولا ذلك لكان جاهزاً ولشحنوه بالأمس ليلاً، ولأرسلوا السيارة في الفجر بعيداً عن الكوردون. . . آه، أكان ينبغي أن يحدث ذلك بالأمس بالذات! مأمون العجوز الأبله هو السبب، أراد أن يثور، أراد أن يخرج عن طاعتي. طيب! كل شيء إلا هذا، لن أتركها لك! . .

كانت المارال تشرب الماء عندما وصل الرجال إلى النهر من الشاطئ المقابل. ما أغربهم من مخلوقات هؤلاء الناس. . صاخبون كثيرو اللغط، مشغولون بأعمالهم وأحاديثهم فلم يلحظوا الحيوانات الواقفة قبالتهم، على الشاطئ الآخر.

كانت المارال تقف في الخمائل الصباحية الحمراء لحرج النهر فوق الحصى النظيف، وقد ولجت الماء حتى الأرساغ. وكانت تشرب جرعات صغيرة على مهل وتتوقف بين الحين والآخر. كان الماء مثلجاً. أما الشمس فأخذت تشع من أعلى دفئاً وراحة متزايدين. وبعد أن ارتوت المارال وقفت تستمتع بالشمس. وكانت قطرات الندى

الغزيرة التي سقطت من الغصون على ظهورها أثناء سيرها تجف، فتصاعد بخار خفيف منها. كان صباح ذلك اليوم هادئاً مباركاً.

أما الناس فلم يلاحظوا المارال. عاد رجل منهم إلى السيارة، وبقي الآخرون على الشاطئ. وحركت المارال آذانها المرهفة وهي تلتقط الأصوات المتناهية إليها أحياناً، وعندما ظهرت السيارة بالمقطورة على الشاطئ الآخر سكنت المارال تماماً بينما انتفض جلدها. كانت السيارة تهدر وتقرقع. وتحركت المارال وقد قررت أن تذهب. ولكن السيارة توقفت فجأة وكفت عن القرقعة والهدير، فأبطأت الحيوانات، ومع ذلك تحركت من مكانها بحذر، فقد كان الناس في الشاطئ الآخر يكثرون من الصياح والجلبة والحركة. وسارت المارال بهدوء على الدرب في حرج الشاطئ، ولاحت ظهورها وقرونها وسط الخمائل من حين لآخر. ولم يلحظها الناس حتى الآن. وعندما بدأت المارال تعبر شريطاً مكشوفاً من رمل الفيضان الجاف. عندها فقط رآها الناس وكأنها على راحة اليد. رأوها فوق الرمل البنفسجي مغمورة بأشعة الشمس الساطعة. وجمدوا بأفواه مفغورة، في شتى الأوضاع.

وكان سيد أحمد أول من صاح:

- انظر، انظر، ما هذا؟ غزلان! من أين ظهرت هنا؟

فقال أروزكول بلا اكتراث:

- لماذا تصرخ، لماذا تصيح؟ أية غزلان هذه، إنها مارال. بالأمس رأيناها. من أين؟ قد جاءت، وكفى.

- يا سلام! يا سلام! - صاح كوكتاي مبهوراً، ومن شدة الانفعال فك ياقة القميص التي كانت تخنقه. - يا لها من ناعمة. شبعانة. . .

وردد السائق وقد جحظت عيناه:

- والأم، الأم! انظر كيف تخطو. مثل الفرس بنت العامين، اي والله! أول مرة أرى شيئاً كهذا.

- والفحل! انظر إلى قرونه! كيف يقوى على حملها! ولا يخشى شيئاً. من أين جاءت يا أروزكول؟- ألح كوكتاي بينما برقت عيناه الخنزيريتان بنهم.

فأجاب أروزكول بعظمة وبشعور السيد المعتد بكرامته:

- يبدو أنها محمية. جاءت من وراء الممر، من تلك الناحية. تقول إنها لا تخاف؟ لم يخوفها أحد، ولهذا لا تخاف.

وفجأة قال سيد أحمد بتهور:

- آه لو بندقية الآن! حوالي قنطارين من اللحم، هه؟

وكان مأمون حتى الآن منزوياً بوجل، إلا أنه لم يطق صبراً فقال بصوت غير عال:

- ماذا بك يا سيد احمد. صيدها ممنوع.

ورمى أروزكول العجوز بنظرة شذرة عابسة، وقال في نفسه بحقد: «أترفع صوتك أيضاً!»- وأراد أن يسبه سباباً يصرعه به على الفور، ولكنه ضبط أعصابه. فهنا يوجد غرباء على أية حال.

وقال بعصبية دون أن يتطلع إلى مأمون:

- لا معنى للدروس الفارغة. صيدها ممنوع حيث تعيش. ولكنها لا تعيش عندنا. نحن لسنا مسؤولين عنها. مفهوم؟- ونظر نظرة وعيد إلى العجوز المرتبك.

فأجاب مأمون بإذعان:

- مفهوم.

وطأطأ رأسه، وانتحى جانباً.

وعلى الفور شدته الجدة من كمه خفية، وفحّت مؤنبة:

- كان الأفضل أن تسكت.

وأطرق الجميع في خجل. ثم عادوا من جديد يحدقون في أثر الحيوانات الراحلة على الدرب الصاعد. صعدت المارال إلى الجرف في طابور. في المقدمة سار الذكر البني، حاملاً قرونه الجبارة بكبرياء. ومن خلفه المارال الصغير، وفي مؤخرة الموكب سارت الغزالة الأم أم القرون. وعلى خلفية الجرف الطيني الصافية بدت المارال للأنظار دقيقة رشيقة. كانت كل حركة منها وكل خطوة واضحة للعيان.

ولم يستطع السائق أن يكتم إعجابه. كان شاباً جاحظ العينين يبدو هادئاً جداً. وصاح:

- يا سلام! يا للجمال! خسارة أنني لم آخذ كاميرا، وإلا كنت. . .

فقاطعه أروزكول ساخطاً:

- طيب، كفاك جمالاً. لا معنى للوقوف. الجمال لن يملأ البطن. هيا ارجع بمؤخرة السيارة إلى الشاطئ، أنزل بها الماء من الطرف. وأنت يا سيد أحمد، اخلع حذاءك. - أصدر أوامره وهو معجب في قرارة نفسه بسلطانه- وأنت أيضاً، - قال مشيراً إلى السائق. - هيا اربطوا السلك بالجذع. بسرعة. أمامنا عمل آخر أيضاً.

شرع سيد أحمد في خلع حذائه. كان ضيقاً عليه.

ولكزت الجدة مأمون خفية:

- ما لك تتفرج، هيا ساعده. واخلع أنت أيضاً حذاءك وانزل الماء، - نصحته بهمس شرير.

اندفع الجد مأمون لينزع الحذاء عن قدمي سيد أحمد، وخلع هو حذاءه بسرعة. وفي تلك الأثناء كان أروزكول وكوكتاي يوجهان السيارة:

- هات هنا، هات.

- شمال قليلاً، شمال. هكذا.
- هات قليلاً.

وعندما سمعت المارال صخب السيارة غير المألوف في الأسفل سارعت الخطو على الدرب. وقفزت إلى الجرف وهي تتلفت بقلق، واختفت بين أشجار البتولا.

- آه، اختفت!

صاح كوكتاي بأسف كأنما أفلتت الفريسة من يديه.

فقال أروزكول مفاخراً وقد فطن إلى أفكار كوكتاي ومسروراً بذلك:

- لا بأس لن تفلت منا! لن ترحل اليوم قبل المساء، وستكون ضيفاً عليّ. هكذا شاء الله. سأقيم لك وليمة عظيمة.

وقهقه وربت على كتف صديقه. لقد كان في وسع أروزكول أن يكون مرحاً.

- حسناً ما دمت تأمر، فأنت صاحب البيت وأنا ضيف. قال كوكتاي مستسلماً وابتسم كاشفاً عن أسنان صفراء جبارة.

كانت السيارة واقفة على الشاطئ بينما غاصت عجلاتها الخلفية في الماء إلى منتصفها. ولم يخاطر السائق بالخوض بها أكثر من ذلك. وكان عليهم الآن أن يسحبوا السلك إلى الجذع، فإذا كان طول السلك كافياً فلن يشكل تخليص الجذع من اسر الأحجار عناء ما.

كان السلك فولاذياً، طويلاً وثقيلاً، ولا بد من سحبه في الماء إلى الجذع. وبدأ السائق يخلع حذاءه مكرهاً، وهو ينظر إلى الماء بتخوف. لم يكن قد استقر بعد على رأي نهائي: هل ينزل النهر بالحذاء، أم من الافضل أن ينزعه. وقال في نفسه: «ربما من الأفضل أن أنزل حافياً. فالماء على أي حال سيتسرب إلى رقبة الحذاء. المياه هنا عميقة، حتى الفخذين تقريباً، وبعد ذلك أسير طول النهار في

حذاء مبلول». ولكنه تصور أيضاً مدى برودة ماء النهر في هذا الوقت. وهذا ما استغله الجد مأمون.

فقد خف إليه قائلاً:

- لا تخلع حذاءك يا بني. سننزل أنا وسيد أحمد.

فرد السائق محرجاً:

- لا داعي يا اكسكال...

ولكن الجد مأمون أصر:

- أنت ضيف ونحن أهل الديار، اجلس أنت إلى المقود.

وعندما أدخل هو وسيد احمد الوتد في لفة السلك الفولاذي وسحباه في الماء صرخ سيد أحمد بأعلى صوته:

- آي، آي، ثلج وليس ماء!

فضحك أروزكول وكوكتاي باستعلاء وقالا مشجعين:

- تحمل، تحمل! سنجد ما ندفئك به!

أما الجد مأمون فلم ينبس بحرف. بل إنه حتى لم يشعر بالبرودة القارسة. دفن رأسه بين كتفيه حتى لا يلاحظوه وسار بقدمين عاريتين على أحجار القاع الزلقة وهو يطلب من الله شيئاً واحداً: ألا يعيده أروزكول، ألا يطرده، ألا يشتمه أمام الناس، أن يسامحه هو العجوز الأحمق البائس...

ولم يقل أروزكول شيئاً. كان يبدو وكأنه لا يلاحظ جهود مأمون ولا يرى فيه إنساناً. أما في قرارة نفسه فكان يتهلل منتشياً: فقد استطاع مع ذلك أن يقهر العجوز المتمرد. وضحك أروزكول في سره بخبث: «نعم هكذا! ها قد جئت زاحفاً وارتميت على قدميّ. آه، ليس في يدي سلطان أكبر، وإلا للويت أذرع من هم أقوى منك! لجعلتهم يزحفون في التراب. آه لو يعطوني كولخوزاً أو سوفخوزاً على الأقل. إذن لفرضت هناك النظام. لقد أفسدوا الناس. والآن يشكون من أن

الناس لا تحترم الرئيس أو المدير. أي راع تافه يتحدث مع الرؤساء كأنه ند لهم. يستحقون، فهم غير جديرين بالسلطة! هل هكذا ينبغي أن يعاملوهم؟ ألم يكن هناك عهد كانت الرؤوس فيه تطير، ولا أحد يفتح فمه؟ نعم، يا لها من أيام! فماذا يحدث الآن؟ حتى هذا الحقير، أتفه التافهين، يتجاسر على التحدي. طيب، طيب، فلتزحف الآن، فلتزحف»، - فكر أروزكول بتشف وهو يتطلع أحياناً ناحية مأمون.

أما مأمون، وهو يخوض في الماء المثلج منكمشاً، ساحباً السلك مع سيد أحمد، فكان قريراً بأن أروزكول فيما يبدو قد سامحه. وفي نفسه قال مخاطباً أروزكول: «سامحني أنا العجوز على ما حدث. لم أستطع أن أتحمل بالأمس. ركضت إلى حفيدي في المدرسة. إنه وحيد ولذلك أشفق عليه. أما اليوم فلم يذهب إلى المدرسة. مرض المسكين. انس ما حدث، سامحني، أنت أيضاً لست غريباً عني. أتظن أني لا أرجو لك ولبنيتي السعادة؟ لو أن الله رزق، لو أني سمعت صياح مولود زوجتك، ابنتي فلأمت فوراً، وليأخذ الله روحي. أقسم لك، لكنت بكيت من السعادة. لكني أرجوك، لا تهن ابنتي. أما عن العمل، فسأعمل كل شيء ما دمت بصحتي. سأنقذ كل شيء، مُرْ فقط...»

كانت الجدة واقفة على الشاطئ غير بعيد عنهم. وكانت حركاتها، وهيئتها كلها تقول للعجوز: «اجتهد ياشيخ! انظر، ها هو قد سامحك. افعل كما أقول لك وكل شيء سينصلح».

كان الصبي نائماً. استيقظ فقط مرة واحدة عندما دوت طلقة في مكان ما. ثم عاد فنام. كان يغط في نوم عميق هادئ بعد أن أنهكه مرض الأمس والسهاد. وحتى في المنام أحس بمدى الراحة التي تشعر بها وأنت راقد في الفراش، ماداً جسدك وأطرافك في حرية ولا تعاني

من الحمى أو رجفة البرد. ولولا الجدة والخالة بيكي لربما نام طويلاً جداً. كانتا تحاولان الكلام بصوت منخفض، ولكن الأوعية قرقعت في أيديهما فاستيقظ الصبي.

وهمست الجدة بحيوية في الغرفة الأمامية:

- امسكي هذا الكوب الكبير. وخذي الطبق. وسأحمل أنا الدلو والمنخل. آه يا ظهري! حيلي انهد! اشتغلنا كثيراً. لكن الحمد لله. أنا سعيدة جداً.

- صحيح يا نينة، وأنا أيضاً سعيدة. بالأمس كنت مستعدة أن أموت. ولولا جول جمال لقتلت نفسي.

فقالت الجدة بتعقل:

- ما هذا الكلام! هل أخذت الفلفل؟ هيا بنا. ربنا ذاته أرسل هديته ليصلح بينكما. هيا، هيا.

وعند عتبة الباب، وهما على وشك الخروج. سألت الخالة بيكي الجدة عن الصبي:

- أما زال نائماً؟

فقالت الجدة:

- فلينم الآن. عندما نجهز الطعام سنأتيه بحساء ساخن.

لم ينم الصبي بعدها. تناهت من الفناء خطوات وأصوات. ضحكت الخالة بيكي، وضحكت جول جمال والجدة رداً على ضحكها. وبلغت مسامعه أصوات أشخاص غرباء. وقال الصبي لنفسه: «لا بد أنهم أولئك الذين جاؤوا ليلاً. إذن فلم يرحلوا بعد». الجد مأمون هو وحده الذي لم يسمع له صوت، ولم يظهر. ترى أين هو؟ وماذا يفعل؟

أصغى الصبي للأصوات الخارجية وهو ينتظر جده. كان يتوق إلى الحديث معه عن المارال التي رآها بالأمس. فعما قريب سيحل الشتاء.

ينبغي أن يتركوا لها المزيد من الدريس في الغابة. فلتأكل. وينبغي أن يستأنسوها حتى لا تخاف الناس، بل تأتي مباشرة عبر النهر إلى فنائهم. وهنا يعطونها من الأطعمة أكثر شيء تحبه. ترى ما هو أكثر شيء تحبه؟ وعليه أن يستأنس المارال الصغير حتى يتبعه أينما ذهب. كم يكون هذا رائعاً. ربما ذهب معه إلى المدرسة؟..

كان الصبي ينتظر جده ولكن الجد لم يظهر. وفجأة جاء سيد أحمد. كان راضياً جداً بشيء ما. ومرحاً. وكان سيد أحمد يتمايل وهو يبتسم لنفسه. وعندما اقترب من الصبي زكمت أنفه رائحة الكحول. وكان الصبي لا يطيق هذه الرائحة الحادة الكريهة التي تذكره بعنجهية أروزكول، وبعذاب جده وخالته بيكي. ولكن سيد أحمد، على عكس أروزكول، يصبح طيباً ومرحاً عندما يسكر، وعموماً يصبح عبيطاً وادعاً، وإن كان لا يتميز بذكاء ما وهو مفيق. وفي مثل هذه الأحوال كان يدور بينه وبين الجد مأمون مثل هذا الحديث تقريباً:

- ما لك تبتسم كالأبله يا سيد أحمد؟ أنت أيضاً شربت؟

- كم أحبك يا اكسكال! أقسم بشرفي يا اكسكال، أحبك كوالدي!

- ألا تخجل، في شبابك تفعل هذا! الشبان الآخرون يقودون السيارات وانت لا تتحكم حتى في لسانك. لو كنت في سنك لكنت الآن أقود جرار على الاقل.

- يا اكسكال، في الجيش قال لي القائد إني لا أصلح لذلك. ولكنني مشاة يا اكسكال. وبدون المشاة لا تستطيع أن تتحرك خطوة...

- مشاة! أنت تنبل ولست مشاة. وزوجتك...ليس عند الرب نظر. مائة مثلك لا يساوون جول جمال واحدة.

- ولذلك فنحن هنا يا اكسكال. ليس هناك غيري وغيرها.

- ما فائدة الكلام معك. قوي كالثور، أما العقل...- ويشحيح الجد مأمون بيده في يأس.

- مو- و- و... يخور سيد أحمد كالثور في اثره ويضحك.

ثم يقف وسط الفناء ويغني أغنيته الغريبة التي لا يعرف أحد أين سمعها:

من الجبال الحمراء الحمراء
جئت على مهر أحمر
أيها التاجر الأحمر، افتح الباب
ولنشرب خمراً أحمر!
من الجبال البنية البنية
جئت على ثور بني
أيها التاجر البني، افتح الباب
ولنشرب خمراً بنياً!..

وكان بوسعه أن يستمر في ذلك إلى ما لا نهاية، لأنه كان يجيء من الجبال على جمل، وعلى ديك، وعلى فأر وعلى سلحفاة.. على كل ما يمكن أن يتحرك. وكان سيد أحمد الثمل يعجب الصبي حتى أكثر منه وهو مفيق.

ولذلك فعندما ظهر سيد أحمد ابتسم له الصبي ببشاشة. فهتف سيد أحمد بدهشة:

- ها! لكنهم أخبروني أنك مريض. إنك لست مريضاً أبداً. لماذا لا تركض في الفناء؟ هذا لا يجوز...- وانهار على الفراش فهبت على الصبي رائحة الكحول واللحم الطازج النيئ التي انبعث من يديه وملابسه، وأخذ يهز الصبي ويقبله. ووخز خداه اللذان غطتهما لحية خشنة وجه الصبي.

ورجاه الصبي:

- كفى يا عم سيد أحمد. أين جدي، ألم تره؟

- جدك هناك، يسوي هذا الـ. . .- وأدار سيد أحمد يديه في الهواء بحركة غامضة.- نحن هذا الـ. . انتشلنا الجذع من النهر. وشربنا للتدفئة. والآن فهو يسوي هذا الـ. . يسوي اللحم. هيا قم. البس وهيا بنا. هذا لا يجوز! غير مضبوط. كلنا هناك، وأنت هنا وحدك.

فقال الصبي:

- جدي أمرني ألا أنهض.

- دعك من هذا الأمر. قم تفرج. مثل هذا لا يحدث كل يوم. اليوم وليمة. الكوب في الدهن، والملعقة في الدهن، والفم في الدهن. انهض!

وأخذ يلبس الصبي ملابسه بحركات السكارى الخرقاء.

- سألبس بنفسي. . .- حاول الصبي التملص وهو يشعر باقتراب نوبة دوار. . .

ولكن سيد أحمد الثمل لم يكن يسمعه. كان يعتقد أنه يصنع خيراً لأنهم تركوا الصبي وحده في البيت، بينما اليوم يوم مشهود، حيث الكوب في الدهن، والملعقة في الدهن، والفم في الدهن. . .

وخرج الصبي من المنزل وراء سيد أحمد وهو يترنح. كان النهار في الجبال شديد الرياح، شبه غائم. وتحركت السحب في السماء بسرعة. وبينما كان الصبي يعبر الشرفة تغير الجو مرتين تغيراً حاداً: من نهار مشمس ساطع إلى درجة لا تحتمل إلى اكفهرار مقبض. وأحس الصبي بصداع من جراء ذلك. ولفحه دخان نار، دفعه الهواء نحوه. وأحس بوخز في عينيه. وفكر الصبي في نفسه: «يبدو أنهم يغسلون الملابس اليوم»، لأنهم كانوا يشعلون النار في الفناء عادة في

يوم الغسيل الكبير، عندما يسخنون الماء للدور الثلاث كلها في قِدر ضخمة سوداء. هذا القدر لا تستطيع أن ترفعها وحدك. وكانت الخالة بيكي وجول جمال ترفعانها معاً.

كان الصبي يحب يوم الغسيل الكبير. فأولاً: كانت النار تشعل في موقد مكشوف، لا كما في البيت، ولذلك يمكن أن تلهو بالنار. وثانياً: كان من الممتع للغاية تعليق الملابس المغسولة. ويزدان الفناء بالخرق البيضاء والزرقاء والحمراء المعلقة على الحبل. وكان الصبي يهوى التسلل إلى الغسيل المنشور على الحبل ليلمس بخده القماش المبلل.

ولكن لم يكن هناك في هذه المرة أي غسيل في الفناء. وكانت النار المشتعلة تحت القزان قوية، فتصاعدت سحب البخار من القزان المملوء، حتى حافته بقطع كبيرة من اللحم. وكان اللحم قد بدأ ينضج، فدغدت رائحة اللحم والدخان أنفه مثيرة لعابه. وانحنت الخالة بيكي فوق النار وهي تنزع الرغوة بالمغرفة. كانت في فستان أحمر جديد، وحذاء جلدي جديد ومنديل مورّد انحدر على كتفيها. وجثا الجد بقربها على ركبتيه وهو يقلب الحطب المشتعل في الوقد.

وقال سيد أحمد للصبي:

- ها هو جدك. هيا بنا.

وما كاد يرفع عقيرته بالغناء:

من الجبال الحمراء الحمراء
جئت على مهر أحمر، -

حتى أطل من الحظيرة أروزكول، حليق الرأس، مشمر أكمام القميص، والفأس في يده.

وصاح في سيد أحمد بغضب:

- أين اختفيت؟ ضيفنا هنا يقطع الحطب،- وأشار إلى السائق الذي كان يقطع الحطب،- وأنت تغني.

فأسرع سيد أحمد يهدئه متجهاً نحو السائق:

- حالاً، حالاً نقوم بذلك.. هات عنك يا أخي.

أما الصبي فاقترب من جده الجاثي على ركبتيه بجوار الموقد. جاء من وراء ظهره. وقال:

- يا جدي.

ولم يسمع الجد.

فكرر الصبي وهو يلمس كتفه:

- يا جدي.

التفت العجوز فلم يعرفه الصبي. كان جده أيضاً ثملاً. ولم يستطع الصبي أن يتذكر متى رأى جده ثملاً ولو قليلاً. لم يحدث ذلك، اللهم إلا إذا كان في أحد مآتم شيوخ ايصيق- كول، حيث تقدم الفودكا للجميع، حتى النساء. أما أن يشرب هكذا بلا مناسبة فلم يحدث هذا لجده.

ألقى العجوز على الصبي نظرة غريبة بعيدة شاذة. وكان وجهه ساخناً أحمر، وعندما عرف حفيده ازداد احمرارا. تضرج بحمرة ملتهبة ثم شحب على الفور. ونهض الجد على قدميه في عجلة.

- ماذا بك؟ هه؟- قال بصوت مكتوم وهو يضم حفيده اليه.- ماذا بك؟ هه؟ ماذا بك؟- ولم يستطع أن ينطق بشيء غير هذه الكلمات وكأنما فقد القدرة على الكلام.

وانتقل اضطرابه إلى الصبي، فسأله بقلق:

- هل مرضت يا جدي؟

فدمدم الجد مأمون:

- لا، لا، أنا هكذا، لا شيء. اذهب أنت، تمشَّ قليلاً. وأنا هنا.. الحطب، هذا الـ...

ودفع عنه الصبي تقريباً، واستدار إلى الموقد ثانية وكأنما أدار ظهره للدنيا كلها. جثا على ركبتيه ولم يلتفت، ولم ينظر إلى شيء، مشغولاً بنفسه وبالنار فحسب. ولم ير العجوز كيف وقف حفيده في مكانه حائراً، ثم سار في الفناء متجهاً إلى سيد أحمد الذي كان يقطع الحطب.

لم يفهم الصبي ما حدث لجده ولا ماذا كان يدور في الفناء. وعندما اقترب من الحظيرة انتبه ساعتها فقط إلى كتلة كبيرة من اللحم الأحمر الطازج المكوم فوق بعضه على جلد مفروش على الأرض بناحيته المشعرة إلى أسفل. وكانت خيوط من الدم الشاحب لا تزال تسيل من أطراف الجلد. وغير بعيد عنه، هناك حيث كانوا يرمون النفايات، كان الكلب يمزق أحشاء ما وهو يزمجر. وبجوار كوم اللحم جلس القرفصاء كالكتلة الصخرية رجل غريب ضخم أسمر الوجه. كان ذاك كوكتاي. وكان مع أروزكول يقطعان اللحم بالسكاكين. وبهدوء وتؤدة كانا يوزعان قطع اللحم على مكانين مختلفين فوق الجلد المفروش.

وقال الرجل العفي الأسمر بنبرة غليظة وهو يتشمم اللحم:

- يا للمتعة! يا لها من رائحة!

- خذ، خذ، ألق في كومك، - قال أروزكول بكرم. - لقد اعطانا الله من قطعانه في يوم مجيئك. هذا لا يحدث كل يوم.

وكان أروزكول يشخر، وينهض بين الحين والآخر ويمسح على بطنه المشدود، كأنما أصابته تخمة. وبدا ملحوظاً على الفور أنه أفرط في الشراب. وكان يختنق وهو يلهث، فيطرح رأسه إلى الوراء ليلتقط

أنفاسه. ولمح وجهه المكتنز كضرع البقرة طافحاً بالشبع والرضى على النفس.

ذهل الصبي، وغمرته موجة باردة عندما رأى عند جدار الحظيرة رأس مارال بقرون. كان هذا الرأس المقطوع ممرغاً في التراب الملوث ببقع دم داكنة. وكان يشبه حذل شجرة معقد الجذور ألقي به بعيداً عن الطريق. وبجوار الرأس تناثرت أربع قوائم بحوافر قطعت عند مفاصل الركبة.

نظر الصبي برعب إلى هذا المشهد الرهيب، ولم يصدق عينيه. كان ما أمامه هو رأس الغزالة الأم أم القرون. وأراد أن يهرب من هنا. ولكن ساقيه لم تطاوعاه. وظل واقفاً يتطلع إلى رأس المارال البيضاء المشوه الميت، تلك المارال التي كانت بالأمس فقط الغزالة الأم أم القرون، تلك التي كانت بالأمس فقط تحدق فيه من الشاطئ الآخر بنظرة طيبة فاحصة، تلك التي كان يتحدث معها في خياله واستحلفها أن تأتي على قرونها بالمهد السحري ذي الجرس. كل هذا تحول فجأة إلى كوم من اللحم وجلد مسلوخ، وأرجل مقطوعة ورأس مطوح هناك.

كان ينبغي أن يبتعد، ولكنه ظل واقفاً، جامداً، لا يدرك كيف حدث كل هذا ولماذا. أما الرجل العفي الأسمر، الذي كان يقطع اللحم، فقد استخرج بسن سكينه من كوم اللحم كلية، ومدها للصبي. وقال:

- خذ يا ولد، اشوها في النار، ستكون لذيذة.

ولم يتحرك الصبي.

فأمر أروزكول:

- خذ!

ومد الصبي يده وهو لا يحس بها، ووقف الآن قابضاً في يده

الباردة على كلية الغزالة الأم أم القرون الطرية الدافئة بعد. أما أروزكول فقد رفع رأس المارال البيضاء من قرونه.

وهزه في الهواء:

- أوه، ثقيل! كم تزن القرون وحدها!

ووضع الرأس على الأرومة من جنبه وأمسك بالفأس، وراح يفصل القرون عن الجمجمة.

- يا لها من قرون! - أخذ يردد وهو يغرز حد الفأس في منبت القرون. - هذا لجدك. - وغمز بعينيه للصبي. - عندما يموت سنضع هذه القرون على قبره. فليقل أحد إذن إننا لا نحترمه. أي احترام أكثر من هذا! من أجل هذه القرون ليس حراماً أن يموت اليوم! - وضحك ضحكة قصيرة وهو يسدد الفأس.

ولم تستسلم القرون. واتضح أن فصلها ليس بهذه البساطة. وكانت ضربات أروزكول الثمل غير محكمة مما أثار حنقه. وسقط الرأس عن الأرومة، فأخذ أروزكول يوجه إليه ضرباته وهو على الأرض. وراح الرأس يقفز وأروزكول يلاحقه بالفأس.

كان الصبي ينتفض مع كل ضربة ويتراجع لاإرادياً إلى الوراء، ولكنه لم يستطع أن يجبر نفسه على الابتعاد عن هنا. وكما في كابوس مفزع وقف الصبي مسمراً بقوة رهيبة غامضة، مندهشاً من أن عين الغزالة الأم أم القرون التي أصبحت زجاجية، لا تحاذر من الفأس. لا تطرف ولا تطبق الجفون خوفاً، وكان الرأس منذ وقت بعيد قد تمرغ في الوحل والتراب، ولكن العين ظلت نظيفة، وبدا وكأنها لا تزال تنظر إلى الدنيا بتلك الدهشة الخرساء، المتحجرة التي فاجأها فيها الموت. وخاف الصبي أن يصيب أروزكول الثمل هذه العين.

ولكن القرون لم تستسلم. وجن جنون أروزكول وازداد شراسة، وراح يضرب الرأس دون تمييز وكيفما اتفق بظهر الفأس وبحدها.

واقترب منه سيد أحمد:

- هكذا قد تكسر القرون. أعطني أنا.

فصاح أروزكول بصوت متحشرج وهو يلوح بالفأس:

- ابتعد! أنا بنفسي! لن أكسرها.. عليها اللعنة!

- كما تشاء.

وبصق سيد أحمد وهو يتجه إلى داره.

وتبعه ذلك الرجل الأسمر العفي. كان يجرجر كيساً فيه نصيبه من اللحم.

ومضى أروزكول بعناد مخمور يمزق رأس الغزالة الأم أم القرون خلف الحظيرة. وكان يبدو وكأنه يأخذ بثأر قديم. أخذ، والزبد يغطي شفتيه، يركل الرأس بحذائه، وكأنما كان بوسع الرأس الميت أن يسمعه:

- أيها الوغد! خسئت! لن تفلت،- وانهال عليه بالفأس ثانية وثالثة.- لن أكون أنا أروزكول إن لم أخلّص عليك. خذ!خذ!- صاح وهو يعمل فيه الفأس.

طقطقت الجمجمة، وتطايرت شظايا العظام في شتى الاتجاهات.

ندت عن الصبي صرخة قصيرة عندما هوت الفأس صدفة بعرض العين. ومن محجر العين الممزق تدفق سائل كثيف داكن. وماتت العين، تلاشت، أقفرت...

وزمجر أروزكول في نوبة حقد وغضب وحشي على هذا الرأس البريء:

- أستطيع أن أحطم رؤوساً أقسى منك! وأكسر قروناً أصلب من قرونك!

وأخيراً تمكن من كسر الجمجمة عند الجبهة واليافوخ. عندئذ ألقى

بالفأس، وأمسك القرون بكلتا يديه وضغط الرأس إلى الأرض بقدمه، ولوى القرون بقوة وحشية. كان يخلعها، فراحت تطقطق كجذور تتمزق. القرون نفسها التي كان من المفروض ات تحمل عليها الغزالة الأم أم القرون، استجابة لدعوات الصبي، مهداً سحرياً لأروزكول والخالة بيكى...

أحس الصبي بالغثيان. واستدار، وأسقط من يده الكلية على الأرض، وابتعد ببطء. كان يخشى بشدة أن يسقط أو يداهمه القيء هنا أمام الناس. مضى شاحباً والعرق البارد اللزج يغطي جبينه، ومر من أمام الموقد الذي كانت النار تستعر فيه ومن فوقه تصاعدت من القزان سحب الدخان الساخن، والذي كان الجد مأمون التعيس يجلس بجواره كما كان، وجهه إلى النار، مديراً ظهره للجميع. ولم يشأ الصبي أن يزعج جده. كان يريد أن يصل إلى الفراش بسرعة وأن يرقد ويتغطى حتى رأسه.. فلا يرى ولا يسمع. أن ينسى...

قابلته الخالة بيكي. كانت متأنقة بصورة خرقاء، ولكن ظهرت على وجهها آثار زرقاء قرمزية من لكمات أروزكول، وبدت نحيلة ومرحة بلا مناسبة وهي تهرول اليوم منهمكة في مشاغل «اللحم الكبير».

أوقفت الصبي:

- ماذا بك؟

فقال لها:

- عندي صداع.

- آه يا حبيبي المريض، - قالت في نوبة حنان مفاجئة وأمطرت الصبي بقبلاتها.

كانت هي الأخرى ثملة. وفاحت منها أيضاً بشدة رائحة الفودكا الكريهة.

- عنده صداع،- تمتمت برقة. - آه يا حبيبي الغالي! ربما تريد أن تأكل؟

- لا، لا أريد. أريد أن أرقد.

- طيب، تعال، تعال، سأرقدك. لماذا ترقد وحدك. كلهم سيكونون عندنا. الضيوف وجماعتنا. واللحم نضج. - وشدت الصبي معها.

وعندما مرا من جديد بجوار الموقد، ظهر أروزكول من خلف الحظيرة عرقان بوجه أحمر كالضرع الملتهب. وألقى بقرون المارال التي اجتثها بجوار الجد مأمون بظفر. ونهض العجوز من مكانه.

ودون أن يتطلع إليه رفع أروزكول دلو الماء وأماله نحوه وراح يشرب والماء ينساب عليه.

- الآن تستطيع أن تموت.

قال بلا اكتراث بعد أن رفع فمه عن الدلو قليلاً، ثم عاد ثانية إليه.

وسمع الصبي جده يتمتم:

- شكراً يا بني، شكراً. الآن لم أعد أخشى الموت. وكيف أخشاه بهذا التقدير والاحترام...

- سأذهب إلى البيت،- قال الصبي وقد أحس بضعف جسده.

ولكن الخالة بيكي لم تستجب له:

- لن تبقى وحدك.

وأخذته إلى بيتها بقوة تقريباً. وأرقدته على السرير في ركن الغرفة.

كان كل شيء في بيت أروزكول جاهزاً للوليمة. كان هناك الكثير من الطعام المسلوق والمحمر والمسبّك. وكانت الجدة وجول جمال المنتعشتان تعدان كل ذلك. أما الخالة بيكي فكانت تهرول ما بين البيت والموقد في الفناء. وفي انتظار اللحم الكبير أخذ أروزكول

وكوكتاي الأسمر العفي يشربان الشاي مضطجعين على بطاطين ملونة والوسائد تحت مرفقيهما. وعلى الفور تقمصتهما العظمة وأحسا بنفسيهما كالأمراء. وكان سيد أحمد يصب لهما الشاي بجرعات قليلة في قاع الفناجين.

أما الصبي فرقد في الركن ساكناً، مقيد الحركة، متوتراً. عاودته الرعشة ثانية. وأراد أن ينهض وينصرف، ولكنه كان يخشى إن هو هبط من السرير أن يداهمه القيء في الحال. ولذلك كتم في داخله بتشنج تلك الغصة التي وقفت في زوره. وكان يخشى أن يأتي بحركة زائدة.

وبعد ذلك دعت النساء سيد أحمد إلى الفناء فخرج. ثم ظهر من جديد في الباب حاملاً جبلاً من اللحم الداخن في وعاء ضخم. وبصعوبة سار بهذا الحمل حتى وضعه أمام أروزكول وكوكتاي. وفي أثره دخلت النساء حاملات شتى المأكولات.

واتخذ الجميع مجلسهم مرة ثانية، وأعدوا السكاكين والأطباق. وأثناء ذلك صب سيد أحمد الفودكا في الأقداح. وقهقه وهو يشير إلى الزجاجات في الركن:

- سأكون أنا قائد الفودكا.

وجاء مأمون آخر الجميع. كان منظره اليوم غريباً، بائساً للغاية بالمقارنة مع المألوف. أراد أن ينزوي جانباً في مكان ما ولكن كوكتاي الأسمر العفي طلب منه بسماحة أن يجلس إلى جواره:

- تفضلوا هنا يا اكسكال.

وحاول الجد مأمون أن يرفض:

- شكراً، سنجلس هنا، نحن أصحاب البيت.

ولكن كوكتاي أصر:

- لا، أنتم أكبرنا،- وأجلسه بينه وبين سيد أحمد،- فلنشرب يا اكسكال بمناسبة التوفيق الذي حالفكم اليوم. الكلمة الأولى لكم.

سعل الجد مأمون متردد، ثم قال بمعاناة:

- نخب الوئام في هذا البيت. وحيث يوجد الوئام توجد السعادة يا أولادي.

- مضبوط، مضبوط. .- قال الجميع وأفرغوا الأكواب في حلوقهم.

- وأنتم ماذا؟ لا، لا يجوز! تتمنون السعادة لصهركم وابنتكم ولا تشربون،- عاتب كوكتاي الجد مأمون المحرج.

فقال الجد متعجلاً:

- طبعاً، ضروري، إذا كان لأجل السعادة. .

ولدهشة الجميع أفرغ حتى القاع كوب الفودكا الملآن تقريباً، ثم هز رأسه العجوز ذاهلاً.

- يا سلام!

- شيخنا لا يجاريه أحد!

- شيخكم جدع!

- ضحكوا جميعاً، وكانوا مسرورين جميعاً، وأثنوا على الجد جميعاً.

أصبح الجو في البيت حاراً وخانقاً. ورقد الصبي وهو يعاني عذاباً ممضاً، ويشعر طوال الوقت بالغثيان. كان راقدا مغمض العينين وهو يسمع كيف كان هؤلاء الناس السكارى يمصمصون ويمضغون ويشخرون وهم يلتهمون لحم الغزالة الأم أم القرون، وكيف كانوا يضيفون بعضهم البعض بالقطع اللذيذة، ويقرعون الأكواب الملوثة بالدهن ويلقون بالعظام في الطبق.

وأثنى كوكتاي على اللحم وهو يمصمص بشفتيه:

- ألذ من لحم المهر الصغير.

وقال أروزكول:

- وهل نحن حمقى حتى نعيش في الجبال ولا نأكل مثل هذا اللحم.

فجاراه سيد أحمد:

- مضبوط، وإلا فلماذا نعيش هنا.

امتدح الجميع لحم الغزالة الأم أم القرون: الجدة، والخالة بيكي، وجول جمال، وحتى الجد مأمون. وقدموا للصبي أيضاً اللحم ومأكولات أخرى على طبق وألحوا عليه، ولكنه رفض، وعندما رأى السكارى أنه مريض كفوا عن الإلحاح.

رقد الصبي كازاً على أسنانه. وخيل إليه أنه بذلك سيسهل عليه منع الغثيان. ولكن أكثر ما عذّبه هو إحساسه بعجزه، وبأنه غير قادر على أن يصنع شيئاً بهؤلاء الناس الذين قتلوا الغزالة الأم أم القرون. وفي غضبه الطفولي العادل ويأسه، راح الصبي يبتكر شتى وسائل الانتقام، وكيف يستطيع معاقبتهم وإجبارهم على أن يدركوا أية جريمة شريرة ارتكبوا. ولكنه لم يتوصل في خياله إلى شيء أفضل من دعوة كولوبيك. نعم، ذلك الشاب ذو المعطف العسكري الذي جاء مع السائقين الشبان لنقل الدريس في تلك الليلة العاصفة. فمن بين كل من عرفهم الصبي كان هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يكبح جماح أروزكول، ويلقي إليه بالحقيقة في وجهه.

. . . جاء كولوبيك بالشاحنة مسرعاً تلبية لنداء الصبي، وقفز من الكابينة والرشاش في يديه، وسأل:

- أين هم؟

- إنهم هناك!

وركضا معاً إلى بيت أروزكول، وشدا الباب بعنف.

- لا أحد يتحرك! ارفعوا أيديكم!- أمر كولوبيك بصرامة وهو على العتبة وسدد إليهم الرشاش.

وصعقوا جميعاً. وشل الخوف حركتهم فجمدوا في أماكنهم. وغصت حلوقهم بقطع اللحم. كانوا يمسكون بقايا اللحم في أيديهم الملوثة بالدهن، وخدودهم وأفواهم ملوثة بالدهن. كانوا متخمين، سكارى، فلم يستطيعوا حتى أن يتحركوا.

- انهض يا وغد!- وألصق كولوبيك الرشاش بصدغ أروزكول، فارتجف بدنه كله، وارتمى على قدمي كولوبيك وهو يتهته:

- الر. . حمة، لا تق. . تـ. . تلني!

ولكن كولوبيك كان لا يلين:

- اخرج يا وغد! حلت نهايتك!

وركل كولوبيك أروزكول ركلة قوية في مؤخرته السمينة، وأجبره على الوقوف والخروج من البيت.

وخرج جميع الحاضرين مرتعبين صامتين إلى الفناء.

وأصدر كولوبيك أمره إلى أروزكول:

- قف إلى الحائط! عقاباً على قتلك الغزالة الأم أم القرون، وعلى قطعك لقرونها التي كانت تحمل عليها المهد، حمك عليك بالموت!

انكفا أروزكول في التراب، وأخذ يزحف وهو يجأر ويئن:

- لا تقتلوني، ليس عندي أولاد. وحيد أنا في الدنيا. لا ابن عندي ولا بنت. . .

اين اختفت عنجهيته وغطرسته! جبان حقير تافه. لم تعد ثمة رغبة في قتل شخص مثله.

فقال الصبي لكولوبيك:

- طيب لن نقتله. ولكن فليرحل هذا الشخص من هنا ولا يعد أبداً. لا أحد يحتاج إليه هنا. فليذهب.

ونهض أروزكول، وشد سرواله، وجرى مبتعداً وهو يخشى أن يلتفت. . سميناً، معفراً مهدل السروال. ولكن كولوبيك أوقفه:

- قف! سنقول لك كلمة أخيرة. لن يكون لديك أولاد أبداً. أنت رجل شرير فاسد. لا أحد هنا يحبك. الغابة لا تحبك، ولا شجرة واحدة فيها ولا حتى حشيشة واحدة تحبك. أنت فاشستي. اذهب، ولا تعد أبداً، بسرعة!

وهرول أروزكول مولياً الادبار.

وقهقه كولوبيك في أثره وصاح:

- شنيل! شنيل!(*)

ولكي يخوفه فتح نيران رشاشه في الهواء.

كان الصبي فرحاً يهلل. وعندما اختفى أروزكول عن الأعين قال كولوبيك للبقية، الواقفين عند الباب شاعرين بالذنب:

- كيف كنتم تعيشون مع شخص كهذا! ألا تشعرون بالخجل؟

أحس الصبي بارتياح. لقد تمت المحاكمة العادلة. وآمن الصبي بهذا الحلم حتى أنه نسي أين هو، وبأية مناسبة يسكرون في بيت أروزكول.

. . .دوى انفجار القهقهات فأخرج الصبي من حالة الهناء هذه. فتح عينيه وأصغى. لم يكن الجد مأمون في الغرفة. ويبدو أنه خرج إلى مكان ما. وكانت النساء يجمعن الأوعية استعدادا لتقديم الشاي. وكان سيد أحمد يروي شيئاً ما بصوت عال، والحاضرون يضحكون من كلماته:

- وبعد ذلك؟

- - احكِ!

(*) بسرعة! بسرعة! (بالالمانية) المعرب.

وطلب منه أروزكول وهو يكاد يموت من الضحك:

- لا، اسمع، احكِ ثانية. بخصوص الحكايات.. احكِ كيف أخفته. أوه، لا أستطيع!

- هكذا إذن..- بدأ سيد أحمد يعيد عن طيب خاطر ما رواه من قبل.- ما إن اقتربنا من المارال، التي كانت واقفة في طرف الغابة، ثلاثتها هناك، وما إن ربطنا الخيول في الشجر حتى أمسك عجوزنا بيدي فجأة، وقال: «لا يمكن أن نطلق النار على المارال. نحن بوجيون، أبناء الغزالة الأم أم القرون!». ونظر إليّ كالطفل، وعيناه تتوسلان. أما أنا فكدت أموت من الضحك، ولكني لم أضحك، بالعكس، تصنعت الجدية، وقلت له: «ماذا دهاك، هل تريد أن تدخل السجن؟» فقال: «لا». - «فهل تعرف أن هذه الحكايات الإقطاعية قد ألفوها في عهود الإقطاع المظلمة لكي يرهبوا بها فقراء الناس!» ففغر فمه ثم قال: «ماذا تقول؟!» قلت له: «نعم، انتبه. ودعك من هذه الثرثرة، وإلا فلن أراعي أنك عجوز وأكتب فيك بلاغاً إلى الجهات المعنية».

- ها- ها- ها!- قهقه الحاضرون بصوت واحد.

وكان أروزكول أكثرهم ضحكاً. ضحك من صميم قلبه.

- ثم أخذنا نتسلل. لو كان حيوان آخر لهرب فلم يترك أثراً، أما هذه المارال المعتوهة فلم تركض، كأنما لا تخاف منا. فقلت لنفسي: هذا أحسن.- ومضى سيد أحمد الثمل يروي متفاخراً- وسرت في المقدمة ومعي البندقية، والعجوز من ورائي. وهنا داهمتني الشكوك. إنني لم اصب في حياتي حتى عصفور. فما بالك بهذا العمل. إذا لم أصبها فستنطلق في الغابة، ولتبحث عنها اذن. وهل يمكن أن تلحق بها. ستمضي إلى ما وراء الممر. أمن المعقول إذن أن نترك هذا الصيد يهرب؟ وعجوزنا صياد، كان يصرع الدب في زمانه. فقلت له:

«خذ البندقية يا شيخ، أطلق النار». فأبى بتاتاً! قال لي: «أطلق بنفسك»، فقلت له: «لكني سكران» وأخذت أتمايل كأني لا أقوى على الوقوف. وكان قد رآني عندما شربت معكم زجاجة فودكا بعدما أخرجنا الجذع من النهر. ولهذا تصنعت السكر.

- ها-ها-ها!

- قلت له: «إذا أنا لم أصب فستفلت المارال منا، ولن تعود ثانية. ولا ينبغي لنا أن نرجع بأيد خاوية. أنت تعرف هذا. أنت حر. لماذا أرسلونا إلى هنا؟» فصمت، ولكنه لم يأخذ البندقية. فقلت له: «طيب، كما تشاء». وألقيت بالبندقية على الأرض وكأني أهم بالانصراف. فجرى ورائي، فقلت له: «أنا لا يهمني، فلو طردني أروزكول فسأذهب إلى السوفخوز وأعمل هناك. وأنت، إلى أين تذهب وأنت عجوز؟» فسكت. وأخذت أنا أغني على مهل، يعني لتكتمل الصورة:

من الجبال الحمرا الحمراء
جئت على مهر أحمر
أيها التاجر الأحمر، افتح الباب!..

- ها- ها- ها!

- وصدق أني سكران حقاً، فعاد لإحضار البندقية. وعدت أنا أيضاً. وبينما كنا نتجادل ابتعدت المارال قليلاً. فقلت له: «احذر، قد تبتعد فلا تلحق بها. اضرب قبل أن تجفل». فأخذ العجوز البندقية. ورحنا نتسلل، بينما كان يتمتم طول الوقت كالمعتوه: «سامحيني يا أمنا الغزالة أم القرون، سامحيني...» أما أنا فأخذت أكرر: «احذر، لو أخطأت الهدف فلتهرب مع المارال إلى آخر الدنيا، الأفضل ألا تعود».

- ها-ها-ها-! . .

وسط ابخرة الفودكا والقهقهات أحس الصبي بأن الجو أصبح حاراً خانقاً. وكاد رأسه ينفجر من الصداع المنتفخ الذي لا يتسع له رأسه. وخيل إليه أن احدا ما يركله في رأسه بقدميه، وأن أحداً ما يمزق رأسه بالفأس. وخيل إليه أن أحداً ما يسدد الفأس إلى عينيه، فأخذ يهز رأسه محاولاً أن يتفادى الضربة. وفجأة وجد نفسه، وهو يلهث من الحر، في نهر شديد البرودة. وتحول إلى سمكة. الذيل والجسم والزعانف. . كل شيء مثلما في السمك، إلا رأسه فظل كما هو، وأيضاً كان يؤلمه. سبح في الأعماق الباردة المظلمة المكتومة، وفكر في أنه سيبقى منذ الآن وإلى الأبد سمكة، ولن يعود إلى الجبال. وقال لنفسه: «لن أعود. الأفضل أن أكون سمكة، الأفضل أن أكون سمكة. . .»

ولم يلحظ أحد كيف هبط الصبي من السرير وخرج من البيت. وما كاد ينعطف خلف ركن البيت حتى دهمه القيء. تشبث بالجدار وهو يئن، ويبكى، ودمدم من خلال الدموع وهو يختنق:

- لا، الأفضل أن أصبح سمكة. سأسبح بعيداً من هنا. الافضل أن أصبح سمكة.

وخلف النوافذ في بيت أروزكول تصاعدت قهقهات وتصايحت أصوات مخمورة. وأصمّت هذه القهقهة الوحشية الصبي وسببت له عذابا وألماً لا يطاق. وخيل إليه أن السبب في سوء حالته هو سماعه لهذه القهقهة الفظيعة. وبعد أن استرد أنفاسه مضى إلى الفناء. كان الفناء مقفراً. وبجوار الموقد المنطفئ عثر الصبي على الجد مأمون ثملاً إلى حد الموت. كان العجوز ممددا هنا في التراب بجوار القرون المفصولة عن رأس الغزالة الأم أم القرون. وكان الكلب يقضقض قطعة من رأس المارال. لم يكن هناك أحد آخر.

وانحنى الصبي فوق جده وهزه من كتفه قائلاً:
- يا جدي، هيا بنا إلى البيت. هيا بنا.
ولم يردّ العجوز عليه، فلم يكن يسمع شيئاً، ولم يستطع أن يرفع رأسه. وما الذي كان بوسعه أن يردّ به، ماذا يقول؟
ورجاه الصبي:
- انهض يا جدّي، فلنذهب إلى البيت.
من يدري.. هل كان الصبي يدرك بعقله الطفولي، أم أنه لم يجل بخاطره، أن مأمون العجوز كان ممدداً هنا تكفيراً عن حكايته عن الغزالة الأم أم القرون، وأنه رغماً عنه تطاول على ما كان يوصيه به طوال حياته: على ذكرى الجدود، على ضميره ووصاياه، وأنه أقدم على ذلك من أجل ابنته المنحوسة، ومن أجله هو، حفيده...
والآن، رقد العجوز صريع البلوى والعار، رقد كالقتيل، منكفئاً على وجهه، لا يرد على نداء حفيده.
جلس الصبي إلى جوار جده محاولاً أن يوقظه. وأخذ يرجوه:
- يا جدي، ارفع رأسك، هيا...- كان وجه الصبي شاحباً وحركاته ضعيفة، ويداه وشفتاه ترتعش.- يا جدي هذا انا. هل تسمعني؟- ومضى يقول - حالتي سيئة جداً، - وبكى - رأسي يؤلمني. يؤلمني جداً.
وأنّ العجوز، وتحرك قليلاً، ولكنه لم يستطع أن يفيق. وفجأة سأله الصبي من خلال دموعه:
- يا جدي، هل سيأتي كولوبيك؟- وراح يهزه - قل لي، هل سيأتي كولوبيك؟
وأجبر جده على أن ينقلب على جنبه، وانتفض عندما تحول إلى ناحيته وجه العجوز المخمور، الملوث بالوحل والتراب، بلحية صغيرة بائسة ملبدة، وتراءى للصبي في تلك اللحظة رأس المارال الأم البيضاء

الذي مزقته فأس أروزكول منذ وقت قريب. أجفل الصبي فزعاً، وتقهقر مبتعداً عن جده، وقال:

- سأصبح سمكة. هل تسمعني يا جدي؟ سأرحل. وعندما يأتي كولوبيك قل له إنني أصبحت سمكة.

ولم يرد العجوز.

ومضى الصبي يجرجر قدميه. هبط إلى النهر. وخطا في الماء مباشرة...

لم يكن أحد قد عرف بعد أن الصبي سبح سمكة في النهر. وفي الفناء ترددت أغنية ثملة:

من الجبال الحدباء الحدباء
جئت على جمل أحدب
أيها التاجر الأحدب، افتح الباب
سنشرب خمراً مرّاً!..

لقد رحلت يا ولدي. لم تنتظر كولوبيك. يا للأسف لم تنتظر كولوبيك. لماذا لم تركض إلى الطريق. فلو أنك ركضت طويلاً على الطريق، لقابلته حتماً. ولعرفت سيارته من بعيد. ولو أنك رفعت يدك لتوقف كولوبيك على الفور.

ولسألك:

- إلى أين؟

ولأجبته:

- إليك!

ولأخذك معه في الكابينة. ولانطلقتما. أنت وكولوبيك. ولركضت أمامكما على الطريق الغزالة الأم أم القرون دون أن يراها أحد. أما أنت فكنت تراها.

ولكنك رحلت. فهل كنت تعلم أنك لن تصبح سمكة أبداً. وأنك لن تصل إلى ايصيق - كول، ولن ترى السفينة البيضاء، ولن تقول لها: «مرحباً أيتها السفينة البيضاء، هذا أنا!»

ليس لدي ما أقوله الآن إلا هذا: لقد رفضت ما لم تستطع روحك الطفولية أن تسلم به. وفي هذا عزائي. لقد عشت كالبرق الذي لمع مرة وانطفأ. والبروق تقدحها السماء. والسماء خالدة. وفي هذا عزائي.

وعزائي أيضاً أن ضمير الأطفال في الإنسان هو كالجنين في البذرة، وبدون الجنين لا تنبت البذرة. وأياً كان ما سنلقاه في الدنيا فستبقى الحقيقة إلى أبد الآبدين، ما ظل الناس يولدون ويموتون. . .

وإذ أودّعك يا ولدي، فإنني أردّد كلماتك: «مرحباً أيتها السفينة البيضاء، هذا أنا!».

الكلب الأبلق الراكض
عند حافة البحر

مهداة إلى فلاديمير سانجي

في ليلة حالكة، مشبعة بالرذاذ المتطاير والبرودة، وعلى امتداد شاطئ بحر أخوتسك كله، على جبهة التقاء الماء واليابسة بطولها، دار الصراع الأبدي المشبوب بين قوتين من قوى الطبيعة: فقد كانت اليابسة تقف بوجه حركة البحر، وكان البحر يهاجم اليابسة بلا كلل.

وفي الظلام كان البحر يهدر ويتململ وهو ينقض ويتحطم على الصخور. وتأوهت الأرض الصخرية الصلبة بلوعة وهي تصد ضربات البحر.

وهكذا هما في الصراع منذ بدء الخليقة.. منذ أن أصبح النهار نهاراً والليل ليلاً، وسيظلان هكذا قدما، طوال الايام والليالي ما بقيت الأرض والبحر في الزمن اللانهائي...

طوال الأيام وطوال الليالي...

وها هي ليلة أخرى تمر. ليلة ما قبل الخروج إلى البحر. لم ينم تلك الليلة. لأول مرة في حياته لم ينم، لأول مرة في حياته يذوق طعم السهاد. كانت الرغبة شديدة في أن يأتي النهار بسرعة، لكي يندفع إلى البحر. وسمع وهو راقد على جلد فقمة كيف كانت الأرض تهتز تحته هزات لا تكاد تلحظ من ضربات البحر، كيف دوت الأمواج وتململت في الخليج. لم ينم وظل يصغي إلى الليل...

في زمن ما كان كل شيء مختلفاً تماماً. أما الآن فلا يمكن حتى مجرد تصور ذلك، ولا يعرف أحد، بل ولا حتى يخمن بأنه لولا بطة «لوفر» آنذاك لأصبح العالم غيره تماماً، ولما واجهت اليابسة الماء، ولما واجه الماء اليابسة. ففي أول البداية - في بداية المبتدأ - لم يكن للأرض أي وجود في الطبيعة، لم تكن هناك حتى ذرة غبار. كانت المياه ممتدة في كل مكان، المياه، ولا شيء غير المياه. ظهرت المياه من تلقاء نفسها في حركتها الدائمة، في الأغوار السحيقة السوداء والدوامات الهائلة. وتدفق الموج فوق الموج، وانتشر في جميع جهات العالم الذي كان بلا جهات آنذاك، من لا مكان إلى لا مكان.

أما بطة «الوفر»، نعم، نعم، تلك البطة العادية ذات المنقار العريض التي ما تزال إلى اليوم تحلق فوق رؤوسنا أسرابها، هذه البطة كانت تحلق في ذلك العهد وحيدة تماماً فوق العالم، ولا تستطيع أن تجد مكاناً لتضع فيه بيضتها. لم يكن في العالم، ولا شيء غير المياه، لم تكن هناك حتى قشة لتصنع منها العش.

حلقت بطة «لوفر» وهي تصيح عالياً.. كانت تخشى ألا تستطيع الاحتفاظ بالبيضة فتسقط منها في الأغوار السحيقة. وأينما اتجهت بطة «لوفر»، واينما بلغت في طيرانها، فقد كانت الأمواج تطرطش تحت جناحيها، وكانت المياه العظيمة منبسطة على المدى بلا بداية ولا انتهاء ولا شطآن. وأرهقت بطة «لوفر»، وأيقنت أنه لا مكان في العالم كله لتبني فيه عشها.

وعند ذاك حطت بطة «لوفر» على الماء، وانتزعت ريشات من صدرها وصنعت منها عشاً. ومن ذلك العش الطافي بدأت اليابسة تتكون. وشيئاً فشيئاً كبرت اليابسة، وشيئاً فشيئاً أخذت تقطنها شتى الدواب. وكان الإنسان بينها، وفاقها جميعاً... فقد تمكن من السير على الثلج بزلاجات والسباحة في الماء بقارب. وأصبح يصطاد

الحيوان، والأسماك، ويطعمها ويكثر نسله.

وآه لو علمت بطة «الوفر» كم ستصبح الحياة صعبة بظهور اليابسة وسط مملكة المياه المطلقة. فمنذ أن ظهرت الأرض والبحر لا يستطيع أن يهدأ. ومن يومها والبحر يصارع اليابسة، واليابسة تصارع البحر. وقد تشق الحياة على الإنسان أحياناً غاية المشقة وهو بينهما، بين اليابسة والبحر، والبحر واليابسة. والبحر لا يحبه لأنه متعلق بالأرض أكثر...

اقترب الصباح. ليلة أخرى مرت، وصباح جديد يولد. وفي الغسق الرمادي الذي بدأ يشف، أخذ يبين تلامس البحر الهادر بالشاطئ كما تبين شفة الأيل عبر غلالة بخار زفيره الزرقاء. كان البحر يتنفس. وعل امتداد التلامس الفوار بين اليابسة والبحر تصاعد بخار الرذاذ المتطاير البارد، وعلى الشاطئ كله، يطول امتداده، ارتفع صخب اصطفاق الامواج العنيدة.

كانت الأمواج عنيدة في مسعاها.. تندفع جبارة، موجة اثر موجة لمهاجمة اليابسة وهي تصعد فوق طبقة الرمال الباردة الصلبة، وتتسلق جلاميد الصخر البنية الملساء صاعدة إلى أعلى بكل ما وسعها من قوة وامتداد، وتتلاشى الموجة اثر الموجة كما يتلاشى الزفير عند قمة ارتقائها، مخلفة وراءها رغوة خاطفة، ورائحة عطنة من الأعشاب البحرية المخضوضة.

وفي بعض الأحيان كانت دفقة الأمواج تقذف إلى الشاطئ بشظايا كتل جليدية لا يعلم أحد من أين جاءت بها حركة المحيط الربيعية. وما إن تستقر هذه الكتل الضالة على الرمل حتى تتحول إلى قطع من البحر المتجمد لا حول لها ولا معنى. وتعود الأمواج التالية بسرعة فتحملها ثانية إلى البخر الهادر.

اختفى الظلام. وراح الصباح يمتلئ نوراً أكثر فأكثر. وبالتدريج

بدأت تتضح ملامح الأرض، وبالتدريج راقت صفحة البحر.

أما الامواج التي أثارتها ريح الليل فمضت تفور على الشاطئ بذؤاباتها البيضاء المتلاحقة، إلا أنها قد هدأت واستكانت في الاعماق في آماد البحر البعيدة، وترقرقت باهتزازات ثقيلة كالرصاص عند ذلك الطرف البعيد.

وزحفت غيوم من البحر وهي تقترب من تلال الشاطئ.

وفي هذا الموضع، بالقرب من خليج «الكلب الأبلق»، في شبه الجزيرة الجبلية هذه، ارتفعت رابية صخرية مائلة نحو البحر، متميزة عما عداها، وكانت من بعيد تشبه بالفعل كلباً أبلق ضخماً، يركض عند حافة البحر لبعض شؤونه. وكانت هذه الرابية المغطاة من جنباتها بالأحراج والشجيرات المتناثرة بقعاً بقعاً، والمحتفظة حتى ذروة الصيف الحار ببقعة بيضاء من الثلج فوق الرأس، كما لو كانت أذناً طويلة مهدلة، وببقعة أخرى بيضاء كبيرة بين الفخذين - في الفجوة الظليلية - كانت رابية الكلب الأبلق ترى دائماً في كل اتجاه.. من البحر ومن الغابة.

ومن هنا، من خليج الكلب الأبلق، في الصباح، عندما ارتفعت الشمس مقدار قامتي شجرة حور، أبحر قارب من قوارب النيفخ(*). وكان في القارب ثلاثة صيادين ومعهم صبي. وجلس اثنان من الرجال - وكانا الأكثر شباباً وقوة - يجذفان بمجاذيف أربعة. وفي مؤخرة القارب استقر أكبرهم سناً يدير الدفة، وهو يمص غليون الخشبي بوقار. كان شيخاً بني الوجه، نحيلاً، بارز الحرقدة، مليئاً بالتجاعيد، وخاصة رقبته المخددة بالشقوق العميقة، وكانت يداه متسقتين مع

(*) النيفخ: قومية من قوميات سكان آسيا القدماء. تقطن عند مصب نهر آمور وجزيرة سخالين. المعرب.

هيئته: كبيرتين، محرشفتين عند المفاصل، مغطاتين بالندوب والشقوق. كان أشيب. أبيض تقريباً. وعلى خلفية وجهه البني برز بشدة حاجباه الأشيبان. وكان العجوز كالعادة يزر عينيه الدامعتين الحمراوين، فقد كان طوال حياته يحدق في صفحة المياه بانعكاسات أشعة الشمس عليها، وكأنه يوجه القارب في الخليج وهو لا يرى. أما في الطرف الآخر للقارب فقد تربع كطائر البكاشين على مقدمة القارب تماماً صبي أسود العينين، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وهو يسترق النظر إلى الكبار بين الحين والحين، ويجبر نفسه بجهد بالغ على الثبات في موضعه والإقلال من تململه حتى لا يثير غضب العجوز العابس.

كان الصبي مضطرباً. واتسع منخاراه بتوتر من شدة الانفعال، وظهرت في وجهه بقع النمش المختفية. لقد ورث ذلك عن أمه فهي أيضاً عندما تسر بشدة، تظهر على وجهها بقع النمش المختفية. وكان ثمة ما يثير اضطراب الصبي. فهذه الرحلة في البحر كانت مخصصة له، لتعويده على حرفة الصيد. ولهذا كان الصبي كيريسك يدير رأسه حواليه كالبكاشين، ويجيل طرفه في كل ما حوله باهتمام لا يفتر وفروغ صبر. فلأول مرة في حياته يخرج كيريسك إلى عرض البحر مع صيادين حقيقيين، في رحلة صيد حقيقية، وفي قارب العشيرة الكبير. وساورته رغبة شديدة في النهوض من مكانه وحث المجذفين على الإسراع، وتاق بشدة إلى أن يمسك بالمجاذيف وينهمك في التجذيف بكل قواه، لكي يصلوا بسرعة إلى الجزر التي كان من المقرر أن يقوموا فيها بصيد الحيوان البحري. ولكن هذه الرغبات الصبيانية قد تبدو مضحكة للكبار الجادين. ولما كان يخشى ذلك فقد حاول بكل طاقته ألا يفصح عنها. ولكنه لم يفلح في هذا تماماً. فقد كان عسيراً عليه أن يكتم سعادته، وفضحته الحمرة الملتهبة التي ضرجت خديه

الأسمرين المشدودين. وأهم من ذلك عيناه... عينا الصبي المشرقتان، الصافيتان، الملهمتان، اللتان لم يكن بوسعهما أن تخفيا الفرحة والكبرياء الطاغيتين على روحه المتهللة. فأمامهم البحر، وأمامهم الصيد الكبير!!!

وكان العجوز أورجان يفهم الصبي. وبينما كان يحدد اتجاه القارب في البحر بعينيه المزرورتين كان يلاحظ مزاج الصبي المتململ في جلسته لفروغ صبره. ويشع الدفء من عيني العجوز - آه يا للطفولة، يا للطفولة!- ولكنه كان يكتم البسمة في زاويتي فمه الغائر في الوقت المناسب بالانكباب على مص الغليون شبه المنطفئ. لا ينبغي أن يكشف عن ابتسامته. فالصبي لم يركب معهم القارب للتسلية. بل كان عليه أن يبدأ حياته كصياد بحري.. يبدأها لكي ينهيها في وقت ما في البحر.. ذلك هو مصير الصياد البحري، لأنه ليس هناك في الدنيا ما هو أصعب وأخطر من الصيد في البحر. ولا بد من التعود على ذلك منذ الصغر. ولذلك قال الأسلاف «الذكاء من السماء، والمهارة منذ الصغر». وقالوا أيضاً: «الصياد السيئ عالة على العشيرة». وهكذا فإذا أراد الرجل أن يكون مطعما فعليه أن يستوعب حرفته منذ الصغر. وقد جاء الدور على كيريسك، وحان وقت تدريبه وتعويده على البحر.

كان الجميع يعرفون ذلك، جميع سكان قرية «حورية البحر» عند رابية الكلب الأبلق كانوا يعرفون أن رحلة اليوم إلى البحر قد دبرت من أجله هو، كيريسك، الصياد والمطعم المقبل. فهكذا جرت العادة، فكل من ولد رجلاً عليه أن يتآخى مع البحر منذ الصغر، حتى يعرفه البحر وحتى يحترم هو البحر. ولذلك مضى شيخ العشيرة نفسه، العجوز أورجان، واثنان من أفضل الصيادين: والد الصبي، امرايين، وابن عم أبيه، ميلجون، مضوا إلى البحر وفاء لدين الكبار أمام

الصغار، أي وفاء لدينه هو الصبي كيريسك هذه المرة، حيث عليه منذ الآن وإلى الأبد أن يعرف البحر، منذ الآن وإلى الأبد، وفي أيام التوفيق والفشل.

ليكن كيريسك صبياً بعد، وليكن لبن الأم على شفتيه لم يجف بعد، وليس معروفاً ما إذا كان سيفلح أم لا، ولكن من يدري، ربما أصبح كيريسك بالذات مطعم العشيرة وعمادها، عندما يتنحون عن العمل بعد أن يصبحوا شيوخاً لا حول لهم. تلك طبيعة الأشياء، وهكذا تجري الأمور عبر الأجيال، جيلاً بعد جيل. وهذه سنة الحياة.

ولكن أحداً لن يتحدث عن ذلك علانية. فالمرء يفكر في ذلك بينه وبين نفسه، ولا يفصح عنه إلا نادراً. ولهذا فإن أحداً من أبناء «حورية البحر» هناك على شاطئ الكلب الأبلق، لم يعر اهتماماً خاصاً لهذا الحدث: أول رحلة صيد لكيريسك. على العكس، لقد تظاهر أبناء عشيرته بأنهم لا يلحظون خروجه إلى البحر مع الصيادين الكبار، وكأنهم لا يأخذون مأخذ الجد هذه المبادرة.

لم تودعه سوى أمه، وحتى هي ودعته قبل أن يبلغا الخليج ودون أن تجهر بكلمة عن الرحلة المزمعة. «حسناً، اذهب إلى الغابة!»- قالت لابنها بعبارة واضحة متعمدة، ولم تنظر إلى البحر بل إلى ناحية الغابة - «واجتهد أن تكون الأحطاب جافة، ولا تضل طريقك في الغابة». كانت تقول ذلك لكي تخفي الآثار وتحمي ابنها من الأرواح الشريرة. ولم تذكر كلمة واحدة عن أبيه، وكأنما لم يكن امرايين أباه، وكأنما هو لا يذهب إلى عرض البحر مع أبيه بل مع أناس جمعته بهم محض صدفة - وكان إعراضها عن ذكر أبيه مقصوداً أيضاً لكي لا تعرف الأرواح الشريرة أن امرايين وكيريسك أب وابن. فالأرواح الشريرة تمقت الآباء والأبناء عندما يشتركون معاً في الصيد. فقد تودي بأحدهما حتى تسلب الآخر قواه وإرادته، وحتى يقسم أحدهما من

هول الفاجعة ألا يعود إلى البحر وألا يلج الغابة. وهكذا هي الأرواح الشريرة التي ما تفتأ تتربص وتتحين الفرصة لكي تنزل الضرر بالبشر.

أما كيريسك فلم يكن يخاف الأرواح الشريرة، إذ لم يعد صغيرا. ولكن امه تخافها، وتخاف عليه بصفة خاصة. تقول له: أنت ما زلت صغيراً. وما أسهل أن تضللك وتودي بك. وهذا صحيح. آه من هذه الأرواح الشريرة! كم من بلايا تنزلها بالصغار.. قد تصيبهم بشتى الأمراض، أو بضرر ما، أو قد تلحق بالطفل عاهة حتى لا يصبح صياداً، وعندئذ من سيكون بحاجة إليه! ولذلك فمن المهم جداً أن تحذر الأرواح الشريرة، وخاصة وأنت صغير لم تبلغ الرشد بعد. أما حين يقف الإنسان على قدميه، ويصبح قائما بذاته، فلا خوف عندئذ من أية ارواح شريرة. فلن تقدر عليه، فهي تخشى الأقوياء.

وهكذا ودّعت الأم ابنها. وقفت قليلاً في صمت، وقد كتمت في هذا الصمت خوفها وضراعتها وأملها، ثم أقفلت عائدة دون أن تلتفت خلفها إلى البحر مرة واحدة، ودون أن تذكر والد الصبي بكلمة، وكأنها حقاً لم تعرف إلى أين يمضي زوجها وابنها، علماً بأنها في العشية رتبت لهما متاع الرحلة، وأعدت لهما طعاماً يكفي لثلاثة أيام في البحر، أما الآن فتظاهرت بأنها لا تعرف شيئاً من شدة خوفها على ابنها. ومن شدة خوفها لم تبدر منها بادرة تنم عن قلقها، حتى لا تفطن الأرواح الشريرة إلى الخوف الذي يعتمل في قلبها.

عادت الأم قبل أن يبلغا الخليج، ومضى الصبي في طريق متعرج بين الأحراج حتى يخفي أثره ويضلل من يقتفيه من الأرواح الشريرة الخفية كما أوصته أمه، إذ لم يشأ أن يشقيها في يوم كهذا، ثم انطلق ليلحق بالرجال الذين سبقوه كثيراً.

وسرعان ما لحق بهم. كانوا يسيرون دون عجلة، محملين بالزاد والبنادق والعتاد على الأكتاف. سار في المقدمة العجوز أورجان، ومن

خلفه امرايين الملتحي، بقامته المديدة وكتفيه العريضتين، ومن ورائه ميلجون الربعة المكتنز المستدير كلجدع وهو يخطو بساقيه المعوجتين. كانوا يرتدون ثياباً قديمة، من أجل البحر. مصنوعة من الفراء والجلود المدبوغة لكي تحفظ الدفء ولا تبتل. أما كيريسك فكان يبدو أنيقاً بالمقارنة بهم. فقد اهتمت أمه بذلك، وأعدت له لباسه البحري منذ وقت بعيد. وطرزت له الحذاء والملابس الخارجية من أطرافها. ولم تكن ثمة حاجة لذلك في البحر، ولكن الأم هي الام.

وعندما حاذاهم كيرسك أبدى ميلجون دهشته مازحاً وقال:

- أوه، كنا نظنك ستبقى. . ظننا أنهم سحبوك من يدك إلى البيت!

وكاد كيريسك يختنق من شدة الغضب وهو يقول:

- ولماذا أبقى؟ هذا لا يمكن أبداً! أنا أبقى؟!

فقال ميلجون يطيب خاطره:

- حسناً، حسناً، ألا تفهم المزاح، دعك من هذا. مع من نتكلم في البحر سوى مع أنفسنا. خذ، احمل هذا أفضل!

وناوله بندقيته فسار الصبي بجواره ممتناً.

كان أمامهم شحن القارب والإقلاع.

وهكذا خرجوا إلى البحر. أما العودة فستكون بصورة مختلفة، إذا حالفهم الحظ فعادوا بالصيد. عندها سيكرمون الصبي بما يستحقه من تكريم. سيكون عيد لقاء الصياد الفتى، وسيغنون الأغاني عن كرم البحر، الذي تتكاثر في أعماقه اللامتناهية الأسماك والحيوانات التي هي من نصيب الصيادين الأقوياء الأشاوس. وسيمجدون في الأغاني حورية البحر التي أنجبتهم ومنها خرج نسل حورية البحر إلى الأرض. وعندها ستدوي الطبول المصنوعة من الجذوع المجوفة تحت ضربات العصي من أغصان القبقب، ووسك الراقصين سيتحدث العرّاف - أكثر الناس حكمة - مع الأرض والمياه عنه، عن كيريسك، الصياد

الجديد. نعم، نعم، عنه سيتحدث العرّاف إلى الأرض والمياه، وسيضرع ويبتهل لكي تظلا رحيمتين به، ولكي يصبح صياداً عظيماً، ويكون الحظ حليفه دوماً في البر والبحر، ويكتب له أن يقسم الصيد بالعدل على الكبار والصغار. وسيضرع العرّاف الحكيم ويبتهل أيضاً لكي يولد لكيريسك أبناء، ويبقوا جميعاً على قيد الحياة، حتى يتكاثر نسل حورية البحر العظيمة ويتصل الخلف:

أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟
رحمك الدافئ يهب الحياة
رحمك الدافئ أنجبنا عند البحر
رحمك الدافئ أفضل بقعة في الدنيا
ايت تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟
ثدياك الأبيضان... مثل رأسي فقمة
ثدياك الأبيضان أرضعانا عند البحر
أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟
أقوى رجل فينا سيسبح اليك
لكي يزدهر رحمك،
لكي يتكاثر في الأرض نسلك...

مثل هذه الاغاني ستغنى في العيد وسط الرقص والصخب. وفي ذلك العيد سيتخذ إجراء آخر هام بالنسبة لكيريسك. فسيعهد العرّاف، وهو يرقص بجنون، بمصير كيريسك الصياد إلى إحدى نجوم السماء. فلكل صياد نجمته التي تحميه. ولكن أحداً لن يعرف أبداً ما هي النجمة التي سيعهد إليها بمصير كيريسك، لن يعرف بذلك سوى العرّاف نفسه وتلك النجمة الحارسة الخفية، ولا أحد غيرهما. وما أكثر النجوم في السماء...

بالطبع ستفرح أمه وأخته أكثر الجميع، وستغنيان بصوت أعلى من الكل وسترقصان. وأبوه امرايين سيسمى بالوالد بملء الفم، وسيكون هو أيضاً سعيداً وفخوراً. أما الآن فليس أباً بعد. فليس في البحر آباء وأبناء، بل الجميع في البحر سواسية ويمتثلون للأكبر سناً. فما يقول الأكبر سناً يفعلون. ولن يتدخل الأب. ولن يشكو الابن لأبيه. هكذا الواجب.

وعلى الأرجح ستفرح موزلوك أيضاً كثيراً، تلك الفتاة التي كان يلعب معها صغيراً. أصبحا الآن يلعبان أقل. ومنذ هذه الساعة لن يلعبا أبداً، فليس لدى الصياد وقت للعب...

* * *

سار القارب حثيثاً وهو يتأرجح قليلاً بين الأمواج. وخلفوا وراءهم منذ وقت بعيد خليج الكلب الأبلق، واجتازوا «الرأس الطويل»، وعندما خرجوا من الخليج إلى البحر وجدوا أن أمواجه ليست أعلى من أمواج الخليج. كانت الأمواج تطرطش على ارتفاع واحد، وعلى فترات متساوية. وفوق مثل هذه الأمواج الثابتة يمكن الإبحار بسرعة.

سار الزورق سيراً بطيئاً وبهمة.. هذا الزورق المحفور من جذع شجرة حور هائلة. وكان راسخاً في سيره فوق الموج الأمامي والجانبي على حد سواء، وسلس القياد.

كان العجوز أورجان يمص غليونه الذي انطفأ ويشعر بالمتعة من سير الزورق الراسخ، وفي أعماق قلبه يحس بأنه هو نفسه الزورق المبحر في البحر البارد، وقد غاص إلى نصف جنبه في الماء. وكأنما هو نفسه يسبح في آفاق البحر، على وقع صرير المجاذيف المنتظم وضرباتها المتسقة. كأنما هو نفسه يتحرك ويشق مرونة الأمواج المقابلة بصدره، ويتأرجح قليلاً من صدمات الماء ودفعه. وأثار فيه هذا الإحساس بالاندماج الكامل مع حركة القارب تأملات غريبة. كان

راضياً عن القارب، بل راضياً جداً، أليس هو الذي حفره ونجره. اجتثوا شجرة الحور معاً، فلم يكن هذا بوسعه وحده، ولا حتى بوسع أربعة. ولكنه عمل في إعداد القارب وحده. ظل ثلاثة أصياف يجففه وينجره، وحتى آنذاك فقد أدرك أنه سيكون أفضل قارب بين القوارب التي صنعها في حياته. ولكنه شعر لاإرادياً بالحزن وهو يفكر في ذلك.. فماذا لو أن هذا القارب آخر واحد في عمره؟ كم يود أن يعيش قليلاً، وأن يخرج إلى الصيد في البحر، ويصنع قاربين آخرين قبل أن يكل بصره ويفقد حسه.

وبينما كان يفكر في هذا، راح يحدث القارب بأفكاره: «إنني أحبك وأثق بك يا أخي القارب. إنك تعرف لغة البحر. إنك تعرف طباع الموج، وهذا سر قوتك. أنت قارب جدير، أحسن قارب صنعته. أنت قارب كبير، تتسع لفقمتين كبيرتين وفقمة صغيرة. أنت تجلب الحظ لنا، ولهذا أحترمك. نحن جميعاً نحبك عندما تئن تعباً من ثقل صيدنا، وعندما تعود إلى الشاطئ غائصاً حتى حوافيك، بل وينزلق الماء إلى داخلك. عندها يركض الجميع إلى الشاطئ لاستقبالك، يا أخي القارب!

فإذا مت أنا، فلتعش طويلاً، ولتبحر بعيداً إلى الأماكن الغنية بالصيد. وإذا مت، فلتسبح في البحر مع صيادين شبان أقوياء. وإذا مت فلتكن في خدمتهم كما كنت في خدمتي. ولتعش يا أخي القارب، حتى ترى غرّنا هذا، الجالس هناك في المقدمة يدير رأسه ولا يطيق صبراً - فلو كان ما أمامه ليس ماء بل أرضاً، لركض وحده إلى الصيد الكبير وأنجز كل شيء بمفرده كما يخيل إليه - لتعش يا أخي القارب حتى يكبر هو أيضاً، وحتى يبحر معك إلى الأماكن البعيدة والقريبة. أما اليوم فهو معنا في البحر لأول مرة. هذا مطلوب. فليتعود. نحن سنمضي، أما هو فأمامه سنوات طويلة. فإذا ما وفق أن

يصبح مثل أبيه، امرايين، فسيكون إنساناً نبيهاً، وليس واحداً من أمثال هؤلاء الثرثاريين. فامرايين على الأرجح أحسن صياد بين الصياديين الحاليين. رجل قوي، شاطر. في وقت ما كنت أنا هكذا. في أوج قواي. والنساء كن يحببنني آنذاك. وكنت أظن أن العمر دهر. ولا تدرك أن الأمر ليس كذلك إلا متأخراً. أما الشبان فلا يخطر لهم ذلك على بال. فمثلاً امرايين وميلجون في الغالب لا يفكران في هذا بعد. حسناً، سيعرفان فيما بعد. أما الآن فيجذفان بمهارة وقوة. وميلجون ند لامرايين. إنهما زوج يعتمد عليه، ذو جَلَد. يبدو القارب وكأنه يسير وحده دون عناء. ولكن ذلك يبدو فقط. ففي البحر يسير المرء بيديه. ولا يزال أمامهم الكثير من التجذيف. سيبحرون اليوم حتى حلول الظلام إلى أن يصلوا إلى «الحلمة الثالثة». وسيمضون نهار الغد كله في طريق العودة. من الصباح إلى المساء. وسأتناوب التجذيف مع كل منهما. ولكن ما أشق أن تعبر البحر كله بالمجاذيف. وعندما نعود بالصيد سنقيم عيداً.

هل تسمعني، هل تفهمني يا أخي القارب؟ ستحملنا إلى الجزر، إلى «الحلمات الثلاث»، إلى موضع الصيد الكبير. فمن أجل هذا نبحر. فهناك على الشاطئ، في المراقد، سنجد الفقمة. قريباً يبدأ موسم التكاثر، ولذلك تجتمع الفقمات أسراباً على الجزر.

هل تفهمني يا أخي القارب؟ نعم أنت تفهمني، لقد بدأت أحدثك قبل أن تعرف البحر بعد، عندما كنت لا تزال في رحم شجرة الحور العظيمة في الغابة. لقد أطلقتك من رحم الشجرة وها نحن نبحر معاً.

وعندما لا أعود على قيد الحياة، لا تنسني يا أخي القارب. تذكرني عندما تكون في البحر...».

هكذا كان أورجان يفكر، وهو يوجه القارب مسترشداً بالعلامة الرئيسية على الشاطئ، رابية الكلب الأبلق، ومنها إلى البحر في خط

مستقيم. كان لهذه الرابية الصخرية خاصية غير عادية أشار إليها كل من أبحر. ففي الجو الصحو كانت تبدو وكأنها تعلو كلما ابتعدت عنها. وكأنما الكلب الأبلق يقتفي أثر المبحرين وهو لا يريد أن يتخلف عنهم. وكلما تلفتّ تجد الكلب الأبلق ظاهراً. وتظل هذه الرابية مرئية طويلاً بعد أن تبتعد عنها، ثم تختفي فجأة عن الأعين خلف هوة المياه. إذن فقد رجع الكلب الأبلق، إذن فقد خلفوا الأرض بعيداً وراء ظهورهم...

وعندئذ ينبغي أن نتذكر، وتتذكر جيداً، في أية جهة بقي الكلب الأبلق، وينبغي أن تتذكر اتجاه الريح وموضع الشمس بالنسبة للرابية، وأن ترصد السحب إذا كنت مبحراً في جو هادئ، وتمضي في البحر حتى الجزر متذكراً طوال الوقت موقع الكلب الابلق، حتى لا تضل في آماد البحر.

مضوا إلى الجزر الواقعة على مسافة نهار سباحة. كانت تلك جزراً صخرية صغيرة مقفرة.. ثلاث قطع من اليابسة، تنتصب على شكل ثلاث حلمات وسط مياه اللامحدودة. ولذلك سميت بجزر«الحلمات الثلاث»: الصغرى، والوسطى، والكبرى. وإذا أبحرت إلى ما وراءها فستجد الطريق إلى المحيط، الذي لم تكن له أبعاد، ولا يعرف أحد ما اسمه.. مياه عظيمة، مجهولة، لم يبحر بها أحد. مياه الخلود التي ظهرت من تلقاء نفسها، منذ بدء الخليقة، منذ ذلك العهد الذي كانت تحلق فيه بطة «الوفر» صارخة، بحثاً عن مكان صغير لعشها، قطعة من اليابسة بحجم راحة اليد، فلم تستطع أن تجدها في الدنيا كلها. وهناك في تلك الجزر، على تخوم البحر والمحيط، وفي هذه الأيام الربيعية امتدت مراقد الفقمة. ومن أجل هذا مضوا إلى هنا، من أجل ذلك ولوا وجوههم إلى هنا...

ذهل الصبي إذ رأى البحر مختلفاً تماماً عما كان يتصوره وهو يلهو

على سفوح الكلب الأبلق، بل ومختلفاً عما كان عليه أثناء النزهات بالقوارب. وأحس بذلك بصورة حادة، خاصة لما خرجوا من الخليج، عندما انفسح البحر فجأة فملأ كل المدى المنظور حتى السماء، وأصبح جوهر الكون الوحيد المترامي الذي لا يحده البصر.

صعق البحر العريض كيريسك. لم يكن يتوقع أن يرى مشهداً كهذا. فلا شيء سوى المياه.. المياه المتحركة الثقيلة.. ولا شيء سوى الموج، الذي ينبثق بسرعة، ويندثر على الفور.. ولا شيء سوى الأعماق.. الأعماق المظلمة المنذرة..ولا شيء سوى السماء، بسحب بيضاء متنقلة، خفيفة بعيدة المنال. ذلك هو العالم الكائن، ولا شيء آخر، ولا شيء غيره سوى البحر نفسه.. لا صيف، ولا شتاء، لا كثبان ولا وهاد.

كانت المياه تغمر الكون من طرف إلى طرف.

بينما سار القارب يتهادى فوق الأمواج كما كان. وظل الصبي منتظراً الصيد الكبير بشوق وسرور كما كان. إلا أن كل ما رآه ولاحظه من حوله - في المياه وفوق المياه - كان يتلقاه هذه المرة على عجل، بنصف انتباه، لأن روحه كانت متعجلة، وكلها انتظار لانطباعات أخرى. ولو كان في وقت آخر لأثارت انتباهه لعبة الأشعة التي لا تنتهي على سطح المياه وهي تنزلق بصورة مدهشة، مغيرة وجه البحر بدرجات الألوان من البنفسجي الرقيق والأزرق الغامق، إلى الظلمة الداكنة في ظل القارب. وكان سيفرح كثيراً بالأسماك الغريبة الفضولية التي سحبت بقرب القارب، ويضحك من أسماك السلمون التي اصطدم سربها بهم، وبدلاً من أن تتفرق، ازدادت تلاصقاً من الخوف وراحت تقفز خارج المياه وتسقط على ظهورها بطريقة مضحكة بعد أن تتعلق في الهواء.

لم يعر ذلك كله اهتماماً خاصاً، فقد بدا له شيئاً تافهاً. كان يتحرق

إلى شيء واحد: أن يبلغوا الجزر بسرعة! وأن يبدأوا العمل بأسرع ما يمكن!

ولكن سرعان ما تغير مزاج الصبي من تلقاء نفسه وبصورة غريبة، وإن لم يفصح عن ذلك. فكلما ابتعدوا عن الأرض، وخاصة بعد أن اختفى الكلب الأبلق فجأة عن الأنظار خلف المياه السوداء المتصاعدة، أحس بخطر غامض ينبعث من البحر، وأدرك تبعيته المطلقة للبحر. . أدرك ضآلته اللانهائية وعجزه اللانهائي أمام هذه القوة العظيمة.

كان هذا جديداً عليه. وهنا أدرك مدى معزة الكلب الأبلق الذي لم يكن يتذكره أبداً من قبل، وهو يلهو على سفوحه بلا خوف أو هموم، ويتملى من فوق قمته صفحة البحر الذي لم يكن يهدد بأي شيء. أدرك الآن كم هو عظيم وطيب الكلب الأبلق، الرابض قوياً راسخاً في مكانه.

أدرك الآن الفرق بين اليابسة والبحر. فعندما تكون على الأرض لا تفكر فيها. أما إذا كنت في البحر فإنك لا تكفّ عن التفكير فيه، حتى لوكنت تفكر في شيء آخر. وقد أثار هذا الاكتشاف حذر الصبي. فقد كان ثمة شيء ما خفي وملحّ ومسيطر في كون البحر يجبرك على التفكير فيه دائماً. . .

لكن الكبار كانوا مع ذلك هادئين. ومضى امرايين وميلجون يجذفان كما كانا يفعلان، ضربة تلو الضربة، كأنهما رجل واحد، في إيقاع منتظم متسق، فتمس المياه أربعة مجاذيف دفعة واحدة فتنتقل الحركة المتواصلة إلى القارب بسهولة وطلاقة. ولكن ذلك كان يكلف المجذفين جهداً مستمراً. ولم يكن كيريسك يرى وجهيهما، إذ كانا جالسين وظهراهما نحوه، ولكنه كان يرى أكتافهما وهي تتقلص وتنبسط. كانا نادراً ما يتبادلان الكلام. صحيح أن أباه كان يتمكن من

الالتفات أحياناً، ويبتسم من خلال لحيته لابنه وكأنه يسأله: «حسناً، كيف الحال؟».

وهكذا مضوا. كان الكبار هادئين واثقين من أنفسهم. أما العجوز أورجان فكان بارد الأعصاب تماماً. ظل كما كان يمص غليونه ويوجه القارب من مكانه. وهكذا مضوا وكل منهم مشغول بعمله. وقد حاول كيريسك مرتين أن يجذف، تارة مع ميلجون، وتارة أخرى مع أبيه. وترك له الرجلان بسرور أحد المجاذيف. فليجرب. ورغم أنه أخذ يحرك المجذاف بكلتا يديه، فلم تسعفه قواه طويلاً، إذ كان القارب ثقيلاً جداً عليه، كما أن المجذاف كان كبيراً. لكن أحداً لم يلمه على ذلك ولن يشفق عليه. كانوا معظم الوقت يعملون في صمت.

وعندما اختفى «الكلب الابلق» عن الأنظار فجأة، دبت الحركة فيهم لسبب ما.

وقال الأب:

- الكلب الأبلق عاد إلى البيت!

فأمّن ميلجون على كلامه:

- نعم عاد!

وتطلع العجوز أورجان إلى تلك الناحية وقال:

- حقاً؟ إذن فقد عاد. حسناً، إذن فالأمور تسير على ما يرام. - ثم خاطب الصبي بمكر - يا كيريسك، هلا ناديت على «الكلب الأبلق»، فربما جاء؟

وضحكوا جميعاً، وضحك كيريسك. وبعد أن فكر قليلا قال بصوت عال:

- علينا في هذه الحالة أن نرجع، وعندئذ سيجيء!

فهتف أورجان ضاحكاً:

- يا لك من شاطر! الأفضل أن تعمل شيئاً. تعال هنا. كفاك تطلعاً، فلن تستطيع رؤية البحر كله.

وترك كيريسك مجلسه في مقدمة القارب ومضى يشق طريقه إلى المؤخرة وهو يخطو من فوق الأمتعة الملقاة في قاع الزورق: البندقيتين الملفوفتين في جلد أيل وحربة الصيد، ولفة حبال، وبرميل ماء صغير وكيس فيه المؤونة ولفافات وملابس. وعندما كان الصبي يمر بجوار حافة القارب والمجذفين ويتخطى المجاذيف شم رائحة العرق الرجالي القوي والتبغ المنبعثة من الأقفية والظهور العرقانة. رائحة ملابس أبيه نفسها، الرائحة التي تهوى أمه تشممها عندما يكون أبوه غائباً في البحر، إذ تأخذ سترته الجلدية القديمة وتضمها إلى وجهها.

وأومأ الأب لابنه ولكزه بكتفه لكزة خفيفة دون أن يترك المجذافين. ولكن كيريسك لم يتوقف استجابة لملاطفة أبيه هذه. وماذا في ذلك! الجميع في البحر سواسية. لا يوجد في البحر ابناء وآباء، بل يوجد فقط الأكبر سناً. وبدون الرجوع إليه لا تستطيع أن تحرك إصبعاً. . .

وأشار أورجان إلى مكان وقال وهو يلمس كتفه بيده الطويلة المعروقة:

- اجلس هنا بجانبي. أظنك قد خفت قليلاً، أليس كذلك؟ في البداية لا بأس، ولكن بعد ذلك. . .

وارتبك كيريسك، فقد أدرك العجوز ما يعتمل في نفسه، الا أنه مع ذلك قال محتجاً:

- كلا يا جدي، لم أخف البتة! مم أخاف؟

- إنها أول مرة تخرج فيها إلى البحر مع ذلك.

فلم يتراجع كيريسك:

- فلتكن أول مرة، ماذا في ذلك؟! إنني لا أخاف شيئاً.

- حسناً، ليكن. أما أنا، فعندما خرجت إلى البحر، وكان ذلك من زمن بعيد جداً، فقد خفت بصراحة. نظرت فإذا الشاطئ اختفى منذ وقت طويل، وذهب الكلب الأبلق إلى مكان ما، وليس من حولي سوى الموج. شعرت برغبة في العودة. وعندك امرايين وميلجون، اسألهما، كيف كان إحساسهما، ألم يشعرا بالخوف؟ ورد هذان على ذلك بابتسامة فاهمين، وأومآ برأسيهما موافقين، وانكبّا على المجاذيف.

ولكن كيريسك تشبث برأيه:

- أما أنا فلا!

فقال العجوز مطيباً خاطره:

- ما دام الأمر كذلك فأنت شاطر! والآن أخبرني في أية جهة بقي الكلب الأبلق؟

فوجئ كيريسك بالسؤال فأعمل فكره قليلاً ثم قال مشيراً بيده:

- هناك!

- هل أنت واثق؟ أرى يدك ترتعش.

سيطر الصبي على يده المرتعشة وأشار إلى اليمين قليلاً وقال:

- هناك!

فأومأ أورجان موافقاً:

- الآن أشرت بدقة. حسناً، ولو استدار القارب إلى هذه الناحية، فأين سيكون الكلب الأبلق؟

- هناك!

- ولو ساقتنا الريح إلى الناحية الأخرى؟

- هناك!

- ولو انحرفنا إلى اليسار؟

- هناك!

- حسناً، والآن أخبرني كيف تحدد المكان، فليس من حولك شيء تراه سوى المياه. هل تستطيع أن تشرح لي؟

فقال الصبي:

- عندي عيون أخرى.

- أية عيون؟

- لا أعرف، ربما كانت في بطني، ولكنها ترى دون أن تبصر.

- في بطنك؟... - وقهقه الجميع.

فردّ أورجان:

- هذا صحيح. توجد أعين كهذه. ولكنها ليست في البطن، بل في الرأس.

فأصرّ كيريسك على رأيه:

- ولكنها عندي في البطن. - رغم أنه وافق في نفسه على أن مثل هذه العيون لا يمكن أن تكون إلا في الرأس.

وبعد مضي فترة من الزمن عاود العجوز اختباره، وعندما تأكد من فطنته وقدرته على تذكّر جهات البحر، شعر بالرضى ودمدم:

- حسناً، حسناً، لديك عيون جيدة في بطنك.

واستهوى هذا المديح كيريسك فراح يطرح على نفسه مسائل ويجد لها الحلول. ولم يكن ذلك بالأمر العسير طالما البحر هادئ نسبياً. ففي كل مرة كان الكلب الأبلق الأمين والعظيم يفصح عن نفسه بلا تردد، ويظهر دون جهد خاص أمام بصر كيريسك الداخلي في الجهة التي كان فيها فعلاً، وكأنما يتجسد حياً، بكل ضخامته، وبالأحراج المشعثة على سفوحه وبقع الثلج على «رأسه» و «بين فخذيه» وباصطفاق الموج الراعد الخالد الذي لا يكل عند قدميه. وعندما تصور الصبي الكلب الأبلق لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في الروابي الأخرى المحيطة به، وبدأ لاإرادياً يفكر في دارهم.

ولاحت في مخيلته صورة واد صغير بين روابي الشاطئ، وفي ذلك الوادي، عند طرف العابة، على شاطئ النهر الصغير، مضرب العشيرة: البيوت الخشبية والكلاب والدجاج، وحبال تجفيف السمك، والدخان والأصوات، وأمه وأخته «بسولك». تصورهما بوضوح وتخيل ماذا يفعلان الآن. أمه بالطبع تفكر سراً فيه وفي أبيه وفيهم جميعا، الصيادين في البحر. نعم، لا بد أنها تفكر فيهم الآن. تفكر وتشعر بخوف شديد من أن تفطن الأرواح الشريرة إلى أفكارها وتكتشف خوفها. ولا بد أن موزلوك هي الأخرى تفكر فيه. وفي الغالب فقد جاءت إلى بيتهم بحجة اللعب مع بسولك. وربما نهرتها أمه لو أنها ذكرت اسمه عرضاً أو سألت عنه، هو الغائب في البحر. حتما ستوبخها أمه: «ماذا تثرثرين، الا تعرفين أنه ذهب إلى الغابة لإحضار الحطب؟». وستستدرك الفتاة فتلزم الصمت محرجة. وعندما تصور كيريسك ذلك أحس بالشفقة عليها. كان يود أن تفكر موزلوك فيه، ولكنه لم يشأ أن يوبخوها بسببه.

وظل القارب يسير وهو يتهادى مع الأمواج. ولمع البحر المتموج من حولهم في رغوة الأمواج الخفيفة. وحسب الصيادون حسابهم على أن يبلغوا عند منتصف النهار، وعلى أقصى تقدير في آخره، أول جزيرة «الحلمة الصغرى»، أقرب جزيرة في «الحلمات الثلاث» وإذا حالفهم التوفيق فسيبدأون الصيد هناك. وبعد ذلك كان عليهم أن يصلوا قبل حلول الظلام إلى الجزيرة الثانية - «الحلمة الوسطى» - وهناك يبيتون ليلتهم، خاصة وأن هناك خليجاً هادئاً قرب الشاطئ. وفي الصباح الباكر يخرجون إلى البحر من جديد. فإذا كان الحظ حليفهم في المساء السابق فاصطادوا ثلاث فقمات، فسوف ينطلقون في الصباح عائدين أدراجهم دون إبطاء. وأياً كان الأمر، فقد كان عليهم أن يعودوا في النصف الأول من النهار، في موعد لا يتجاوز

ارتفاع الشمس في السماء قدر جذعي حور. فمن المعروف أنه كلما بكرت بمغادرة البحر كان ذلك أفضل.

كل ذلك دبّره العجوز أورجان، فقد كان لديه لكل شيء حسابه. كما أن مساعديه - امرايين وميلجون - يعرفان جيداً ما هو المطلوب، فليست هذه أول مرة يذهبان فيها إلى «الحلمات الثلاث». أهم شيء أن يكون الجو هادئاً وأن يكتشفوا الفقمات مبكراً في مراقدها. هذا هو المهم، وكل ما عدا ذلك فرهن بمهارتهم، وبقدرة كل منهم على التصرف.

لم يكن خروج العجوز أورجان إلى البحر بدافع الحاجة وحدها. الحاجة شيء طبيعي، فمن الواضح أنه لا يمكن أن تعيش بدون الحصول على الطعام من البحر. ولكن البحر كان دائماً يشد العجوز إليه. فالآفاق البحرية كانت تسلمه إلى خواطره المنشودة. وكانت لديه أفكاره الدفينة الخاصة. وفي البحر لا يعوقه شيء عن الاستسلام لها. لأن كل ما كان يبغي التفكير فيه ولا يجد الوقت له هناك على اليابسة، وسط المشاغل اليومية، كان البحر يتيح له الفرصة، فلم يكن ثمة ما يصرف أورجان عن أفكاره العظيمة. كان يحس بنفسه هنا على صلة قرابة بالبحر والسماء.

كان يدرك أن الإنسان في القارب لا يعني شيئاً أمام لانهائية الآفاق. ولكن الإنسان يفكر، وبذلك يرقى إلى عظمة البحر والسماء، وبذلك يؤكد ذاته أمام قوى الطبيعة الخالدة، وبذلك يمكن أن يضاهي عمق البحر وارتفاع السماء. ولذلك فما دام الإنسان حياً فهو عظيم بروحه كالبحر، ولا نهاية له كالسماء، لانه لا حد لأفكاره. وعندما يموت فسوف يواصل أحد آخر التفكير إلى أبعد منه، والشخص التالي سيفكر إلى أبعد من ذلك، وهكذا إلى ما لا نهاية... وكان هذا الإدراك يمنح العجوز حلاوة مرة، حلاوة التسليم اللامستسلم.

كان يدرك أن الموت حتمي، وأن نهاية حياته ليست بعيدة. كان يدرك أن الموت نهاية كل شيء، ومع ذلك كان يأمل أن أعظم ما يكنه في نفسه وما ينشده - ألا وهي أحلامه العظيمة عن حورية البحر - سوف تبقى معه حتى بعد الموت. لم يكن يستطيع أن يسلم أحلامه لغيره، فالأحلام لا تنقل، ولذلك اعتبر أنها بوفاته لا ينبغي أن تختفي بلا اثر... لا ينبغي. فحورية البحر العظيمة خالدة، وعلى ذلك فينبغي أن تكون الأحلام عنها خالدة أيضاً.

كان كثيراً ما يفكر في ذلك وهو في عرض البحر، وكان يلوذ كثيراً بالصمت، وينطوي على نفسه ولا يتبادل أي حديث مع رفاقه. كان يتطلع إلى البحر ويخاطب مجهولاً راجياً شيئاً واحداً: أن تترك له أحلامه عن حورية البحر العظيمة. أمن المستحيل أن ترحل الأحلام مع الإنسان إلى العالم الآخر، وأن تتراءى له دوماً، إلى أبد الآبدين؟ وإذ لا يجد إجابة عن تساؤله يروح يفكر معذباً وهو يحاول أن يقنع نفسه بأن ذلك هو ما سيكون، وأن أحلامه ستبقى معه...

... في عهد ما، منذ زمن بعيد جداً لا يذكره أحد، عاش ثلاثة أشقاء على الشاطئ قرب «الكلب الأبلق». وكان الأخ الأكبر سريع الساقين، خفيف الحركة، ينجز كل شيء بسرعة، فقد تزوج ابنة ملك الأيائل وأصبح مالكاً لقطعان الأيائل، ورحل إلى التندورا ولم يعد. وكان الأخ الأصغر صياداً ورامياً لا يخطئ الهدف. وقد تزوج هو الآخر من ابنة أهل الغابة، ومضى إلى غابات التايجا، وأصبح صياداً هناك. أما الأخ الأوسط فكان أعرج منذ الولادة، سيئ الحظ، يستيقظ مبكراً وينام متأخراً، وما الفائدة؟ فلن يستطيع اللحاق بالأيائل أو صيد الوحوش في الغابة. ولم يزوجه أحد من أبناء الناحية ابنته، وهجره أخواه، فبقي وحيداً على شاطئ البحر الثرزق. وكان يدبر حياته بصيد السمك بالسنارة، وما أقل ما تستطيع اصطياده بها...

وذات مرة كان هذا الأخ الأعرج البائس جالساً في الزورق، وقد ألقى بسنارته في البحر، فإذا به يشعر فجأة بالسنارة ترتعش في يده بشدة. ففرح بالصيد الثمين الذي سيخرجه من الماء! وراح يشد هذه السمكة الكبيرة نحو القارب شيئاً فشيئاً.

وإذ به يرى. . . يا للأعجوبة! سمكة في هيئة امرأة! وراحت تضرب الماء، وتلتوي وتريد الهروب. وكان جمالها لا مثيل له. . جسدها ناعم، يلمع كالفضة، كحصى النهر في ضوء القمر، وثدياها أبيضان بحلمتين داكنتين مشرئبتين مثل كوزي صنوبر، وعيناها خضراوان تشعان شراراً. وأخرج الحورية من البحر وأمسك بها من تحت إبطيها فعانقته ورقدا في القارب. ودار رأس الأخ الأعرج من هذه السعادة. ولم يذكر ما حدث له، وخيل إليه أن القارب طار إلى السماء. تأرجح البحر حتى بلغ عنان السماء، وتأرجحت السماء حتى بلغت البحر. ثم سكن كل شيء مرة واحدة، كأنما بعد العاصفة. وهنا قفزت الحورية من القارب وغابت في البحر. وهبّ الأخ الأعرج يناديها ويتوسل إليها أن تعود، إلا أنها لم ترد، واختفت في أعماق البحر.

هذا ما جرى للأخ الأوسط الأعرج الذي هجره الجميع وبقي وحده على الشاطئ. مضت الحورية، ولم تظهر بعد ذلك أبداً. أما الأخ الأعرج فقد استولت عليه الكآبة منذ ذلك اليوم. ومنذ ذلك اليوم وطوال الأيام والليالي التالية كان يسير على الشاطئ وهو يبكي ويدعو الحورية ويضرع إليها ويتوسل أن تظهر له على الأقل ولو من بعيد.

حين يجيء المد يغني:

أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟

حين يجيء الجزر يغني:

أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟

في الليل القمري يغني:

ها البحر شجوني،
هذا الماء دموعي.

في قلب الظلماء يغني:

والأرض رأسي الوحيد!
أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟

حين يجيء المد يغني، حين يجيء الجزر يغني...

ومضى الشتاء، ثم مضى الربيع، وذات مرة أثناء الصيف، وبينما كان الأخ البائس الأعرج يتخبط على الشاطئ، ويخوض في مياه البحر إلى ركبتيه ويجيل النظر في البحر عله يرى حورية البحر، وينادي إذ ربما ترد النداء، سمع فجأة صوتاً أشبه ببكاء طفل عند لسان البحر. كان أقرب ما يكون إلى صوت طفل يبكي بحرقة. فركض إلى هناك، ولم يصدق عينيه. فعلى لسان البحر، قرب الماء تماماً جلس طفل عريان، والموج تارة يغطيه وتارة ينحسر عنه، بينما الطفل يبكي ويصيح بصوت عال: «من هو أبي؟ أين أبي؟». وازدادت دهشة الأخ الأعرج، وحار المسكين ماذا يفعل. وعندما رآه الطفل قال له: «أنت أبي! خذني إليك فأنا ابنك!».

يا لها من حكاية! وأخذ الرجل ابنه وحمله إلى البيت.

وكبر الطفل سريعاً. وأصبح يخرج إلى البحر. واشتهر كصياد شجاع قوي. لقد ولد محظوظاً: فما إن يلقي بالشباك حتى تمتلئ بالأسماك، وما إن يطلق سهماً حتى يردي الحيوان البحري فوراً.

وملأت شهرته الآفاق، فزوجه أهل الغابة بابنتهم بكل مظاهر الاحترام. وأنجب أطفالاً، وتكاثر البشر من نسل حورية البحر. ولهذا تغنى هذه الأغنية في الأعياد:

أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟
رحمك الدافئ يهب الحياة
رحمك الدافئ أنجبنا عند البحر
رحمك الدافئ أفضل بقعة في الدنيا
أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟...
ثدياك الأبيضان.. مثل رأسي فقمة
ثدياك الأبيضان.. أرضعانا عند البحر
أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟..
أقوى رجل فينا سيسبح إليك
لكي يزدهر رحمك،
لكي يتكاثر في الأرض نسلك...

* * *

كان هذا الحلم يتصاعد من اللاوعي، كالمد القادم من أعماق المحيط دون هوادة ليغمر الساحل والعشب والرمال بغلالة مسحورة من ظلمات الأعماق.

وفي كل مرة كان هذا الحلم يترك في نفس أورجان إحساساً مذهلاً، لا تمحى آثاره طويلاً. وآمن العجوز به إيماناً قوياً حتى أنه لم يبح لأي مخلوق بلقاءاته مع حورية البحر في الحلم، مثلما لن يبوح لأي إنسان بأشياء كهذه لو حدثت في الحياة العادية.

كان ذلك حلماً - ملازماً، كثيراً ما يتراءى للعجوز فيهبه السعادة والحزن وعذاباً روحياً سامياً. ومن مميزات هذا الحلم المدهشة أنه

كان في كل مرة يصعق أورجان بمكنونه اللامتناهي وبتلميحاته الكثيرة الدلالات الكامنة في تحولات هذا الحلم اللامعقولة وأعاجيبه. وعندما فكر أورجان في ذلك وهو يحاول التوصل إلى سر الأسرار، إلى تلك العلاقة التي لا تلمس أبداً والمتغيرة دوماً بين الأحلام والحياة، العلاقة التي تعذب الإنسان بألغازها وبدلالاتها الخفية، عندما فكر أورجان في ذلك اكتشف أنه رغم كل قلقه الروحي فإنه يتحرق إلى مجيء هذه الأحلام، ويتلهف بلوعة عارمة إلى لقاء حورية البحر العظيمة...

كان يلتقي بها في البحر. يخرج إلى الشاطئ في انتظار ظهورها، ويسير على رمال الشاطئ المقفرة التي لا تحتفظ بآثارها الأقدام لكنها تحتفظ بظلال سوداء ثابتة من أشعة شمس النهار المنطفئة. كانت هذه الظلال تستلقي كالثلج الأسود، ويسير هو عليها معذبا تكتنفه لوعة لاإنسانية قاهرة. كانت آلام الحب، وآلام الشوق والأمل تملأه، بينما يظل البحر مقفراً لا مبالياً. لا ريح، لا أصوات، لا حفيف في عالم الوحدة ذاك المتوتر الصامت. أما هو فكان ينتظر، يحدق في البحر وينتظر المعجزة، ينتظر ظهورها.

وتزداد كآبة روحه وهو يرى الأمواج الصامتة تتكسر دون صوت وتنتشر زبداً أبيض على طول طريقه. وطيور النورس الصامتة تحلق فوق رأسه كندف ثلج كبيرة هائمة. وفي هذا الفراغ الأصم الأبكم لا يجد لنفسه مستقراً، ويشعر كيف تنقبض روحه، وكلما طال انتظاره تصاعدت من أعماقه بصورة أكثر عذاباً وحدّة لوعة إليها لا تهدأ ولا تلين، وحتى في الحلم كان يدرك أنه سيعاني وسيهلك في فراغ الوحدة إذا لم يرها، وإذا لم تظهر. وعندئذ يأخذ في الصياح منادياً عليها. إلا أنه لا يميز صوته، لأن صوته لا وجود له، مثلما لا وجود لكل الأصوات في هذا الحلم الغريب. ويظل البحر صامتاً. لم يكن يتعقبه إلا صوت أنفاسه الثقيلة المتقطعة والعالية بصورة لا تعقل ودقات قلبه

المستمرة، المدوية بجنون في صدغيه. كان هذان الصوتان يثيران حنقه، فلا يعرف كيف يتخلص من نفسه. كان ينتظر حورية البحر كالمجنون، ينتظرها بشوق ووله كما ينتظر الغريق آخر أمل في النجاة. كان يعرف أنها وحدها، حورية البحر، هي التي تستطيع أن تمنحه السعادة... كان يعرف وينتظر بآخر قواه.

وأخيراً، وعندها تندفع طافية فوق سطح الماء وتسبح نحوه وعيناها مصوبتان إليه، ويلوح وجهها غير واضح المعالم وسط الأمواج، كان صمم العالم ينهار. ويستقبل هو صارخاً ومهللاً عودة الأصوات: زئير الموج المتكسر وصخب الريح ونعيق النوارس فوق رأسه. ويلقي بنفسه في الماء صارخاً ومهللاً، ويسبح إليها بعد أن يتحول إلى مخلوق سريع العوم كالحوت.

أما هي، حورية البحر، فتنتظره وهي تدور دورات عاصفة، وتقفز خارج الماء، وتتعلق في الهواء لحظة وجسدها كله يرتعش، وتتبدى في تلك اللحظات جسماً حياً من لحم ودم، كأنما امرأة عادية جميلة الفخذين ظهرت في البحر فجأة.

ويسبح حتى يبلغها، فيمضيان إلى المحيط.

يسبح بجوارها، جنباً إلى جنب، ويتلامسان برقة في حركتهما المندفعة المتسارعة. كان ذلك ما يصبو إليه وينتظره في عذاب اللوعة وصمت الوحدة.

الآن أصبحا معاً. وانطلقا بقوة وسرعة لا تعقل إلى الأفق الوامض في المحيط الليلي المشع من الأعماق بريقاً غير عادي على خط الأفق المتذبذب. انطلقا إلى هناك، إلى الأفق الذي لا يطال، وهما يشقان بجسديهما ذؤابات الامواج المزبدة المندفعة للقائهما بلا اكتراث. انطلقا عبر قمم الأمواج اللانهائية، تارة محلقين عاليا، وتارة هابطين إلى أسفل مبهورين بتحليقهما الفرح.. إلى أعلى وإلى أسفل، ومن

قمة إلى قمة، ومن ذؤابة إلى ذؤابة. وبالقرب منهما يركض القمر الأصفر مصاحباً لهما، لاهثاً في أثرهما على شكل بقعة فضية ممدودة. وفي هذه الآفاق المحيطية اللامحدودة لم يكن سوى القمر وهما، هو وحورية البحر، وحدهما في المحيط! تلك كانت ذروة السعادة، ونشوة الحرية، وحلاوة اللقاء...

انطلقا بقوة واستمرارية، مشدودين برغبة جامحة في أن يبلغا بسرعة ذلك المكان المخصص لهما في الدنيا، حيث أخيراً يتحدان، وقد استحوذتهما الشهوة، وحيث يدركان في لحظة خاطفة واحدة كل الحلاوة والمرارة في ابتداء الحياة وانتهائها...

وهكذا سبحا بانطلاق عاصف على أمل بلوغ الهدف المنشود. وكلما ازدادت سرعتهما توقد فيه سعار الشهوة الجسدية المتلهفة. كان يسبح ولا يشعر بالتعب، وينطلق إلى الأمام بأقصى جهده، كسمكة السلمون التي تنطلق إلى مكان وضع البيض مستنفدة كل قواها حتى آخر قطرة. كان يسبح مستعداً للموت من أجل الحب. أما حورية البحر الغامضة فمضت تجذبه أبعد فأبعد إلى أعماق المحيط، محلقة فوق الأمواج في سحابة من الرذاذ وقوس الطيف الوهاج وآسرة فؤاده بدفء جسدها اللؤلؤي ومرونته وانسيابه. وانبهرت أنفاسه من جمالها المكتمل، المغتسل في زرقة وبياض تيارات الماء العاصفة.

لم ينبسا ببنت شفة بل ظل كل منهما يحدق في الآخر دون أن يحول عنه عينيه، محاولاً أن يكتشف ملامح وجهه الغامضة وسط الرذاذ وتيارات الماء. وواصلا انطلاقهما في المحيط بلا توقف، يمضهما الانتظار المتزايد للمكان واللحظة اللذين حددهما لهما القدر...

لكنهما لم يبلغا قط ذلك المكان، ولم تأتِ قط تلك اللحظة...

ففي معظم الأحيان كانت أحلامه تنتهي بلا شيء - ينقطع كل

شيء فجأة، ويتلاشى كالدخان. وعندئذ يفيق مذهولاً، ويحزن حزناً حقيقياً، ويظل بعد ذلك يكابد اللوعة مذهولاً، ويراوده إحساس بنوع من عدم الرضا، وبالنقصان. وأحياناً، وبعد مضي فترة طويلة، كان يتذكر كل شيء من البداية، ويستغرق في التفكير عن معنى كل ذلك، وعما يبشر به لأنه كان في أعماق روحه يؤمن بأن ما رآه يفوق أي حلم. فالحلم العادي، حتى إذا تذكرته، فستنساه سريعاً إلى الابد. ولكن أورجان لم ينس قط حورية البحر، بل كان يفكر فيها ويأمل وكأنها واقع حي. وربما لذلك كان العجوز يعاني بصدق في كل مرة وهو ينظر إلى لقائه بحورية البحر وفراقه لها في حلمه كحدث حقيقي.

ولكن العذاب الأكبر كان ينهش قلبه عندما ينتهي الحلم تلك النهاية الفاجعة. عندها كان العجوز يئن تحت وطأة اليأس والحزن العظيم ويحار في تفسير تلك النهاية الغامضة.

كان يحلم بأنهما على وشك بلوغ المكان المنشود، وها هو ثمة شاطئ يلوح. كان ذلك شاطئ الحب.. الشاطئ الذي كانا يقصدانه، ويغذّان السير نحوه بكل ما وسعهما من قوة، وقد استبدت بهما الرغبة المستعرة في بلوغ هذا الشاطئ بسرعة، حيث يسلم كل منهما نفسه للآخر. وها قد بقيت مسافة قصيرة ويبلغانه، وإذا بهما يصطدمان بالقاع الرملي للمياه الضحلة، حيث لا يبلغ الماء الركبة، وحيث لا تمكن السباحة. ويتنبه أورجان ويتلفت حوله، فإذا حورية البحر تتخبط في المياه الضحلة بجنون، وهي تحاول عبثاً أن تفلت من أسر الرمال. ويتصبب العرق البارد من أورجان وهو يهم لنجدتها. ولكن دهراً طويلاً يمضي وهو يزحف على ركبتيه ويغوص في طين القاع الذي يشده إليه كوحل المستنقعات، ويجرجر ساقيه اللتين لا تطيعانه وكأنهما ساقا شخص آخر. كانت حورية البحر على مرمى ذراع منه، ولكن الوصول إليها كان عذاباً، واحتبست أنفاسه، واختنق وهو

يغوص في طين القاع والأعشاب البحرية اللزجة تلتف على ساقيه. أما العذاب الأكبر فرؤيته لحورية البحر الرائعة وهي تتلوى وتنتفض أسيرة في المياه الضحلة. وعندما بلغها أخيراً، وحملها على ذراعيه ومضى إلى الشاطئ مترنحاً من دوار الرأس وضمّها إلى صدره، سمع بوضوح قلب حورية البحر وهو يدق بعنف ويكاد ينفجر، وكأنها طائر جريح أمسكوا به بعد مطاردة. ولهذا، ولأنه كان يحملها على ذراعيه، ضامّاً إياها بقوة، ولأنه امتلأ كله رقة وشفقة عليها، وكأنما كان يحمل على ذراعيه طفلاً وديعاً، لهذا احتبست في صدره عبرة حارة جامدة كالحجر. وجاهد كي لا يبكي وقد بلغ منه التأثر كل مبلغ، وأحس بالخجل من حورية البحر. حملها خافق القلب، ومضى يخطو برفق وحذر وفكره معها في كل خطوة. أما هي فأخذت تتوسل إليه، وتستحلفه من بين دموعها أن يعيدها إلى البحر ويطلق سراحها. كانت تختنق وتحتضر، لم يكن بوسعها أن تحبه بعيداً عن البحر الكبير. كانت تبكي وتتطلع إليه في صمت بأعين ضارعة مستعطفة حتى أنه لم يستطع أن يصمد أمامها. استدار عائداً عبر المياه الضحلة إلى البحر وهو يغوص أعمق فأعمق في الماء، ثم أطلقها برفق من أحضانه.

وغابت حورية البحر في طيات الموج، وبقي هو وحيداً مصعوقاً، يحدق في أثرها. ويستيقظ وقد علا نحيبه...

أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟
هذا البحر شجوني،
هذا الماء دموعي.
والأرض رأسي الوحيد
أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟

كان تذكر ذلك صعباً لا يطاق، وكأنه بالفعل كان يحمل حورية

البحر على ذراعيه وأطلق سراحها بنفسه. لماذا يحدث ذلك؟ وهل من المستحيل أن تتحقق في الحلم آمال الإنسان أياً كانت؟ بمن يرتهن ذلك؟ ومن يقف وماذا يقف وراء هذا، وأي مغزى هنا وما القصة وما دلالتها؟ وتنتاب أورجان شتى الظنون فيبعد عنه هذه الأفكار ويحاول أن ينسى وألا يفكر في حورية البحر.

ولكنه عندما يخرج إلى البحر للصيد لا يلاحظ كيف بدأ يفكر فيها وفي كل ما يرتبط بها. في البحر يشعر وكأنه عاش قصة الحلم الغريب كلها من جديد، وعندما يفكر في ذلك بعقل صاف يدهش ويتساءل: لماذا يفكر في هذا، وهل من شأن رجل عجوز أن يكابد اللوعة من أجل حورية بحر لا وجود لها؟ كان يؤنب نفسه، وفي الوقت نفسه يعترف لها: لو لم تكن حورية البحر لضقت بنفسي.. فها أنذا قد هرمت، ولم تعد قواي كما كانت، ولا نظري كما كان، ومضى جمال الشباب وتساقطت الأسنان. كل ما كنت أزهو به يغيب ويتحطم، والموت ليس ببعيد، لكن القلب وحده لا يستسلم، وما زالت الرغبات فيه تتوقد كما في أيام الشباب، المصيبة أن الروح لا تشيخ. ولهذا تتواتر مثل هذه الأفكار، وتخطر مثل هذه الأحلام، ذلك أن الإنسان يبدو لنفسه خالداً وحراً في الأحلام والأفكار فقط. بالأمل يصعد إلى ذرى السماء ويغوص إلى أعماق البحار. وعظمة الإنسان أنه يفكر في كل ما في الحياة حتى ساعة الموت. ولكن الموت لا يأبه بذلك، ولا يبالي بحياة الإنسان، ولا بعظمة أفكاره، ولا بما رأى من أحلام، ولا كيف ولا أي شأو بلغ، كل ذلك لا يهم الموت. فلماذا تجري الأمور هكذا في الدنيا؟ لتكن حورية البحر حلماً، ولكن ليبق هذا الحلم إلى الأبد هناك، في العالم الآخر...

وكما كان أورجان يؤمن بحورية البحر فقد آمن أيضاً بأن البحر يصغي إليه. هنا كان يحس بانطلاق روحه وأفكاره. هنا كان ينفس عن

نفسه. واحيانا كان يسأل نفسه وهو غارق في أفكاره: «ترى ألم أمر معها بهذا المكان؟».

في تلك اللحظات كان يحشو غليونه من جديد، ويتلذذ بدخان التبغ: «ترى أين ينمو مثل هذا العشب.. يبدو أنه في منشوريا. ضار، لكنه يخفف عن النفس... يقول التجار إنه في منشوريا. يأتون به من هناك. بعيدة منشوريا هذه، اوه ما أبعدها. لم يسافر إليها واحد من رجالنا.. أحقاً ينمو التبغ هناك كما ينمو العشب في الغابة؟ ما أكثر العجائب في هذه الدنيا...».

* * *

مالت الشمس عن وسط السماء. وخلال تلك الفترة غابت بضع مرات خلف سحب أتت فجأة من وراء الأفق، وكأنما عشش هناك الطقس السيئ. وعندها كان البحر يكفهر فوراً، وتربد سحنته، ويصبح المكان معتماً غير مريح. ثم تظهر الشمس ثانية وتضيء من وراء السحب بصفاء وسخاء ربيعيين فيتراقص البحر بالأشعة الحية السابحة الباهرة، فتعود البهجة إلى النفس.

ورغم أن كيريسك ألف البحر، بل وشعر ببعض الملل إلا أنه لم يفارقه الإحساس بالدهشة من ضخامة وامتداد الآفاق البحرية. منذ متى وهم فيه وهو لا يبدو بلا نهاية أو حدود. ولو كان على اليابسة، لما أحس بالدهشة مهما كان اتساع الأرض، كما يحس الآن في البحر.

أما الكبار فلم يدهشهم شيء. كان كل ذلك مألوفاً لديهم. ومضى امرايين وميلجون يجذفان بانتظام ويضربان بالمجاذيف سطح الماء ضربات قصيرة. كانا يعملان بلا كلل، ولم يسمحا لأورجان أن يحل محل أحدهما ولو لالتقاط الأنفاس، وقالا له إن من الأفضل أن يساعدهما في طريق العودة عندما يكون الزورق محملاً، أما الآن فلينصرف إلى توجيه القارب. وجلس العجوز أورجان برقبته الطويلة

ذات الحرقدة عند مؤخرة الزورق منكمشاً كأنه نسر يتحفز للانقضاض على فريسته. وكان صامتاً يفكر في شيء ما.

ومضى القارب وهو يتمايل قليلاً مع الأمواج، وكانت الأمواج كما في السابق معتدلة، والريح سطحية مستقرة الاتجاه.

هكذا مضوا...

وفجأة صاح كيريسك بفرح وهو يشد أورجان من ذراعه:

- يا جدي، يا جدي! ها هي الجزيرة! الحلمة الصغرى!

- أين الجزيرة!- قال أورجان غير مصدق ووضع راحته قرب عينيه. ونظر المجذفان بدهشة إلى الجهة التي أشار نحوها الصبي.

- لا ينبغي أن تكون هناك - دمدم العجوز لأن الصبي أشار إلى جهة أخرى تماماً غير متوقعة.

كان الصبي محقاً. فهناك بعيداً جداً لاح بالفعل خط أغبر داكن يبدو وكأنه نتوء يابس وسط المياه. وظل أورجان يحدق طويلاً، وأخيراً قال بثقة:

- كلا، ليست هذه جزيرة. علينا لكي نصل إلى الحلمة الصغرى أن نواصل السير في خط مباشر نحو الغرب، في الاتجاه الذي نسير عليه الآن. أما هذه ففي جهة أخرى - ومضى يقول- ليست هذه جزيرة. يخيل إليّ أنها ليست جزيرة.

وقال ميلجون:

- مثل هذه الجزيرة لم تكن موجودة في هذا البحر، لم نر قط جزيرة كهذه. الحلمة الصغرى ستكون على يسارنا، أما هذه فلا أعرف ما هي.

وقال امرايين:

- أليس هذا ضباباً أو سحابة ما؟ أم هو موج عاصف؟ وإذن فلماذا لا يتحرك؟

فأجاب أورجان:

- نعم، ما هذا حقاً؟ لا ندري ضباب هو أم سحابة. إنه بعيد عن هنا. لكنه ليس جزيرة. أما إذا كان ضباباً فهو لا يبشر بخير.

فأبدى امرايين رأيه وهو ينكب على المجاذيف:

- لا بأس، المهم ألا تغير الريح اتجاهها. إنه ثابت في مكانه لا يتحرك. ليس لدينا ما نفعله في تلك الناحية، فليكن هناك ما يكون...

أحس كيريسك في البداية بخيبة أمل لأن ما اكتشفه اتضح أنه شيء غير محدد، ولكنه سرعان ما نسي ذلك.

أما الصيادون فلم يخطئوا. إذ سرعان ما لاحت جزيرة الحلمة الصغرى وسط المياه عن يسارهم ولم تكن ثمة شكوك. كان ذلك بروزاً صخرياً صغيراً جداً من الأرض وسط المياه، مغطى بالنتوءات، وكان يشبه بالفعل الحلمة.

ودب النشاط فيهم جميعاً عندما رأوا الجزيرة، وخاصة كيريسك. إذن فالبحر ليس بلا نهاية. وهنا بدأ أمتع جانب في الرحلة.

وقال أورجان وهو يمسد القلنسوة على رأس الصبي:

- انظر، ها هو الكلب الأبلق قد أوصلنا إلى الجزيرة رغم أنه بقي هناك. فلو أنه ركض وراءنا لغرق، أليس كذلك؟

فأجاب كيريسك وقد أدرك مغزى اللعبة:

- طبعاً!

- نحن بحاجة إلى الكلب الأبلق هناك، لكي يحرس البيت، ولكي نصل نحن إلى مكان الصيد مهتدين به فلا نضل الطريق. ما رأيك هل نحن الآن بحاجة إلى الكلب الأبلق.

فأجاب كيريسك بثقة تامة:

- كلا، لسنا بحاجة إليه. نحن الآن بدونه نعرف الطريق.

فعاتبه أورجان قائلاً:

- هلا فكرت قليلاً؟ يا لك من عجول، فكر قليلاً.

لم يفطن كيريسك إلى ضرورة وجود هذا الكلب الأبلق وهم بعيدون في البحر عند الجزيرة، فسأل:

- وما حاجتنا إلى كلبنا الأبلق هنا؟

- وكيف ستعود إلى البيت؟ إلى أين ستتجه؟ هيا، فكر! هل خمنت؟ فلتتذكر جيداً الجهة التي جئنا منها إلى الجزيرة، وأي جوانب الجزيرة يطل على الكلب الأبلق، وعندئذ ستعرف في أي اتجاه تمضي عندما تعود.

وافق كيريسك صامتاً، ولكنه أحس بأن كبرياءه قد جُرحت، وربما لذلك سأل بشيء من الاندفاع:

- وإذا كان الوقت ظلاماً؟ ماذا لو وجدنا أنفسنا في البحر ليلاً؟ ما العمل إذا لم نكن نرى شيئاً حولنا؟ كيف سنعرف أين يوجد الكلب الابلق، وفي أية جهة هو؟

فأجابه أورجان على ذلك بهدوء:

- حسناً، يمكنك أيضاً أن تعرف. فمن أجل ذلك توجد النجوم في السماء. النجوم لن تخدعك، بل ستدلك على الطريق. المهم أن تعرف مواقعها. اصبر قليلاً وستعرف ذلك. هل تعرف برج بطة اللوفر؟

فأجاب كيريسك بتردد:

- أعرف على ما أظن... ونظر إلى أبيه. وأدرك امرايين سبب تردد ابنه فقال:

- يعرف قليلاً، فقد أريته ذلك ذات مرة. ولكن هذا قليل، ينبغي أن يتعلم أكثر...

هكذا مضوا وهم يقتربون شيئاً فشيئاً من الجزيرة. وعندما بدأت تتضح معالم بعض الأحجار والصخور على الشاطئ أخذوا يدورون

حول الجزيرة وهم يحدقون باهتمام في الشاطئ علهم يكتشفون مراقد الفقمات. وأجهد كيريسك عينيه فقد كان يريد أن يكون أول من يكتشف القطيع. ولكنهم حذروه ألا يصدر أي صخب عندما يكتشف الحيوانات. وقال أورجان إن الفقمات ترقد في مكان ما بين الصخور قرب الماء، إذ إنها تزحف من البحر طلباً لدفء الشمس. وينبغي أن تكتشف أين ترقد، وبعد ذلك عليهم أن ينزلوا إلى الشاطئ سراً، ويقتربوا منها بحذر لكي لا تفزع وتهرب. ولكن كيريسك لم ير شيئاً. كان الشاطئ مقفراً كئيباً.. غطته كله الصخور الموحشة التي فتّتها الزمن وتناثرت بلا انتظام. وأحاطت بالجزيرة حلقة من الزبد الأبيض الفوار من تكسر الأمواج التي كانت تهم باجتياح كتل الأحجار المكسوة بالجليد. كلا، لم ير كيريسك أي شيء على الجزيرة غير ركام الأحجار، ولا أثر لدابة حية.

كان ميلجون أول من اكتشفها. وبينما كان كيريسك يتلفت محاولاً أن يكتشف مكان اختباء الفقمات، ابتعد القارب عن ذلك المكان حتى لا تراهم الفقمات من مراقدها.

وأدرك أورجان العجوز أن كيريسك لم ير شيئاً فسأله:

- هه.. هل رأيت؟

فلم يجرؤ الصبي على الكذب وقال بصراحة:

- كلا، لم أر.

فأصدر أورجان أمره:

- فلنعد مرة اخرى.. - وخاطب الصبي - تعلم كيف تميز بين الأحجار، وإلا فلن تصبح صياداً.

وانصاع المجذّفان للأمر، وأعادا القارب إلى الموضع السابق، رغم ما في ذلك من مخاطرة. فلو أن فقمة واحدة أطلقت صيحة فزع، لهبّ القطيع كله واختفى في البحر، ولكن الحيوانات لم تلحظ

الصيادين لحسن الحظ. كانت راقدة خلف سلسلة حجرية بين الأحجار الملتوية المتناثرة على الشاطئ في فوضى على حافة المياه تماماً.

وقال ميلجون لكيريسك:

- انظر، أترى ذلك الحجر المسنون، مثل الناب المكسورة، وقريباً منه نتوء أحمر قليلاً مكسو بالجليد.. انظر فيما بينهما.

وحدق كيريسك مليّاً. وفي تلك الأثناء مضى امرايين وميلجون يجذفان من حين لآخر لإبقاء القارب ثابتاً في مكانه. وهنا رأى كيريسك ظهور الحيوانات البحرية وأجسادها القوية ذات الذيول. كانت ظهورها الرمادية المنقطة اللامعة جامدة لا تتحرك. ولم تكن العين غير الخبيرة بقادرة على تمييزها هناك وسط الأحجار.

ومنذ تلك اللحظة تملّك الصبي الانفعال. ها هي البداية! هذه هي الحيوانات البحرية الحقيقية! وهاهو الصيد الكبير!

وعنما نزلوا إلى الشاطئ كان مستثاراً، مليئاً بالشجاعة والإعجاب. الشجاعة لأنه أحس بنفسه في تلك اللحظة قوياً وهاماً. والإعجاب لأنه رأى كيف يعمل الصيادون بروعة واتساق. رأى كيف رسوا بالزورق على الشاطئ، وكيف ثبت امرايين والعجوز أورجان القارب عند خط تكسر الأمواج على الشاطئ، بينما قفز ميلجون بمهارة على حصى الأرض، ثم جر القارب بالحبل الذي ألقى طرفه إليه بعد أن لفه على كتفه، ثم كيف حمل أبوه البنادق وقفز إلى الشاطئ. وفي أثره قفز هو نفسه، بمساعدة العجوز أورجان طبعاً، وإن كان قد بلل قدميه في مياه موجة قرب الشاطئ فتلقى من أبيه توبيخاً خافتاً.

تخلف أورجان في القارب ليبقيه عائماً قرب الشاطئ، أما ثلاثتهم - امرايين وميلجون وكيريسك - فأسرعوا نحو مرقد الفقمات. ركضوا مع الشاطئ، محنيي القامة، في قفزات سريعة من مخبأ إلى مخبأ. لم يتخلف كيريسك ولم يشعر إلا بدقات قلبه المدوية في صدره، وبدوار

يصيب رأسه أحياناً من الشعور المتصاعد بالفخار والانفعال.

آه لو استطاع بنو حورية البحر أن يروه الآن، وهو يركض بسرعة مع الصيادين الكبار إلى حيوان البحر! لو رأته أمه الآن لأحست بالفخر به، بهذا الذي سيصبح صياداً عظيماً ومطعم العشيرة! آه لو رأته الآن موزلوك، التي كثيراً ما لعب معها، ولكنه لن يلعب معها بعد الآن أبداً، لأنه أصبح منذ الساعة صياداً، ولو رأته وهو يمضي بعيداً عن الكلب الأبلق العزيز، فوق شاطئ مجهول هادر، وسط الأحجار والصخور المتوحشة، نحو مرقد الفقمات. وإذا كانت البنادق مع ميلجون وامرايين فلا بأس، فقد وعده أبوه بأن يسلمه البندقية إذا حان وقت إطلاق النار.

وهكذا أخذوا يتسللون إلى المرقد، ثم زحفوا على الأرض، وزحف كيريسك أيضاً. كان الزحف على الأحجار الصلبة والجليد المسنن صعباً ومتعبا، ولكن كيريسك أدرك ضرورة ذلك.

زحفوا وهم يتنفسون بصعوبة والعرق يتصبب منهم، ويختبئون بين الحين والحين ملتفتين من حولهم ومتفحصين. وعندما أصبحوا على وشك التصويب وإطلاق النار سكنوا متربصين.

سيذكر كيريسك إلى الأبد هذه اللحظة وهذا اليوم الربيعي، وهذه الجزيرة الحجرية الباردة وسط البحر الهائل اللامحدود بأحجارها الحمراء الداكنة الموحشة، التي اقتلعتها وبعثرتها قوة مجنونة مجهولة، وهذه الأرض الجرداء المتجمدة القاسية الخالية من الحياة والمغطاة بالجليد، والتي تمدد على بطنه فوقها، وبجواره أبوه وميلجون المستعدين للرمي، بينما هناك في الأمام، على حافة البحر تماماً، وسط ركام الصخور المتعرجة التي مزقتها الرياح والعواصف يرقد قطيع صغير من الفقمات هادئاً مستكيناً وهو لا يرى ولا يحدس بشيء. وفوق مرقد الفقمات، وفوق الجزيرة، وفوق البحر، تمتد سماء

جامدة، تميل إلى الظلمة، وهي تنتظر بتوتر، كما خيل إليه آنذاك، الطلقة الاولى.

وفكر وهو يركز في كتفه مؤخرة البندقية التي أعطاه إياها أبوه: «لا بد أصيب!»

في تلك اللحظة القصيرة التي طال انتظارها، عنما رأى نفسه - متباهياً - صياداً شجاعاً ذائع الصيت، أذهله فجأة أن الظهور الحية، والأجناب الحية لهذه الحيوانات البطيئة الثقيلة، المحشورة في الفجوة الحجرية طلباً للدفء الشمسي الشحيح، تبدو مكشوفة بهذه الصورة وسهلة المنال. ولكن ذلك الإحساس لم يكن سوى لحظة تردد عابرة. فقد تذكّر أنه صياد وأن الناس ينتظرون عودته بالفريسة، وأن الحياة بدون لحم الفقمة وشحمها تصبح حياة جوع وعوز، وفي الوقت نفسه طاف بذهنه خاطر، وهو أنه ينبغي أن يكون أول من يطلق النار ويظهر نفسه. واستعاد رباطة جأشه وسدد بيد راسخة كما نصحه أبوه تحت الزعنفة اليسرى إلى اليمين قليلاً، أي إلى قلب فقمة كبيرة مبرقشة. وكأنما أحست الفقمة بالخطر القادم، فنفرت فجأة، رغم أنها لم تر الصيادين ولم يكن بإمكانها أن تشم رائحتهم، إذ كانت الريح تأتي من ناحية البحر. وكان عليه أن يتحرك قليلاً وبحذر إلى الجنب، فلقد كان هناك شيء ما كالظل يعوقه عن التصويب، إلا أن حجراً صغيراً قفز من تحت مرفق كيريسك وتدحرج إلى أسفل، جاذباً معه الأحجار التي اعترضت طريقه. وندت عن الفقمة المبرقشة صرخة قصيرة كالنباح، فانتفض القطيع كله وزحف صارخاً ومنزلقاً إلى الماء. وفي تلك اللحظة دوت طلقة لتقطع على القطيع المنسحب إلى البحر، ولتردي فقمة كبيرة في طرف القطيع. كان ميلجون هو الذي أطلق النار لينقذ الموقف. أما كيريسك فقد ارتبك.

فأمره امرايين:

- اضرب!

وأحس بضربة قوية فوق كتفه، ودت الطلقة في أذنيه، وغاب كل شيء في الصمم. وأحس كيريسك بالخجل الشديد من عدم إصابته الهدف ومن أن الصيد كان على وشك الفشل بسببه. ولكن أباه ناوله طلقة أخرى وهتف:

- لقّم واضرب بسرعة!

وما بدا أمراً غير صعب، أي التلقيم وإطلاق النار (فكم قام بذلك بكل سهولة عندما كان يتدرب) أصبح الآن صعباً. لم يستجب له زناد البندقية على الفور. وفي تلك الأثناء أطلق ميلجون النار مرتين في أثر الفقمات المنزلقة إلى الماء. وأصاب إحداها فراحت تدور حول نفسها على حافة الشاطئ. وركض الصيادون نحوها. كان القطيع قد غاب في البحر، بينما أخذت الفقمة الجريحة الباقية على الشاطئ تحاول بكل قواها الوصول إلى الماء. وعندما وصل الصيادون إلى موضعها تمكنت الفقمة من بلوغ الماء، فسبحت وهي تجر وراءها بقعة دموية متموجة. ومضت تحرك زعانفها وتغوص ببطء في أعماق البحر الشفافة. ولاحت بوضوح عيناها الجاحظتان في ذعر والخط الليلكي الفاتح الممتد بطول ظهرها من مؤخرة الرأس حتى طرف الذيل. وأنزل ميلجون بندقيته المشرعة إذ لم يعد ثمة معنى للإجهاز على الفقمة.

ودمدم امرايين:

- دعها فسوف تغرق على أي حال.

ووقف كيريسك لاهثاً، مهموماً، محنقاً. كان يتوقع الشيء الكثير، فيا له من صياد عظيم!

لزم الصمت، واستجمع كل قواه كي لا يجهش فجأة بالبكاء من الحنق. كان يشعر بمرارة شديدة.

- لا بأس، سوف يحالفك الحظ... - قال له ميلجون فيما بعد

مطيباً خاطره عندما شرعوا يبقرون الفقمة. - سنرحل الآن إلى الحلمة الوسطى، حيث حيوان البحر أكثر.

وبدأ كيريسك يقول:

- أنا ببساطة تسرعت...

ولكن أباه قاطعه:

- لا داعي للتبرير. لا أحد يصبح صياداً من أول طلقة. شد حيلك، لن تفلت منك الفريسة إذا كنت تجيد الرمي.

وصمت كيريسك، ولكنه كان في قرارة نفسه ممتناً للكبار الذين لم يوبخوه. والآن قطع على نفسه عهداً بألا يتسرع في الصيد، والا يفكر في أي شيء آخر أثناءه، وأن يطلق النار وهو واثق من إصابة الهدف عندما «ينتقل بصره وأنفاسه إلى علامة التسديد» كما علمه أبوه. وعندها فقط يطلق الرصاصة!

كانت الفقمة كبيرة، ثقيلة الوزن، دافئة وكأنها لا تزال حية. وفرك ميلجون راحتيه بسرور، ثم شق بطنها، وقال: «انظروا، الدهن سمكه أربع أصابع. فقمة عظيمة!». ونسي كيريسك ما كان فيه من حزن وراح يساعده بنشاط. أما امرايين فقد توجه إلى العجوز أورجان لإرساء القارب على الشاطئ.

وسرعان ما عاد على عجل مهموماً وقال:

- هيا بسرعة، ليس لدينا وقت - ثم نظر إلى السماء وأضاف دون أن يوجه كلامه إلى أحد - هذا الجو لا يعجبني..

ونظفوا بطن الفقمة على عجل واستبقوا الكبد والقلب فقط، وجروها بالغصون المجدولة إلى القارب. ومضى كيريسك في أثر الرجلين حاملاً البندقيتين.

وكان العجوز أورجان في انتظارهم على الشاطئ بجوار القارب. وظهر السرور على وجهه وقال:

- ليسمع الرب «كورنج» أننا راضون! لا بأس بهذا كبداية. - وأخذ يردد ذلك وهو يعد سكين الصيد للمأدبة القادمة. كان عليهم الآن أن يقوموا بأهم عمل بعد الصيد: أن يأكلوا كبد الفقمة النيئة قبل الرحيل. وبرك أورجان فوق الفقمة المبقورة وقطع الكبد شرائح. وأخذ الصيادون يزدردون قطع الكبد الرقيقة بعد رشها بقليل من الملح وهم يمصمصون شفاههم من المتعة. كانت الكبد لذيذة الطعم، طرية، دافئة، دسمة. كانت تذوب في الفم وهي تلف اللسان بطبقة من الدهن السائل. وهكذا تحقق حلم كيريسك بأن يأكل الكبد النيئة أثناء الصيد مثل الرجال الحقيقيين!

ونصح أورجان الصبي قائلاً:

- ابلع، ابلع أكثر، فالليلة ستكون باردة، والكبد هي خير ما يدفئ، وهي أنجع دواء لجميع الأمراض.

نعم، كم كان ذلك رائعاً! أكلوا حتى الشبع، وسرعان ما أحسوا بالظمأ. ولكن الماء كان في الوعاء، والوعاء في القارب. وعندما شبع الجميع قال امرايين وهو يتطلع قلقاً إلى السماء:

- لن نقطع الفقمة الآن.

فوافق أورجان قائلاً:

- نعم، فيما بعد - ثم أضاف - أما الشاي فسنعدّه قبل النوم عندما نستقر في الحلمة الوسطى. أما الآن فسنكتفي بذلك. هيا نشحن ونرحل.

وقبل الإقلاع لم ينسَ الصيادون أن يطعموا الأرض، فقطعوا قلب الفقمة قطعاً صغيرة ونثروها وهم يدعون لصاحب الجزيرة كي يهبهم التوفيق في المرة القادمة. ثم خرجوا إلى عرض البحر من جديد.

خلفوا الحلمة الصغرى وراء ظهورهم. وكانت الجزيرة الوحيدة اليتيمة وسط المياه العابسة تثير الإحساس بالشفقة والضياع. ومضوا في

اتجاه الحلمة الوسطى. كان النهار قد مال إلى المغيب، فأعمل الصيادون مجاذيفهم كي يصلوا إلى الحلمة الوسطى قبل هبوط الظلام، حيث كان عليهم أن يجدوا خليجاً آمناً ليخبئوا فيه القارب ويقضوا ليلتهم. وسرعان ما غابت الحلمة الصغرى عن الأنظار وكأنما غطست في البحر، ولكن الحلمة الوسطى لم تظهر بعد. ومن جديد أحاطت بهم المياه من كل جانب. في الوقت الذي انهمكوا فيه في صيد الفقمة تغير البحر بوضوح، وأصبحت أمواجه أكثر اطراداً وكثافة وصلابة. واستمرت كتلة المياه في الانسياب في الاتجاه السابق، ولكن الريح غيّرت اتجاهها. وأصبح القارب الآن يهتز ويتأرجح بصورة أقوى بكثير. إلا أن السماء هي التي أثارت قلق الصيادين. ما الذي كانت تخبئه لهم؟ في مثل هذا الوقت من السنة كان ذلك غريباً وغير متوقع! كانت هناك عكارة في الجو لا يدري أحد من أين جاءت، والتفّت السماء بغلالة ضبابية بيضاء منسابة تدفعها تيارات الرياح العلوية من الحرائق البعيدة المشتعلة في مجاهل الغابات القصية. ورغم أن هذه الغلالة الدخانية كانت فقط تلف السماء ولا تعوق أحداً، إلا أن الصيادين صاروا عابسين.

ودمدم أورجان وهو يتطلع بسخط حوله:

- من أين تزحف هذه المصيبة؟

كانوا يمضون الآن في توتر، ومع كل ضربة مجذاف يتوقعون أن تلوح الأرض في الأفق.. أرض الحلمة الوسطى، أحسن وآمن مكان بين الحلمات الثلاث.

وفي تلك الأثناء صفت السماء، بل وأطلّت الشمس من طرف البحر، فبدت كأنها تطل من طرف الدنيا نفسها، لشدة ما كان بعيداً وغير واقعي. كان بالإمكان النظر إلى الشمس ببساطة ودون أن تزر عينيك. وظهر قرصها محدد المعالم ومضرجاً بالحمرة وهي توشك

على المغيب في تلك الناحية الشفقية الضبابية البعيدة. وما إن صفت السماء حتى ساد النور والسكينة العالم. وكان ذلك كافياً ليزول التوتر. وأحس الرجال في البحر بقرب فرحة الملجأ والراحة على الجزيرة.

وقال أورجان لكيريسك الجالس بجواره وهو يربت على ظهره مشجعاً:

- اصبر قليلاً، وستظهر الحلمة الوسطى.

كان الصبي يرغب في الشرب منذ وقت طويل، ولكنه كتم رغبته بسذاجته الطفولية في الحفاظ على تعليمات أبيه. فقد قال له أبوه قبيل الرحيل إن كمية ماء الشرب في الرحلة محدودة للغاية، ولا ينبغي أن تشرب كلما عنَّ لك، كما تفعل في المنزل. وحتى في الجزر الثلاث جميعاً لا توجد قطرة مياه عذبة. كما أنهم لا يستطيعون تحميل القارب بحمولة زائدة. وقال له أبوه إنه لا يجب أن يشرب إلا حينما يشرب الجميع.

وفي تلك الفترة الصافية. التي أطلّت فيها الشمس فجأة من الأفق المشرق، أحس الصبي بطيبة العجوز، فقال بشجاعة وهو ينظر إلى أبيه مبتسماً:

- يا جدي، كم أريد أن أشرب!

فضحك أورجان مدركاً وقال:

- آه، هكذا! هذا ليس مستغرباً بعد تلك الكبد! مفهوم. ثم إننا جميعاً نريد أن نشرب، أليس كذلك؟

وهزّ امرايين وميلجون رأسيهما موافقين، فابتهج كيريسك لذلك.. إذن فالجميع يريدون أن يشربوا وليس هو وحده.

- حسنا، فلنمتع أنفسنا بالماء ثم ندخن.

وثبت أورجان دفة القاربَ وهو يقول هذه الكلمات، ورفع وعاء الماء من قعر القارب، ووضعه في متناول يده، وراح يصب منه في

مغرفة نحاسية مطلية بالقصدير من الداخل. كان الماء بارداً ورائقاً، فقد جلبوه من العين الموجودة في سفح الكلب الأبلق من الناحية الأخرى غير المواجهة للبحر. فالماء هناك محبب، ودائماً نظيف ولذيذ الطعم. وفي الصيف تفوح منه رائحة العشب والأرض الطرية.

وأمسك كيريسك بالمغرفة تحت تيار الماءالمنساب. كان متلهفاً إلى الشرب. وعندما امتلأت المغرفة إلى نصفها أغلق العجوز أورجان فم الوعاء بسدادة، وقال لكيريسك:

- هيا اشرب! ثم اسق الآخرين - وحذره قائلاً - لا تسكب الماء!

في البداية شرب كيريسك بشراهة، ثم أبطأ قبل النهاية، وعندئذ أحس بأن الماء تفوح منه رائحة خشب الوعاء المنتفخ.

وسأل أورجان:

- ارتويت؟

- - نعم.

- أرى من عينيك أنك لم ترتو تماماً. حسناً، ليكن. سأعطيك قليلاً. الكبد شيء قوي. لو كنا على اليابسة لشربت ولو دلواً - قال العجوز وهو يصب لكيريسك قليلاً من الماء. وعندئذ ارتوى كيريسك تماماً، وأحس صدق ما يردده الكبار في مثل هذه الأحوال عندما يقولون إن نفوسهم اطمأنت.

ثم صب أورجان ثلاثة أرباع مغرفة لكل مجذف، وقدم كيريسك بنفسه المغرفة لكل منهما. فبعد أن شرب حتى ارتوى لم يكن لديه أي مانع في أن يشرب أبوه وميلجون قدر ما يريدان. ولكن العجوز أورجان رأى من الضروري أن يشرح له لماذا صب لهما ثلاثة أرباع مغرفة:

- أنت ما زلت صغير الجسد، أما هما فانظر كم هما كبيران! ثم إن عملهما شاق. فعندما تجذف تشعر برغبة شديدة في الشرب!

وبالفعل فقد أفرغ هذان الماء في جوفيهما على الفور، واضطر أورجان أن يزيدهما قليلاً. وهنا وجد العجوز من الضروري أن يوبخهما فقال:

- على مهلكهما يا فتيان! لسنا جالسين على شاطئ نهر!

وردّ امرايين وميلجون بابتسامة، وكأنهما يقولان: إننا نعرف، ولكن ما العمل إذا كنا نشعر بظمأ شديد.

ولكن أورجان نفسه، بعد أن شرب نصيبه هز رأسه وقال ساخراً:

- نعم، لا بأس لو كنا جالسين على شاطئ نهر. انظر كم هي قوية هذه الكبد النيئة...

ثم حشا غليونه وأشعله، ونفث الدخان باستمتاع وهو لا يخمن أنه لن يشعر بهذه المتعة بعد الآن...

وكان كيريسك أول من رأى الكارثة!..

* * *

قبل ذلك كانت لحظة سكينة رائعة، عندما أطفأ الجميع ظمأهم وأحسوا بالرضا والسعادة.

لقد اصطادوا أول فقمة، وسرعان ما سينزلون إلى الجزيرة للراحة، وفي الصباح يستأنفون الصيد الكبير. وبعده سيعودون فوراً ودون إبطاء. كان كل شيء على ما يرام.

سار القارب كما في السابق وهو يتهادى فوق الامواج. وجلس العجووز أورجان في المؤخرة ممسكا بالدفة وهو يمص غليونه، وربما كان يفكر في حورية البحر. أما امرايين وميلجون فكانا منكبين على المجاذيف يضربان بها بخفة ودقة وجمال وكأنما دون مجهود. ودون أن يشعر أخذ كيريسك يتملى الصيادين بإعجاب. وبغريزة صبيانية راح في تلك اللحظة يتأمل كلاً منهم على حدة ويفكر فيه. كان يحبهم عن غير وعي، ويفخر بأنه معهم وسط البحر في تلك الساعة.

لم يكن بوسعه أن يتصور هؤلاء الرجال بصورة أخرى. فلا بد أن العجوز أورجان كان دائماً هو العجوز أورجان، وبهذه الحرقدة، والعنق الطويل، والذراعين الطويلتين المعقدتين كجذور الأشجار، والعينين الدامعتين اللتين تفهمان كل شيء. وهل كان من الممكن أن يكون ذلك على نحو آخر؟ هل كان من الممكن أن تمضي الحياة بدون هذا الشيخ، بدون هذا الرجل الموقر؟ غريب، أحقاً كان من الممكن ذلك؟

أمه تقول إنه، أي كيريسك يشبه أباه، وإنه عندما يكبر سيكون نسخة طبق الأصل منه. وتقول إن عينيه كعيني أبيه تماماً، عسليتان كجوز البلوط، وإن اسنانه قوية، والسنتان الأماميتين بارزتان تماماً مثل أبيه. وستكون لحيته مثل لحية أبيه سوداء، قوية، كثيفة. ولذلك يسمون أباه «امرايين أبو ذقن». وعندما كان كيريسك صغيراً، عندما كان ينزل إلى النهر عارياً كانت أمه تغمز أختها في جنبها قائلة: انظري، مثل أبيه بالضبط. وتضحكان معاً من شيء ما، وتتهامسان بمكر، وتقول أمه إنه عندما يكبر ويتزوج بامرأة مثلها هي، فإن زوجته ستكون راضية عنه وستشعر بالسعادة معه، فأمه تعرف ذلك. أما هو فبدا له غريباً آنذاك: من هي تلك التي ستشعر معه بالسعادة، وكيف؟ ولماذا ستكون زوجته راضية إذا ما كان مثل أبيه؟

ها هو أبوه جالس أمامه يجذف. أسود اللحية، أبيض الأسنان، عريض الكتفين، واثقاً بنفسه، هادئ الأعصاب دائماً. لا يذكر كيريسك أن أباه صرخ فيه مرة أو أشفق عليه وحماه كما يفعل الآخرون. أما عيناه فبالفعل مثل جوزتي بلوط ناضجتين، صافيتان تشعان بريقاً.

وخلفه، يجلس إلى زوج المجاذيف الثاني، ابن عم أبيه ميلجون، الأصغر منه بعامين. وليس لديه لحية تقريباً، اللهم إلا شعيرات متصلبة

كشوارب فيل البحر. وهو أيضاً يشبه فيل البحر. إنه يحب الحديث والجدل إذا كانت الأمور على غير ما يتصور. ولا يدع أحد يهضم حقه. وقد تشاجر مرة مع أحد التجار الوافدين، واضطرت العشيرة كلها إلى الاعتذار للتاجر وترضيته، أما ميلجون فلم يرجع عن موقفه بأي حال وظل يتهجم بقامته القصيرة المستديرة كجذع الشجرة ويقول إنه سيثبت له أنه على حق. وشرب حتى ثمل، فهو يحب الشراب. وحاول عدة رجال، ومن بينهم امرايين، أن يكتفوه فلم ينجحوا إلا بصعوبة. فقد اتضح أنه قوي كالدب. وهو بالنسبة لكيريسك «عم ميلجون». وهو صديق لأبيه، ودائماً يخرجان للصيد معاً لأن كلاً منهما يستطيع الاعتماد على صاحبه وكلاهما صياد قدير. ولميلجون ابن ما زال صغيراً لم يبدأ في الجري إلا مؤخراً، وابنتان أكبر منه. وكيريسك لا يدع أحداً من الأولاد يمسهما بسوء، والويل لمن يحاول ذلك. أما والدة كيريسك فتحب البنتين حباً جماً، وكثيراً ما تأتيان للعب مع بسولك.

ولكن أجمل الفتيات هي موزلوك! ومن المؤسف أنها عندما ستكبر سيزوجونها - كما يقال - لقوم آخرين، في مكان مجاور. ولكنه قد يستطيع أن يمنع ذلك...

نادراً ما كان كيريسك يفكر في أمور كهذه وهو على الشاطئ. اما على البعد فقد اكتسبت كل الأشياء المألوفة مغزى جديداً مؤثراً لم يألفه من قبل.

أحس فجأة برغبة شديدة في العودة إلى المنزل، هناك خلف رابية الكلب الأبلق، في وادي النهر، عند طرف الغابة، حيث يمتد المضرب القديم للنيفخيين، أبناء حورية البحر. أحس بالشوق العارم إلى أمه إلى درجة الألم في القلب. إلا أنهم كانوا بعيدين عن الشاطئ الحبيب، وعن الكلب الأبلق العزيز الراكض أبداً عند حافة البحر

الخالد لقضاء حاجته. والتفت كيريسك رغماً عنه وكأنما ليتأكد من ذلك، وحينما طاف بنظره فيما حوله رأى شيئاً غير متوقع على الإطلاق.

كان جدار رمادي من الضباب الكثيف يزحف في البحر نحوهم ساداً نصف الأفق تقريباً، منقسماً إلى لسانين عريضين يسيران إلى الالتقاء. وراح الضباب يقترب بوضوح وهو يتصاعد بعنف فوق سطح المياه السوداء ويملأ بإصرار كل الفضاء المحيط. كان يقترب ككائن حي، كغول مفترس يبغي الإمساك بهم وابتلاعهم بقاربهم وبكل العالم المرئي وغير المرئي. وكان الضباب قادماً من تلك الجهة التي رأى فيها كيريسك من قبل كتلة صماء رمادية غير محددة وظنها من بعيد جزيرة. أما الآن فقد اندفعت تلك الكتلة كلها، وهي تنتفخ وتكبر أمام أعينهم، اندفعت نحوهم بلا صوت ودون توقف تسوقها الريح.

وصاح كيريسك مذعوراً:

- انظروا! انظروا!

وذهلوا جميعاً. وتأرجح القارب فوق الأمواج عندما بقي لحظة دون توجيه. وفي تلك اللحظة تناهى إليهم صخب الموج العظيم المنذر، المندفع من تحت ستار الضباب الكثيف. كان الموج يتدافع مع الهدير المتزايد للمياه الثائرة، وهو يغلي ويزبد ويثور عالياً ويتحطم في آن واحد.

وصاح أورجان بصوت رهيب:

- دوّر! دوّر بالوجه!

وما إن تمكن المجذفان من إدارة القارب حتى يواجه الموجة بمقدمته حتى كادت أول ضربة من العاصفة تقلب قارب أورجان. ومرت الموجة العاتية مثيرة خلفها هيجان البحر، وعلى الفور دهمهم الضباب. وعندما لم تبق بينهم وبين حافة الكتلة الضبابية الزاحفة سوى

مسافة قصيرة، بدا واضحاً بأي ظفر مكفهر وإصرار شرير كانت هذه الظلمة المتصاعدة الحية تتحرك.

ولم يكد أورجان يصيح:

- تذكروا اتجاه الريح! تذكروا اتجاه الريح!- حتى غاب كل شيء في الظلام الدامس. دهمهم الضباب كالانهيار الثلجي في الجبال ودفنهم في هوة مظلمة بلا قرار. وفي لمح البصر انتقلوا من عالم إلى عالم آخر. واختفى كل شيء. ومنذ تلك اللحظة لم يكن هناك شيء اسمه السماء أو البحر أو القارب. حتى أنهم لم يروا بَعضهم بعضاً. ومنذ تلك اللحظة لم يعرفوا للراحة طعماً، فقد كان البحر يعصف، والقارب يقفز تارة إلى أعلى، وتارة إلى أسفل، ومرة يطير فجأة، ومرة يهوي إلى أعماق الفجوة المنبثقة بين الأمواج. وابتلت ملابسهم من الرذاذ والطرطشة وأصبحت ثقيلة. لكن الطامة الكبرى أنهم وسط هذا الضباب الكثيف لم يستطيعوا أن يميزوا شيئاً حولهم، ولم يروا أي شيء، ولم يكن بوسعهم أن يعرفوا ما الذي يحدث في البحر وما الذي ينبغي عليهم أن يفعلوه. لم يعد أمامهم سوى شيء واحد: أن يكافحوا عشوائياً، على غير هدى، لمجرد أن يحتفظوا بالقارب فوق سطح الماء بأية وسيلة ويحافظوا عليه من الغرق. ولم يكن ثمة مجال للتفكير في توجيه القارب نحو هدف ما، فقد ساقته الأمواج حسب هواها الجامح إلى حيث لا يدري أحد، ولم يكن معروفاً إلى متى سيستمر هذا الحال.

وكان كيريسك قد سمع من قبل عن حوادث تعرض الصيادين لعواصف البحر وعن اختفائهم أحياناً إلى الأبد. وعندئذ كان الحداد يشمل الجميع، وتقوم النساء والأطفال بإشعال النيران على سفوح الكلب الأبلق لأيام عديدة بأمل لا رجاء فيه: ربما! ولكن حينذاك لم يكن يتصور حتى ولو تقريباً كم هو رهيب وفظيع أن تموت في عرض

البحر. ولا سيما لم يتصور أن الضباب المسالم، هذا الوافد الصامت في فصل الشتاء، الذي كان يحب مجيئه، عندما تتلفع الدنيا الغرقى في الهدوء اللبني المسحور بغلالة بيضاء منبسطة، وعندما يبدو وكأن الأشياء تتبخر وتتجمد شفافة في الهواء، وتمتلئ النفس رعباً غامضاً وقلقاً في انتظار وقوع شيء ما أسطوري.. لم يكن يتصور أن هذا الضباب يمكن أن يتحول إلى مثل هذا العدو الرهيب الذي يملأ الدنيا كلها. كانت سحب هذا الضباب الداكنة تتلوى وتنزلق وتنتشر ثم تنكمش من جديد فتبدو مثل ثعابين تتحرك فوق البحر الثائر...

تشبث كيريسك بالمقعد وانكمش وهو يرتعد رعباً ملتصقاً بساق أورجان.

وصاح أورجان فوق أذنه:

- امسك بي! امسك بقوة!

ولم يكن في وسعه أن يقول أو يفعل أكثر من ذلك للصبي. ولم يكن في استطاعة أي منهم أن يخفف عنه بلواه، فقد كانوا جميعاً على قدم المساواة أمام هذه القوة الطبيعية المجنونة. وحتى لو صرخ كيريسك وبكى، وراح يدعو أباه لما تحرك امرايين من مكانه، لأن القارب لم يبق عائماً إلا لأن امرايين وميلجون كانا يوازنانه بضربات المجاذيف باستماتة وهما يخمنان لطمات الامواج وتفجراتها.

أما الامواج فساقت القارب دون توقف إلى ظلمات الضباب الحالكة. وحاول أورجان بشكل ما أن يوجه القارب لكي يحتفظ بتوازنه، إلا أن العاصفة ازدادت عنفاً بمرور الوقت.

كان من الصعب تحديد الزمان في الضباب. ربما كان الوقت الآن منتصف الليل. وكان بوسعهم فقط أن يخمنوا حلول الليل من كثافة الظلمة الحالكة. وفي هذه الظلمة دار لساعات طوال هذا الكفاح غير المتكافئ المستمر المنهك المضني ذو النهاية الخاسرة تقريباً. ومع

ذلك ظل الصيادون صامدين، ولم يفقدوا الأمل المجنون بأن العاصفة ربما تنتهي فجأة كما بدأت، ويتبدد الضباب، وعندها ينظرون فيما ينبغي عليهم أن يفعلوه. وفي لحظة كاد هذا الأمل يتحقق. فقد جاءت فترة بدا فيها أن العاصفة قد بدأت تهدأ، وخفتت حدة التأرجح، وهدأ الرذاذ المتطاير وطرطشة الماء. ولكن الظلام ظل محيطاً بهم كما كان، كثيفاً، أسود كالقطران. وكان أورجان أول من نطق، فعلا صوته فوق هدير البحر:

- إنه انا! كيريسك معي! هل تسمعانني؟

فصاح امرايين بصوت أبح:

- نسمعك! نحن في أماكننا!

وصرخ أورجان:

- من الذي تذكر اتجاه الريح؟

فزعق ميلجون بغلٍ:

- وما الفائدة؟

صمت العجوز. وبالفعل، فلم يكن اتجاه الريح يعني أي شيء لهم الآن. كان من العسير الآن معرفة أين هم، وإلى أين ساقتهم الأمواج، وهل هم بعيدون أم قريبون من الجزر التي يمكن أن تكون علامات مرشدة إلى الطريق. وربما سيحملهم التيار إلى مكان بعيد جداً لا يستطيعون إلى الأبد أن يجدوا «حلماتهم». صمت العجوز تحت وطأة الظلام والتأرجح. صمت أورجان العظيم مستغرقاً في تفكير مضن. الشيء الوحيد الذي كان يمكن اعتباره من حسن الطالع أنهم نجوا من التحطم على صخور الشاطئ عندما أبعدتهم إرادة القدر عن الجزيرة. بيد أنه بدون الجزر والنجوم وسط الليل والضباب لا توجد أية وسيلة للاهتداء. كان أورجان عاجزاً عن أن يقول أي شيء. ورغم ذلك فقد صاح بعد فترة:

- كانت الريح «تلانجى- لا»(*) عندما ادرنا القارب!

ولم يرد عليه أحد، فقد كان المجذفان في شغل عن الرد. وصمت أورجان من جديد. وسرت الرعشة في بدن كيريسك كله وهو ملتصق في ساق العجوز. عندئذ قال أورجان للمجذفين:

- أنا وكيريسك سننزح الماء، أما انتما فاصمدا!

وانحنى على كيريسك وتحسسه في الظلام وقال له بعد أن تأكد أنه لم يصب بأذى:

- لا تخف يا كيريسك، هيا ننزح الماء، والا ساء حالنا. لدينا كوز واحد، هاهو، لقد وجدته، اما أنت فخذ المغرفة.. هل أنت ممسك بها؟ أقول لك خذ المغرفة!

- نعم يا جدي، إني ممسك بها. هل سيستمر هذا طويلاً؟ إنني خائف.

فقال العجوز أورجان:

- أنا أيضاً خائف، ولكننا رجال، وهذا قدرنا.

- ألن نغرق يا جدي؟

- لن نغرق، وإذا غرقنا فهذا إذن حظنا. أما الآن فامسك بي بإحدى يديك، وبالأخرى انزح الماء.

كان من حسن الحظ أن أورجان تنبه في الوقت المناسب، وانتهز فرصة الهدوء القصيرة فتمكن مع كيريسك من نزح الماء المتجمع في القارب. وفي تلك اللحظة التي كانا فيها ينزحان الماء متلمسين طريقهما في الظلام، لفت أورجان انتباه كيريسك إلى الوعاء الصغير الذي شربا منه في النهار. وقال له وهو يشد على يده:

(*) «تلاجى - لا» رياح بحرية جنوبية شرقية شديدة وباردة.

- يا كيريسك، ها هو وعاؤنا، هل تلمسته؟ تذكر أنه مهما حدث، فعليك أن تحافظ على الوعاء. امسك به، تشبث ولا تفلته. إذا حدث شيء فالأفضل أن نهلك على أن نبقى بدونه. هل فهمتني؟ لا تعتمد في ذلك على أحد. .سامع؟

وحسنا أنه أخبر الصبي بذلك ولفت انتباهه في الوقت المناسب. فقريباً جداً سيحتاج الصبي إلى ما قاله.

وبعد أن هدأت العاصفة قليلاً عادت إلى الثورة من جديد، وبقوة وعنف أشد، وكأنها تستغل ظلام الليل وعجز الصيادين الذين لم يميزوا شيئاً حولهم في الظلام والضباب. وفي هذه المرة هاجمتهم الأمواج بعنف وكأنها فعلاً تنتقم من فترة الهدوء القصيرة. واختلج قارب أورجان ودار بين الأمواج غير المرئية التي كانت تطوح به من جانب إلى جانب بلا رحمة. وغطت دفقات الماء القارب فامتلأ به وغاص أكثر. ورغم محاولات أورجان المحمومة لنزح الماء وهو يزحف على ركبتيه فقد كان من المستحيل أن يلاحق تدفق الماء، وعندئذ صرخ المجذفان بغلّ ويأس:

- ارموا كل شيء! إننا نغرق! ارموا!

وأجهش كيريسك بصوت عال من الخوف، ولكن أحداً لم يسمعه، وكانوا جميعاً في شغل عنه فانزوى في مؤخرة القارب متشبثاً بوعاء الماء ومال فوقه بجنبه وهو ينتفض من البكاء. كان يذكر أن أهم ما ينبغي أن يفعله هو المحافظة على الوعاء مهما حدث. وكان يدرك أنهم يغرقون ولكنه فعل ما أمره به الشيخ أورجان.

كان لا بد من إنقاذ عاجل للقارب الموشك على الغرق. وظل ميلجون يضرب بالمجذافين بجنون، وهو يبذل أقصى جهده لكي يمنع القارب من الانقلاب، أما أورجان وامرايين فراحا يلقيان خارج القارب بكل ما كان فيه. لم يكن ثمة حل آخر. وطارت إلى البحر البندقيتان،

والحربة ولفائف الحبال وغيرها من الحاجيات، بل وحتى غلاية أورجان الصفيح. وكان أصعب شيء إلقاء جسد الفقمة، فقد تبلل وثقل وأصبح زلقاً يفلت من الأيدي. وكان لا بد من رفعه من قاع القارب ودحرجته من فوق حافته. كان عليهم أن يلقوا بالصيد.. بما سعوا إليه في رحلتهم إلى الجزر غير المأهولة. ومضى أورجان وامرايين يدمدمان بصوت متحشرج مطلقين السباب واللعنات، وحتى استطاعا بجهد جهيد أن يدفعا جسد الفقمة في القاع الضيق إلى حافة القارب ويدحرجاه أخيراً إلى البحر. وحتى في هذا الاضطراب والاشتباك الرهيب مع البحر أحسوا كيف اهتز القارب بارتياح، متخففاً من ثقل الحمولة. وربما كان ذلك هو ما أنقذ الموقف...

* * *

كان أورجان أول من استيقظ. لم يستطع أن يدرك للوهلة الأولى وسط هذا الفراغ الأبيض الخامد أين هو وما معنى هذا السكون العكر الأصم. كان ذلك هو الضباب.

كان ذلك الضباب العظيم، الذي استقر في تلك الفترة فوق آماد المحيط بلا منازع وفي سكون ورسوخ. كان الضباب العظيم يمر بفترة جموده العظيم...

وعندما ألفت عيناه قليلاً استطاع العجوز أورجان أن يميز في الظلام ملامح القارب، ثم بعد ذلك الأشخاص. كان امرايين وميلجون منطرحين في مكانيهما قرب المجاذيف. كانا راقدين في وضع غريب، بعد أن هدّهما التعب من عاصفة الليل، فبدا وكأنهما خرا صريعين في موضعهما، ولم يكن من دليل على أنهما على قيد الحياة سوى هذا الشخير الأبح المتقطع. ورقد كيريسك منكمشاً عند قدمي العجوز، منكفئاً على الوعاء. وكان يرتعد في رقاده من الرطوبة والبرد. وأشفق أورجان عليه، لكنه لم يكن قادراً على مساعدته.

كان العجوز جالساً في مؤخرة القارب منكساً رأسه الأبيض وقد أصمته ليلة الأمس. وكان جسده كله يؤلمه. وتدلت ذراعاه الطويلتان المعقدتان كالعيدان. لقد مر أورجان في حياته بكثير من المحن والكروب المختلفة، ولكن حتى هو لم يعرف مثل هذه الحالة القاسية. لم يكن يتصور أين هم الآن، وإلى أين ساقتهم العاصفة، وعلى أية مسافة هم من اليابسة، وهل هم في البحر أم في المحيط نفسه. لم يكن يتصور حتى في أية ساعة هم، إذ كان من المستحيل تمييز الليل عن النهار في هذا الضباب الكثيف الأصم المتجمد. ولكن الأرجح، وإذا ما راعينا أن العواصف تهدأ عادة في الصباح، أن الوقت نهار. وربما النصف الثاني من النهار.

ومهما كان الأمر، ورغم فرحة نجاتهم بمعجزة، فقد كان هناك ما يجعل أورجان ينكس رأسه. فبعد أن فقدوا كل ما كان لديهم في الرحلة، حتى البنادق التي قايضوا عليها بعض التجار الوافدين بمائة فراء سمور، لم يعد لديهم سوى قارب وأربعة مجاذيف ووعاء ماء عذب. ترى ما الذي يخبئه المستقبل لهم؟

بالطبع عندما يستيقظ المجذفان فسوف يتشاورون جميعاً فيما يمكن عمله. ولكن من ذا الذي سيخبرهم بالجهة التي ينبغي عليهم أن يقصدوها. هذا قبل كل شيء. وثانياً إذا ما انتظروا حلول الليل، وكانت السماء صافية، فربما أمكنهم تحديد موقعهم بواسطة النجوم. ولكن كم من الزمن ستستغرق رحلتهم؟ وكم ستتطلب من جهد ووقت؟ هل سينجحون في الوصول؟ وهل سيقوون على الصمود؟

وهذا الضباب؟ أي ضباب! يرقد كثيفاً راسخاً فوق البحر، وكأنه استقر هنا إلى الأبد. أمن المعقول أنه في كل مكان؟ أمن المعقول أن العالم كله غرق في هذا الضباب؟

شعر برغبة في التدخين والشرب. بالنسبة للتدخين لم يكن هناك

مجال للتفكير، فكل ما تبقى لديه من تبغ أصابه البلل، ولا يعرف أين اختفى غليونه. وماذا عن الماء؟ والطعام؟ كان أورجان يخشى التفكير في ذلك. ما زال يستطيع أن يصبر، وإذن فمن الممكن ألا يفكر. . .

كانت صفحة البحر ساكنة سكون الموت، وليس في الجو أثر لنسمة. ووقف القارب في مكانه وهو يتأرجح قليلاً. لم يسحبه التيار إلى أي مكان فظل ثابتاً في موضعه. واستقرت المجاذيف الملقاة فوق سطح الماء في استرخاء. كان من الممكن فهم امرايين وميلجون، فقد بلغا من التعب حداً لم يستطيعا معه رفع المجاذيف إلى داخل القارب، بل غابا في نوم عميق.

لفّ السكون كل شيء في هذه الظلمة والجمود. سكن البحر، وسكن القارب، وسكن الضباب. . لم يكن ثمة داع للعجلة ولا وجهة يمضون إليها. . .

أغفى العجوز مع أفكاره الحزينة ولم يستيقظ إلا والصبي يهزه ويقول:

- يا جدي، يا جدي! نريد أن نشرب.

انتفض أورجان ثم أدرك أن ثلاثة من أبناء عشيرته ينتظرون ما سيأمر به لأنه كبيرهم، أدرك أن أفظع شيء سيبدأ: تقسيم الماء. . .

وكان الضباب كثيفاً وساكناً، والسكون يلفّ البحر.

* * *

ظلوا بقية النهار يسبحون في الضباب على مهل. . بلا وجهة ولا غاية معروفة.

فبعد أن عادوا إلى رشدهم وأدركوا حقيقة وضعهم، لم يعد في وسعهم أن يبقوا في مكانهم.

فمضوا. . ربما كانوا بذلك يقتربون من اليابسة، وربما على العكس، يبتعدون عنها.

على أية حال كان في ذلك نوع من إيهام النفس بأنهم ليسوا واقفين بلا حركة.

وكان كل أملهم أن ينقشع الضباب فتتضح الأمور.

فعلى أقل تقدير سيرون في الليل النجوم إذا ما انقشع الضباب. ومن الضروري في المقام الأول أن يمسكوا بالنجوم.

وكان ثمة أمل آخر بأن يعثروا على جزيرة ما، وهناك سيصبح الاهتداء أسهل.

وهكذا مضوا إلى المجهول، والضباب محيط بهم طوال الوقت.

وحتى في هذا الظرف فقد أمر أورجان بترتيب الأمور في الزورق إلى حد ما. فأفرغوا بقايا المياه من قاع القارب حتى لا يخوضوا فيها بأقدامهم. وأجلس كيريسك بجواره في مؤخرة القارب لكي يشعر الصبي بالدفء في كنفه، ولكي تجف ملابسه أسرع. ووزع الماء على الجميع بالتساوي. في البداية أعطى لكل منهم ثلاثة أرباع مغرفة، فبعد الليلة العاصفة كان لا بد أن يرتووا ولو مرة. ولكنه نبههم إلى انهم لن يشربوا بعد الآن الا إذا وجد هو ذلك ضرورياً، ولن يشربوا إلا بالقدر الذي سيحدده، ولمزيد من الإقناع رج الوعاء. .كان نصفه فارغاً.

وابتسم لهم الحظ صدفة. . فعندما شرعوا في توزيع الماء، وجدوا خلف الوعاء، في أقصى مؤخرة القارب تحت المقعد كيساً من جلد الفقمة فيه سمك مملح. كانوا قد ألقوا كيس الطعام الكبير في البحر مع غيره من الأشياء، أما هذا الكيس الصغير الذي أعدّته زوجة ميلجون للطريق، فقد بقي بالصدفة في مكانه، لأنه كان تحت المقعد، خلف الوعاء الذي عهد إلى كيريسك بالمحافظة عليه مهما كلف الأمر. صحيح أن الكيس كان مملوءاً بماء البحر، ولم يكن من الممكن تذوق السمك المملح لشدة ما تشبّع بملح البحر فوق ما فيه من ملح. ولكنهم على أية حال أصبحوا يملكون طعاماً. ولو كان لديهم من الماء

ما يكفي لكان هذا السمك مناسباً تماماً. ولكن أحداً لم يمد بعد يده إليه خوفاً من الظمأ...

كانوا جميعاً ينتظرون شيئاً واحدا: أن ينقشع الضباب...

وفي الجمود الضبابي الصامت التام لم يتردد إلا صرير مفاصل المجاذيف الكئيب. وبدا هذا الصرير وسط السكون العظيم أشبه بأنين متحشرج ضارع لإنسان تائه: أنا أين؟ أنا أين؟ وإلى أين؟ كانوا جميعاً ينتظرون شيئاً واحداً: أن ينقشع الضباب...

* * *

لكنه لم ينقشع، ولم يبد في نيته أنه سينقشع. لم يكن يتحرك. وبدا كأن شيئاً رهيباً لا يعقل، كائناً خرافياً من عالم آخر، ينفث رطوبة قارسة قد ابتلع الكون كله: الأرض والسماء والبحر...

ومن جديد ولد الليل في رحم الضباب. وكان من الممكن الحكم على ذلك من ازدياد الظلمة. ولم يكن ثمة أثر للسماء أو النجوم فوقهم.

ولم يعد هناك معنى للسباحة بالقارب لمجرد السباحة.

كانوا ينتظرون ويأملون أن تظهر النجوم في السماء، كانوا ينتظرون ظهورها في كل لحظة. وكانوا ينتظرون أن تهبّ الريح لتطرد هذا الضباب البغيض الملعون. ولم يناموا. واتجهوا برجائهم إلى روح السماء لكي تكشف الغطاء عن قبة السماء، ورفعوا ضراعتهم إلى سيد الرياح، الوحش ذي اللبدة النافرة، بأن يستيقظ من نومه هناك وراء البحر.

ولكن بلا جدوى. فلم يسمع أحد توسلاتهم ولم ينقشع الضباب.

وكان كيريسك أيضاً ينتظر ظهور النجوم. هذه النجوم التي كانت تلمع عادة في السماء كاللعب، أصبحت الآن أحوج ما يحتاج إليه. لقد زلزل ما وقع بالأمس الصبي وألقى في قلبه بالرعب. فليس أسهل

من أن تتحطم نفس الطفل وتنسحق إلى الابد. إلا أن وجود ثلاثة من الكبار في قارب واحد معه، وصمودهم رغم الخطر العام المميت، عندما بدا أن نهاية رحلتهم حلت، وتغلبهم على قوى الطبيعة المسعورة.. قد عزز في قلبه الأمل بأنهم سيجدون طريق الخلاص في هذه المرة أيضاً. كان مؤمناً تماماً بأنه ما إن تظهر النجوم في السماء حتى تنتهي متاعبهم.

وراح يضرع بأن يحدث ذلك بسرعة حتى يعودوا بسرعة إلى اليابسة، إلى الكلب الأبلق، بسرعة، بسرعة، بسرعة، لأنه كان عطشان، كان العطش لا يطاق، ومع مضي الوقت ازدادت حدة الرغبة في الشرب والأكل، وفي العودة إلى البيت، إلى الأم، إلى الأقارب، إلى الدور والدخان والجداول والعشب...

قضى المساكين ليلتهم في انتظار ممض، لكن شيئاً لم يتغير.. لم يتزحزح الضباب من مكانه، ولم تظهر النجوم في السماء، وظل البحر ملفعاً بالظلام. وعانوا طوال الليل من الظمأ والبرد والبلل، إلا أن الرغبة في الشرب كانت أقوى من كل شيء آخر. وربما ظن كيريسك أنه هو وحده الذي يعاني من العطش، ولكن الآخرين كانوا مثله في المعاناة. بيد أنه كان أكثر منهم رغبة في الشرب، وكان هذا يعذبه.

ولكن الشيخ أورجان لم يعطهم ماء حتى عندما طلب كيريسك قليلا منه. قال له بحزم:

- لا.. لن نشرب الآن. اصبر.

وآه لو كان العجوز أورجان يدري كم يود كيريسك أن يشرب بعد السمك المملح الذي اضطروا إلى أكله، هو وأبوه وميلجون، من شدة الجوع في آخر النهار. ورغم أنهم شربوا بعده قليلاً من الماء فقد كان ذلك غير كاف. وبعد فترة عاد الظمأ يعذبهم أكثر من ذي قبل. أما العجوز أورجان فلم يقرب السمك المملح، بل غالب نفسه، ولم

يشرب أيضاً، لم يذق قطرة لكي يقتصد في الماء. شربوا في ذلك اليوم مرتين: في الصباح، وفي المساء، ما عدا أورجان. شربوا في المساء قليلاً.. مجرد قطرات في قعر المغرفة، بينما تناقصت المياه في الوعاء.

وكلما استبد بهم الظمأ الحارق أصبح انتظار تغير الجو عذاباً مضاعفاً.

هكذا استمر الحال طوال الليل.. وطوال الليل جثم الضباب الخامد البارد. ولم يتحرك البحر...

* * *

وفي الصباح لم يحدث أي تحول.. اللهم إلا أن أعماق الضباب الرمادية الداكنة أشرقت قليلاً واتسعت بعض الشيء. أصبح من الممكن الآن تمييز الوجوه والأعين. وعلى بعد عدة أذرع من القارب تراقصت كتلة المياه الراكدة الثقيلة كالزئبق بلون فضي. لم ير كيريسك في حياته مياهاً راكدة إلى هذا الحد.

ولا أثر لريح، ولا إشارة إلى تحول.

وفي ذلك الصباح ذهل الصبي من التحول الشديد الذي أصاب وجوه الكبار. لقد غارت خدودهم بشدة، واكتست بشعر قصير خشن، وانطفأ بريق العيون وأحاطت بها دوائر سوداء، كأنما أصابهم مرض فتاك. حتى أبوه، القوي الواثق بنفسه، تغير كثيراً. لم يبق فيه كما هو إلا لحيته. كانت شفتاه سوداوين ممزقتين من الكز عليهما. وكان يتطلع إلى كيريسك بشفقة رغم أنه لزم الصمت ولم ينطق بكلمة. أما العجوز أورجان فقد أصبح أكثرهم ضعفاً. تهدلت كتفاه، وازداد شيبه بياضاً، واستطال عنقه ذو الحرقدة، ودمعت عيناه أكثر من ذي قبل. ولم يبق من أورجان السابق إلا نظرته.. ظلت نظرة الشيخ الحكيمة الصارمة تنطوي كما في السابق على معانٍ هامة لا يعرفها إلا هو وحده.

بدأ النهار بأقصى الأمور . . بتوزيع جرعات من المياه. وكان أورجان هو الذي يصب. أطبق على الوعاء تحت ابطه، وراح يصب منه الماء خيطاً دقيقاً في قعر المغرفة، وكانت يداه أثناء ذلك ترتعشان بشدة. وأعطى كيريسك أول الجميع، فاختطف هذا المغرفة بلهفة، وأخذت أسنانه تصطك بحافتها، وشعر للحظة واحدة وهو يتجرع الماء بالرطوبة تسري في داخله وبحمى الظمأ تهدأ، وبرأسه يدور من الانفعال. ولكن ما إن أعاد المغرفة حتى عادت الحمى ثانية كما في السابق بل أشد، كأنما كان في داخله وحش أثاروا ثائرته. ومن بعده شرب ميلجون، ثم امرايين. كان منظرهما مرعباً وهما يشربان. أطبقا على المغرفة بأيد مرتعشة، وأعاداها دون أن ينظرا إلى وجه أورجان، وكأنه هو المذنب في قلة الماء. أما أورجان نفسه، فعندما جاء دوره، لم يصب لنفسه قطرة. سد الوعاء في صمت. وبدا ذلك لكيريسك مستحيلاً. فلو كان الوعاء بين يديه لصب لنفسه مغرفة كاملة، ثم ظل يشرب ويشرب إلى أن يسقط مغشياً عليه. وليكن بعدها ما يكون. المهم أن يشرب مرة حتى يرتوي. أما العجوز أورجان فقد حرم نفسه حتى ما هو من حقه. امتنع عن شرب قطرات في قعر المغرفة.

وأخيراً لم يطق امرايين صبراً فقال بصوت ابح وهو يغالب نفسه:

- لماذا يا جدي؟ صب لنفسك مثل الجميع! بالأمس أيضاً لم تشرب. إذا كنا سنموت فلنمت معاً!

فأجاب أورجان بهدوء:

- لا تهتموا بي!

- فرفع امرايين صوته:

- - كلا، هذا ليس صحيحاً - وأضاف بعصبية: وإذن فلن أشرب أيضاً!

فقال أورجان بحرارة:

- وهل هناك ما يشرب! ما الداعي للكلام؟

وهز رأسه قليلاً وكأنه يقول: يا لكم من حمقى، ونزع السدادة ثانية، وصب قطرات وقال - فليشرب كيريسك بدلاً مني. وارتبك الصبي، وصمت الجميع. ومد أورجان المغرفة إليه قائلاً:

- خذ يا كيريسك، اشرب. لا تفكر في شيء.

وصمت كيريسك.

- اشرب. .- قال له ميلجون.

- اشرب. .- قال له امرايين.

- اشرب. .- قال له العجوز أورجان.

تردد كيريسك. كان يموت من العطش، وبوده لو أفرغ في جوفه هذه القطرات، ولكنه لم يجرؤ.

وقال مغالباً الرغبة المعربدة في جوفه:

- لا، لا يا جدي، اشرب أنت.

وأحس بدوار.

ارتعشت ذراع أورجان من هذه الكلمات، فزفر زفرة عميقة. ورقت نظرته وهي تداعب الصبي برضا.

- أتدري كم شربت في حياتي. . أما أنت فيجب أن تعيش طويلاً لكي. . .- ولم يستطع أن يكمل - هل فهمتني يا كيريسك؟ اشرب، هذا ضروري، عليك أن تشرب، ولا تهتم بشأني. خذ!

ومن جديد لم يشعر إلا للحظة واحدة وهو يتجرع الماء بالرطوبة تسري في داخله، وبحمى الظمأ تهدأ، وعلى الفور عاودته الرغبة في الشرب. وفي هذه المرة أحس في فمه بمذاق الماء العفن. ولكن لم تكن لذلك أية أهمية. المهم أن يوجد الماء، أياً كان، شرط أن يكون عذباً. بينما كانت المياه تتناقص. . .

وقال أورجان مخاطباً بني قومه:

- والآن ما العمل؟ هل نمضي؟

حلّ صمت طويل. وتطلعوا جميعاً حولهم، بيد أنه لم يكن في الدنيا شيء سوى سد الضباب على بعد ذراعين من القارب.

وتنهد امرايين وقطع حبل الصمت قائلاً:

- وإلى أين نمضي؟

ولكن ميلجون احتد فجأة ولسبب ما:

- ما معنى إلى أين نمضي؟ سنمضي، فالأفضل أن نمضي من أن ننفق في مكاننا!

وقال امرايين معارضاً:

- وما الفرق؟ ما الفرق بين أن نمضي أو لا نمضي؟ لا فرق في ظل هذا الضباب.

فقال ميلجون بمزيد من التحدي:

- إنني أبصق على هذا الضباب! مفهوم؟ سنمضي وإلا قلبت رأساً على عقب هذا القارب الملعون ولنكن طعاماً للسمك! هل فهمتني يا امرايين، سنمضي! هل فهمت؟..

جاشت نفس كيريسك اضطراباً، وشعر بالخجل من سلوك عم ميلجون. لم يكن تصرفه لائقاً، فهو على أي حال أصغر من أبيه. إذن فقد اهتز فيه شيء ما واختل، أم أن الخلل أصابهم أو ما يمثلونه هم الأربعة في هذا القارب. أطرق الجميع في صمت وحزن. وصمت ميلجون أيضاً وأنفاسه تتعالى في صخب. ونكس امرايين رأسه. أما العجوز أورجان فكان ينظر إلى جهة ما ولا ينم وجهه عن شيء، مثل هذا الضباب الذي أحاطهم بجدار أصم من جميع الجهات.

وأخيراً قال امرايين:

- اطمئن يا ميلجون، لم أكن أقصد شيئاً. طبعاً الأفضل أن نمضي بدلاً من الوقوف في مكاننا. أنت محق، هيا نمضي.

وتحركوا. وصرّت مفاصل المجاذيف من جديد، وعادت المجاذيف ترتفع وتنخفض بضربات خفيفة، وينفسح الماء من أمام القارب بلا صوت، ثم يضم أطرافه من خلفه على الفور بلا أثر. وساد انطباع بأنهم لا يتحركون بل واقفون في مكانهم. فمهما تقدموا كان الضباب يحيط بهم كأنهم يدورون في حلقة مفرغة. وربما كان ذلك هو الذي أثار ثائرة ميلجون من جديد. فقال بعصبية:

- إنني أبصق على ضبابك يا امرايين، أتسمعني؟ وأريد أن نمضي أسرع. هيا تحرك، جذف، لا تنم، أتسمع؟ انني أبصق على ضبابك!

وانكبّ ميلجون على المجاذيف بقوة وحدّة. وراح يطالب امرايين:

- هيا، هيا! جذف، جذف!

ولم يشأ امرايين أن يثير حنقه، ولكنه أحس بالإهانة، ومع ذلك انهمك في هذه اللعبة الجنونية.

ازدادت سرعة القارب. ومضى يخترق الضباب بقفزات دونما غاية أو داع، وراح ميلجون وامرايين يجذفان بوحشية دون أن يتخلف أحدهما عن الآخر، وبقسوة جنونية وكأنما كان بوسعهما أن يسبقا الضباب ويفلتا من نطاقه اللامحدود.

ومضت زعانف المجاذيف وهي تنثر الرذاذ المائل، وطرطشت المياه بجوار القارب، وكان وجها المجذفين المبللان بالعرق المكشران عن أنيابهما يميلان ويرتدان، وجسداهما تارة ينحنيان ويتقوسان وهما يقذفان بالمجاذيف، وتارة أخرى يستقيمان بحدة ويرتكزان بالمجاذيف في الماء...

تارة شهيق، وتارة زفير.. شهيق، وزفير..شهيق وزفير...

والضباب أمامهم، والضباب خلفهم، والضباب من حولهم.

وراح ميلجون يشجع وكأنه يبصق صارخاً:

- هيا! هيا!

وفي البداية تحمس كيريسك، وصدق وهم الحركة. ولكنه سرعان ما أدرك كم أن ذلك بلا جدوى ورهيب. وتطلع الصبي بخوف إلى العجوز أورجان منتظراً منه أن يوقف هذا السباق الجنوني. ولكن كان يبدو أن العجوز غير حاضر هنا، فقد كانت نظراته تهيم في مكان ما بعيد، وارتسم على وجهه تعبير انفصام. وكان وجهه مبللاً ولم يكن معروفاً هل كان يبكي أم أن عينيه تدمعان كالعادة. كان جالساً في مؤخرة القارب بلا حراك وكأنما لا يشعر بما يجري.

ومضى الزورق يخترق الضباب دونما غاية أو داع...

وترددت في الضباب الصيحة اليائسة:

- هيا، هيا، ..هيا، هيا!

واستمر ذلك طويلاً. ولكن تدريجياً بدأ المجذفان يهنان، وبالتدريج تناقصت سرعة القارب، وأخيراً نكسا المجاذيف وقد تعالت انفاسهما وهما يكادان يختنقان. ولم يرفع ميلجون رأسه. وهكذا جاءت الصحوة المريرة. لم يسبقوا الضباب، ولم يفلتوا من مداه، وبقي كل شيء كما كان: المياه الساكنة، والمجهول، والظلام الشامل السادر. وظل القارب يتقدم بعض الوقت ويدور بقوة الاندفاع الذاتي...

لماذا فعلا ذلك؟ ما الداعي؟ وهل كان سيكسبون شيئاً لو ظلوا مكانهم؟ أيضاً لا شيء.

كان كل منهم على الأرجح يفكر في ذلك. وعندئذ قال أورجان:

- اصغوا إليّ إذن...- وراح يتفوه بكلماته على عجل، ربما توفيرا لقواه، فهو لم يشرب ولم يأكل لليوم الثاني - ربما يستمر هذا الضباب اياما كثيرة. يحدث ذلك احيانا، كما تعلمون. قد ينتشر الضباب فوق البحر سبعة، أو ثمانية، أو حتى عشرة أيام، كالوباء في

الأقليم، كالمرض الذي لا يذهب إلا حين يحين الأوان. وما هو هذا الحين؟ لا أحد يعلم. وإذا كان هذا الضباب من ذلك النوع فمعنى ذلك أن مصيرنا صعب. لم يبق من السمك المملح إلا قليل، كما أنه بلا فائدة بدون ماء. وهذا ما لدينا من الماء!- وهز الوعاء فترجرج الماء فيه بحرية فوق قعر الوعاء بقليل.

لزم الجميع الصمت. وصمت العجوز أيضاً. كان جلياً لهم جميعاً ما كان ينبغي قوله: لن يشربوا إلا مرة واحدة في اليوم قطرات قليلة لكي يطيلوا أمد بقائهم، ولكي يستطيعوا، إن أمكن، الصبر والتغلب على الضباب. فإذا صفا البحر وانكشفت النجوم أو الشمس في السماء، فعندئذ ينظرون، فربما حالفهم الحظ ووصلوا إلى البر.

نعم، هكذا كان حالهم، ولم يكن هناك حل آخر! ولكن ما أسهل القول بالصبر، وما يقبله عقل الإنسان كثيراً ما يرفضه جسده. كانوا يريدون الآن أن يشربوا، فوراً، وليس قطرات في القعر، بل الكثير والكثير من الماء.

كان أورجان يدرك أن وضعهم لا أمل فيه، وكان يعاني ذلك أكثر من الآخرين. لقد جفّ عوده بسرعة، ومع كل ساعة كان وجهه البني الداكن المخدد بالتجاعيد والثنايا يزداد سواداً وتحجراً من شدة الألم المتصاعد من جوفه. وظهر في عينيه الدامعتين بريق محموم متوتر، فقد كان من الصعب عل العجوز أن يجبر نفسه على تحمل هذه الآلام. ولكنه ظل محافظاً على رباطة جأشه وصامداً كما تصمد الشجرة المحتضرة متشبثة بجذورها. إلا أن ذلك لم يكن من الممكن أن يستمر طويلاً. فكان من الضروري أن يقول لهم كل ما يمكن أن تكون له أهمية ولو ضئيلة بالنسبة لنجاتهم.

ومضى يقول:

- أعتقد أنه ينبغي علينا أن ندقق النظر ونصيخ السمع إلى الجو،

إذ ربما مرت فجأة بومة «أجوكوك»(*). إنها الطائر الوحيد الذي يطير فوق البحر في هذه الفترة. فإذا كنا الآن بين البر وبعض الجزر، فإن اتجاه طيران «أجوكوك» يمكن أن يدلنا على الطريق. فأي طير لا يطير فوق البحر إلا في خط مستقيم. لا يحيد يميناً أو يساراً، بل يمضي مباشرة. و«أجوكوك» أيضاً.

فسأله ميلجون عابساً دون أن يرفع رأسه:

- وإذا لم تكن بين البر والجزر؟

فأجاب أورجان بهدوئه السابق نفسه:

- عندئذ فلن نراها أبداً.

وأراد كيريسك أن يستوضح عن السبب في تحليق «أجوكوك» فوق البحر، فما الذي يدفعها إلى ذلك، لكن ميلجون سبقه وسأل بسخرية مرة:

- وإذا نسيت «أجوكوك» أن تطير فوقنا يا جدي؟ ماذا لو عنَّ لها أن تطير بعيدا، هناك، فما العمل إذن؟

فأجاب أورجان بالهدوء نفسه:

- عندئذ فلن نراها أبداً.

فقال ميلجون بدهشة وغضب:

- إذن لن نراها؟ يعني في هذه الحالة أو تلك لن نرى أجوكوك؟

- وازداد ميلجون غضباً وهو يدمدم - ما الذي يجعلنا إذن نبقى هنا؟ إنني أسألكم.

ثم قهقه بصوت عال وسكت. وجاشت نفوسهم جميعاً بالاضطراب، وخيّم الصمت عليهم وهم لا يدرون ماذا يفعلون. أما ميلجون فكان قد قرر أمراً. ضرب براحته المجذاف فخلعه من

(*) «أجوكوك» هي البومة القطبية.

المفصلة. ولأمر ما صعد على مقدمة القارب ووقف هناك بطول قامته وهو يحفظ توازنه بالمجذاف. ولم يقل له أحد شيئاً. أما هو فلم يعر أحداً اهتماماً.

وصرخ في عنفوان غضبه:

- اسمع يا ابن العاهرة! يا كاهن الرياح! ورفع المجذاف مهدداً وصاح بأعلى صوته في الظلام الضبابي- إذا كنت سيد الرياح حقاً ولست جيفة كلب فأين رياحك؟ أم أنك نفقت في عرينك، يا ابن العاهرة، أم أن ذكور كلاب الدنيا كلها أحاطت بك فلا تدري أتعطي مؤخرتك لبعضها أم تتركها لها جميعاً، ولا وقت لديك لتطلق الرياح، أم أنك نسيت يا ابن العاهرة أننا نهلك هنا في الضباب كأننا في حفرة؟ أم أنك لا تعرف أن معنا صبياً صغيرا، فكيف لا ترى؟ إنه يريد أن يشرب، يريد ماء! ماء، أتفهم؟ أقول لك معنا صبي صغير، لأول مرة في البحر! فكيف تعاملنا هكذا؟! هل هذا يليق؟ أجبني إذا كنت سيد الرياح ولست روث فيل بحر نتن! أرسل رياحك، أتسمع؟ خذ ضبابك وضعه تحت ذيلك. . هل تسمعني؟ أرسل علينا عاصفة يا ابن العاهرة، لتكن أرهب عاصفة! أرسل علينا رياح تلانجي- لا، ألق بنا في البحر ولتدفننا الأمواج يا ابن العاهرة! هل تسمع؟ أتسمعني؟ إنني أبصق وأتبول على سحنتك الكريهة! إذا كنت سيد الرياح فلترسل علينا عاصفتك، ولتغرقنا في البحر، وإذا لم تفعل فأنت أحقر عاهرة، وأنا ذكر من ذكور الكلاب، التي أحاطت بك، لكني لن اطأك، فلتمت بغيضك. . خذ، خذ، خذ!

بهذا السباب المقذع وبّخ ميلجون كاهن الرياح الموجود في مكان لا يعلمه أحد والذي يخفي الرياح المرهونة بأمره في مكان لا يعلمه أحد. وظل ميلجون يصيح طويلاً حتى بح صوته وخارت قواه وهو يثور ويتهكم ويهين سيد الرياح وفي الوقت نفسه يتوسل منه ريحاً.

ثم ألقى بالمجذاف في البحر بكل قوته، وجلس في مكانه السابق وانفجر فجأة بنحيب عال رهيب وقد دس وجهه بين راحتيه. وصمت الجميع في عجز، بينما راح ميلجون وهو يشهق بالبكاء يصيح بأسماء أبائه الصغار. أما كيريسك، الذي لم يرَ قط رجلا يبكي، فقد ارتعد بدنه من الخوف، وقال مخاطباً أورجان والدموع تطفر من عينيه:

- يا جدي، يا جدي، لماذا يقول ذلك؟ لماذا يبكي؟

فقال العجوز مهدئاً الصبي وضاغطاً على يده:

- لا تخف! سيهدأ! قريبا سيسكت. اما أنت فلا تفكر في ذلك. هذا لا يخصك. سيهدأ.

وبالفعل أخذ ميلجون يهدأ شيئاً فشيئاً، إلا أنه لم يرفع وجهه عن راحتيه وهو يجهش وكتفاه تختلجان. وسلق امرايين القارب ببطء إلى المجذاف العائم، وشدّه إلى القارب، ثم رفعه ووضعه في المفصلة، كما كان.

وقال امرايين بعطف:

- اهدأ يا ميلجون. أنت محق، فالأفضل أن تهبّ العاصفة على أن نتخبط في الضباب. ولكن لننتظر قليلاً، فربما صفا البحر. ماذا نفعل...

لم يجب ميلجون بشيء. وأخذ رأسه يتدلى أكثر فأكثر، وجلس مقوس الظهر كمجنون يخشى النظر أمامه.

بينما ظل الضباب كما كان معلقاً فوق المحيط بلا مبالاة وسكون مخفياً العالم في ظلام عظيم جامد.. ولم تكن هناك أية رياح أو أدنى تغيير. ورغم كل التوسل والسباب واللعنات التي وجهها ميلجون إلى كاهن الرياح فقد ظل هذا أصم معرضاً عن كل ذلك. بل إنه حتى لم يغضب، ولم يتحرك، ولم يرسل عليهم العاصفة.

وراح امرايين يجذف بهدوء بزوج مجاذيفه حتى لا يبقوا في

مكانهم، فانزلق القارب في الماء بصورة لا تكاد تلحظ. وصمت أورجان منفرداً بأفكاره، وربما كان يفكر مرة أخرى، ربما لآخر مرة في حياته، في حورية البحر.

لكن كيريسك أخرجه من خواطره الكئيبة سائلاً بصوت خافت:

- يا جدي، يا جدي، ولماذا تطير «أجوكوك» إلى الجزر؟

- آه، نسيت أن أخبرك. في مثل هذا الضباب الكبير لا يستطيع أن يطير فوق البحر إلا «أجوكوك». إنها تطير إلى الجزر للصيد، وأحياناً تخطف أولاد الفقمات الصغار. فلدى «أجوكوك» عينان تريان في الضباب وفي الظلام مثلما في النهار، فهي بومة. إنها أكبر وأقوى بومة.

وهمس كيريسك بشفتين جافتين:

- لو أن لي مثل هاتين العينين لعرفت الآن إلى أية جهة ينبغي أن نمضي، ولوصلنا إلى البر بسرعة ولأخذنا نشرب، نشرب كثيراً ولمدة طويلة... لو أن لي مثل هاتين العينين...

فتنهد أورجان قائلاً:

- ايه.. لكلٍّ عيناه اللتان أعطيتا له.

وصمتا. وبعد برهة طويلة قال العجوز وهو يحدق في وجه الصبي وكأنه يعود إلى الحديث السابق:

- هل تعاني كثيراً؟ فلتصبر. إذا صمدت فستصبح صياداً عظيماً. اصبر يا حبيبي، لا تفكر في الماء، فكر في شيء آخر. لا تفكر في الماء.

وحاول كيريسك بإخلاص ألا يفكر في الماء. ولكنه لم يستطع. وكلما جاهد كي لا يفكر ازدادت رغبته في الشرب. وشعر بجوع شديد إلى درجة الغثيان. ولهذا كان يود أن يصرخ في الدنيا كلها كما فعل ميلجون.

هكذا انقضى ذلك اليوم. ظلوا طوال الوقت ينتظرون ويأملون أن يسمعوا عن بعد صوت الأمواج ويهب نسيم بليل فيدفع أمامه الضباب إلى الطرف الآخر من العالم ويفتح أمامهم الطريق إلى النجاة. ولكن البحر لفه السكون.. سكون ثقيل لا يتزحزح خانق إلى درجة الألم في الرؤوس والآذان. وطوال الوقت، وباستمرار، وبلا نهاية سيطرت عليهم الرغبة في الشرب. وكان فظيعاً أن يشرفوا على الهلاك عطشاً وسط محيط من المياه بلا شطآن.

في المساء ساءت حالة ميلجون. كفّ عن الكلام تماماً وأصبحت نظراته زائغة بلا معنى. واضطر أورجان أن يصبّ له قليلاً من الماء ليبلل حلقه. وعندما نظر أورجان إلى كيريسك الذي لم يستطع أن يحول عينيه عن المغرفة. لم يتمالك نفسه وصبّ له قطرات في قعر المغرفة، ثم صبّ لامرايين أيضاً، أما هو فلم يذق قطرة. وبعد أن وضع الوعاء بما تبقى فيه من ماء تحت المقعد، جلس طويلاً بلا حراك، مستغرقاً في التفكير، صافي النفس بصورة خاصة، مشغولاً بأفكار أخرى سامية، وكأنما لا يعاني من أي عطش ولا تضنيه أية احتياجات جسدية. كان جالساً في مؤخرة القارب صامتاً، رزيناً، كصقر وحيد على قمة صخرة. كان يعرف ما الذي سيقدم عليه، ولهذا هيأ نفسه محافظاً على بقية قواه قبل أن يقوم بآخر عمل في حياته. وفي هذه الساعة افتقد الغليون كثيراً. لقد أراد العجوز أن يشعل الغليون وينفث دخانه قبيل النهاية وهو يحلق بأفكاره معها، مع حورية البحر...

أين تسبحين يا حورية البحر العظيمة؟

كان يعرف نفسه، ويعرف قدر عزمه وشهامته وهو يواجه ساعته

الأخيرة. الشيء الوحيد الذي منعه حتى الآن من تنفيذ ما عقد العزم عليه كان كيريسك، الذي تعلق به خلال هذه الأيام إلى هذا الحد وظل طوال الوقت ملتصقاً به طلباً للحماية والدفء. كان مشفقا على الصبي، ولكن من أجله كان يجب أن يقدم على ذلك. . .

هكذا انتهى هذا اليوم الطويل التعيس، آخر يوم في حياة الشيخ أورجان.

وحل المساء. . حلّت ليلة أخرى.

ولكن الطقس ظل كما كان بلا تغير. كان الضباب على الحال نفسه من السكون اللامبالي. ومن جديد زحفت ظلمة الليل الصماء، وكان في انتظارهم ليل رهيب لا يحتمل، طويل بلا نهاية. ولكن لو أن الريح هبت فجأة خلال الليل، ولتكن حتى عاصفة، ليكن أي شيء، شريطة أن تنجلي السماء وتظهر النجوم! إلا أن الليل لم يبشر بشيء، ولم يبد أثر لأية أمواج على صفحة البحر، ولا أية حركة للرياح. . سكن كل شيء في هدوء وظلام بلا نهاية. ودار القارب الوحيد التائه في الظلام برجاله المعذبين المحتضرين من شدة العطش والجوع، دار ببطء وسط الضباب والمجهول والضياع. . .

لم يذكر كيريسك بالضبط متى نام. ولكنه ظل يقظاً فترة طويلة وقد عذبه العطش وأنهكه. وخيل إليه أن هذا العذاب الذي ينهشه لن ينتهي أبداً. لم يكن يريد سوى الماء! الماء ولا شيء غيره! وهدأت حدة الجوع تدريجياً، وأصبحت ألماً مكتوماً غاص في الباطن، أما العطش فقد استعر ناراً مضت تتأجج أقوى فأقوى بمرور الوقت. ولم يكن هناك ما يخففها.

وتذكر كيريسك أنه عندما مرض ذات مرة وهو صغير، وتفصد منه عرق حار، أحس بما يحسه الآن من آلام وعطش شديد. ولم تترك أمه مجلسها عند رأسه، وراحت تضع الخرقة المبللة على جبينه الملتهب،

وتبكي سراً وتهمس بأصوات ما. وفي الجو شبه المظلم، وعلى ضوء مصباح الزيت، في الغبش المتراقص تدلى فوقه وجه أمه القلق - فقد كان أبوه غائباً في البحر - وكان كيريسك يريد أن يعطوه ماء ليشرب وأن يعود أبوه بسرعة. ولكن لم تتحقق رغبته هذه أو تلك. كان أبوه بعيداً، ولم تقدم له أمه الماء وقالت إنه لا ينبغي أن يشرب أبداً. وأخذت ترطب له شفتيه المجففتين بالخرقة، ولكن ذلك لم يكن يخفف عذابه إلا للحظة. ثم تعاوده الرغبة في الشرب والعذاب الذي لا يطاق.

وتوسلت إليه أمه ألا يشرب وراحت تلح في رجائها قائلة إنه يجب أن يصبر، وعندئذ سيزول المرض.

قالت له:

- اصبر يا حبيبي، وفي الصباح ستتحسن. ردد في سرك: «يا فأراً أزرق أعطني ماء»، وسترى أنك ستشعر بتحسن. اطلب يا حبيبي من الفأر الأزرق أن يحضر لك ماء.. لكن ألحّ في الرجاء..

وفي تلك الليلة راح وهو يغالب العطش يردد تلك الرقية منتظراً أن يأتي الفأر الأزرق حقاً ويحضر له ماء ليشرب. وظل يردد متوسلاً: «يا فأراً أزرق أعطني ماء! يا فأراً أزرق أعطني ماء!». ثم اخذ يهذي في الحمى. ولكنه مضى يرجو: «يا فأراً أزرق أعطني ماء!». ولكن الفأر ظل طويلا لا يأتي، بينما هو يهمس ويدعوه ويبكي ويستعطفه، حتى جاء أخيراً. كان الفأر الأزرق بارداً لا يمكن إمساكه كنسيم القيلولة فوق جدول في الغابة. وكان من الصعب رؤيته، إذ اتضح أنه أزرق شفاف يهوم كالفراشة. وحلق فوقه ومس بشعره الناعم وجهه وعنقه وجسده فأحس بالراحة. ويبدو أنه أعطاه ماء ليشرب، فراح يشرب طويلاً دون أن يرتوي، بينما أخذ الماء يتدفق ويبقبق من حوله حتى غمره تماماً...

وفي الصباح استيقظ بنفس صافية وإحساس بالراحة وقد زال عنه المرض، رغم ما ألم به من ضعف شديد. وبعد ذلك ظل الصبي طويلاً يذكر ذلك الفأر الأزرق السقاء، الذي زاره في تلك الليلة الصعبة لكي يسقيه ويشفيه. . .

تذكر ذلك الآن وهو يحترق ويجف من العطش في القارب. آه لو يأتي الفأر الساقي الآن! وفي هذه اللحظة فكر بمرارة وشوق جارف في أمه التي زرعت في قلبه الأمل في الفأر الأزرق الساقي. وتذكر بإشفاق كيف انحنت أمه فوقه عندما ضاق صدره وعذبه الظمأ. كم كان وجهها حزيناً ومتفانياً بلا حدود، وكم كانت تنظر إليه بقلق واستعداد لتفعل من أجله كل ما تستطيع، وكم حدقت فيه بضراعة وهلع دفين. ترى كيف هي الآن وماذا تفعل؟ لابد أنها تتفتت حزناً وتنتحب وتنتظر عند شاطئ البحر. . . ولكن البحر لن يقول لها شيئا. . وليس باستطاعة أحد أن يساعدها في هذه النكبة. ليس هناك سوى الأطفال والنساء الذين ما زالوا- ربما- يشعلون النيران على سفوح الكلب الأبلق، وبذلك يشجعونها، فمن يدري، ربما تهبط السعادة فجأة. . ويعود الضائعون في البحر.

أما هم فكانوا في تلك الأثناء يدورون بقاربهم ببطء وسط الفضاء الأسود، وتتبدد ببطء آخر مآلهم بالنجاة وسط ظلام الضباب الليلي. كلا، لم تكن القوى متكافئة أبداً بين الظلام السرمدي الموجود قبل ظهور الشمس في الكون، وبين أربعة لا حيلة لهم في قارب عتيق، بلا ماء، بلا طعام، بلا نجوم هادية وسط المحيط. . .

لم ير كيريسك قط مثل هذا السواد الفاحم، ولم يكن يتخيل أبداً في حياته القصيرة أن عذاب العطش سيكون قاسياً إلى هذا الحد. ولكي يجمع شتات نفسه راح يفكر في ذلك الفأر الأزرق الساقي الذي أنقذه ذات مرة فسقاه وشفاه. . .

وراح يردد همساً وبلا كلل تلك الرقية العجيبة التي علمته إياها أمه «يا فأراً أزرق أعطني ماء! يا فأراً أزرق أعطني ماء!» ورغم أن المعجزة لم تقع فقد مضى يضرع ويدعو الفأر الأزرق بإصرار. لقد أصبح هذا الفأر الآن أمله وتعويذته ضد العطش...

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

وبينما كان الصبي يردد ذلك، محاولاً أن يصرف تفكيره عن الشرب، كان ينعس تارة، وتارة يستيقظ مصغياً عن غير قصد إلى أطراف حديث يدور بين أورجان وامرايين. كانا يتحدثان عن شيء ما طويلاً وبصوت خافت. وكان حديثهما غريباً وغير مفهوم، تتخلّله فترات صمت طويلة وكلمات مبتورة وغامضة المعنى. وميز كيريسك بشكل أفضل كلمات أورجان، فقد كان الصبي ملتصقا بجنبه، وكان العجوز يتحدث بصعوبة وهو يتنفس بصعوبة، ولكن بإصرار متغلباً على البحة والتهدج في حلقه، أما امرايين فكان الصبي لا يسمعه جيداً لبعده عنه.

وهمس امرايين بحرارة وكأنما يخشى أن يسمعهما أحد هنا:

- لست أنا الذي أعلمك يا جدي، ولكن فكر. إنك رجل حكيم.

فأجاب أورجان مصراً فيما يبدو على رأيه:

- لقد فكرت جيداً، هكذا أفضل.

وصمتا قليلاً، ثم عاد امرايين يقول:

- نحن جميعاً في قارب واحد، وينبغي أن نواجه مصيراً واحداً.

فدمدم العجوز بمرارة:

- مصير، مصير- وقال بصوت متهدج أبح- لا أحد يستطيع أن يفلت من مصيره، هذا معروف. ولكن يمكنك أن ترضى به أو لا ترضى. وما دمنا جميعاً سنهلك فبوسع أحدنا أن يعجل بمصيره لكي

يؤجل مصير الآخرين. فكر بنفسك: ماذا لو انقشع الضباب فانطلقت بآخر قواك، وإذا البر يصبح في متناول البصر، ولكن تنقصك بضع جرعات من ماء لتطيل رمقك، فهل هذا من الحكمة؟! لن يكون ذلك مؤسفاً؟!

ورد امرايين بكلمات مبهمة ثم صمتا كلاهما.

وحاول كيريسك أن ينام، وراح يدعو فأره الأزرق. وخيل إليه أنه سيأتي عندما ينام... ولكن النوم جافاه.

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

وسأل أورجان:

- كيف حال ميلجون؟

فأجاب امرايين:

- كما هو.. راقد.

- راقد إذن..- وصمت العجوز قليلاً، ثم قال مذكراً - عندما يعود إلى وعيه بلغه.

- حسناً يا جدي..- قال امرايين بصوت متهدج وسعل بجهد - سأبلغه كل ما قلت.

- قل له كنت أحترمه. إنه صياد كبير، ورجل طيب. كنت دائماً أحترمه.

وصمتا من جديد.

يا فأراً أزرق أعطني ما!

ثم قال امرايين شيئاً ما ولكن كيريسك لم يسمعه جيداً، بينما رد عليه أورجان:

- كلا، لا أستطيع أن أنتظر، ألا ترى بنفسك؟ لن أقوى على ذلك. الكلب الأصيل يموت بعيداً عن الأعين. سأفعل ذلك بنفسي. لقد كنت رجلاً عظيماً! إنني أعرف ذلك. كنت دائماً أحلم بحورية البحر. أنت لن تفهم هذا. . أريد أن أذهب إليها. . . وواصلا الحديث بعض الوقت، ولكن كيريسك بدأ ينعس وهو يدعو الفأر الساقي:

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

وكان آخر ما سمعه كلمات أبيه التي قالها بعد أن اقترب من أورجان:

- أتذكر يا جدي عندما جاء التجار على الأيائل وقايضوا الفؤوس بأشياء مختلفة. لقد قال ذلك التاجر الأحمر الطويل إنه كان يوجد في بلد بعيد رجل عظيم عبر البحر مشياً. إذن فقد كان هناك أناس كهؤلاء. . .

فأجاب أورجان:

- إذن فقد كان رجلاً عظيماً جداً، أعظم العظماء. أما أعظم العظماء عندنا فهي حورية البحر.

وغاب كيريسك في النوم، ولكن بعض الكلمات كانت تتناهى إلى إدراكه:

- انتظر. . فكر قليلاً. .

- آن الأوان. لقد عشت عمري. . لا تمنعني. . قواي خارت، لن أتحمل. . .

- ولكن الظلام شديد. . .

- وما الفرق. . .

- ولكني لم أقل لك كل ما أريد. . .

- الكلمات لا تنتهي. وبعدنا لا تنتهي.

- الظلام شديد.

- لا تمنعني، قواي تتلاشى، وأنا أريد أن أفعل ذلك بنفسي...

- الظلام شديد...

- ستصمدون.. تبقى قليل من الماء...

وتحسست راحة كبيرة خشنة وعريضة رأس الصبي واستقرت بحذر عليه. وأدرك وهو نائم أنها راحة أورجان. استقرت دافئة ثقيلة فوق رأسه بعض الوقت كأنما تريد أن تحميها وتتذكرها...

* * *

حلم كيريسك بأنه يسير فوق البحر على قدميه. كان يسير إلى حيث ينبغي أن يكون البر لكي يرتوي. وكان يخطو دون أن تغوص قدماه أو يغرق. والمنظر مدهش وغريب من حوله. امتد البحر الصافي اللامع إلى مدى النظر. ولم يكن في الدنيا شيء آخر سوى البحر والمياه. ومضى يسير على هذه المياه كأنما فوق أرض صلبة. وتدافعت الأمواج برفق تحت أشعة الشمس متدفقة من كل الأرجاء، حتى أنك لا تعرف ولا تخمن من أين تأتي وإلى أين تمضي.

ومضى يسير في البحر وحيداً تماماً. في البداية خيل إليه أنه ركض أمام أورجان وامرايين وميلجون وسبقهم ليجد ماء بسرعة ويدعوهم إليه، ولكنه أدرك فيما بعد أنه وحيد تماماً هنا. وأخذ يصيح ويناديهم فلم يرد عليه أحد...لا كائن حي، ولا صوت ولا ظل... لم يعرف أين اختفوا. وانتابه الخوف. ولم يستجب أحد لصرخاته. ولم يظهر البر في أية جهة على الإطلاق. وركض في البحر وهو يتنفس بصعوبة وقواه تخور، ولكنه لم يتقدم من أي شيء وظل في مكانه، واستبد به الظمأ أقوى وأفظع. وهنا رأى طيراً يمر من فوق رأسه. كانت تلك بطة «الوفر». اندفعت تحلق فوق البحر صارخة وهي تبحث عن موضع لعشها. ولكنها لم تجد شبراً من اليابسة، ففي كل مكان تراقصت

الأمواج اللانهائية. وأنّت بطة «لوفر» شاكية حائرة.

وخاطبها كيريسك:

- يا بطة لوفر! أين البر، في أية جهة، إنني أريد أن أشرب!

فأجابته بطة لوفر:

- ليس هناك بر في هذه الدنيا بعد. ليس هناك سوى الأمواج.

وسألها الصبي عن أقاربه المفقودين:

- وأين الآخرون؟

فأجابته بطة لوفر:

- ليسوا هنا، لا تبحث عنهم، ليسوا في أي مكان.

واستولى على الصبي إحساس رهيب لا يوصف بالوحدة والغم. أراد أن يهرب من هنا إلى حيث يمتد البصر، ولكن لم يكن ثمة مهرب، فقد أحاطت به المياه والأمواج من كل جانب. واختفت بطة لوفر في الأفق وتحولت إلى نقطة سوداء.

فصاح الصبي متوسلاً:

- خذيني معك يا بطة لوفر، لا تتركيني! أريد أن أشرب! ولكنها لم ترد، ثم سرعان ما اختفت فوق البحر بحثاً عن الأرض التي لم توجد بعد. وكانت الشمس تغشى البصر.

استيقظ والدموع تسيل من عينيه وهو لا يزال يجهش بالبكاء ويشعر بوطأة الكآبة المطبقة والخوف. وفتح عينيه قليلاً فوق الماء. وانسدل الظلام الضبابي الرمادي وأحاط بهم من جميع الجهات. إذن فقد مر الليل واقترب الصباح. وتحرك الصبي في مكانه. ودمدم وهو يمد يده إلى العجوز أورجان:

- يا جدي أريد أن أشرب، لقد رأيت حلماً.

ولكن يده لم تعثر على أحد، وكان مكان أورجان في مؤخرة القارب خالياً.

وصاح كيريسك:

- يا جدي!

فلم يرد أحد. فرفع الصبي رأسه وانتفض:

- يا جدي، يا جدي، أين أنت؟

- لا تصرخ!..- قال امرايين وهو ينتقل إلى جانبه. واحتضن ابنه وضمه إلى صدره بشده.- لا تصرخ، جدك ليس هنا، لا تناده! لقد ذهب إلى حورية البحر.

ولكن كيريسك لم يصغ إليه:

- أين جدي؟ أين؟ أين جدي؟

فحاول أبوه تهدئته:

- قلت لك اسمع! لا تبك! اهدأ يا كيريسك، جدك ليس موجوداً. لا تبك. لقد أمرني أن أعطيك ماء. ما زال لدينا القليل منه. فإذا سكتَّ سأعطيك تشرب. فقط لا تبك. قريباً سيزول الضباب وعندئذ سترى...

ولكن كيريسك لم يهدأ، وحاول باستماته أن يفلت من بين ذراعي أبيه. واهتز الزورق من الحركة العنيفة. ولم يدر امرايين كيف يتصرف.

- انظر، سنتحرك الآن! سنتحرك! يا ميلجون، هيا قم! فلنتحرك!..

وبدأ ميلجون يجذف. وانزلق القارب ببطء فوق الماء. ومن جديد مضوا دونما غاية وبلا هدف وسط الضباب اللبني الكثيف الذي كان يحجب الدنيا بحجاب لا بصيص فيه كما في السابق.

وهكذا استقبلوا يوماً جديداً. كانوا الآن ثلاثة في القارب.

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

وفيما بعد، عندما هدأ كيريسك قليلاً، جلس امرايين وميلجون إلى المجاذيف، وأخذا يعملان بأربعة مجاذيف وتحرك القارب أسرع، ومن جديد دونما غاية وبلا هدف. أما كيريسك الذي هزه اختفاء العجوز فكان لا يزال يشهق بحرقة وهو جالس كاليتيم في مؤخرة الزورق. وكان أبوه وميلجون مسحوقين أيضاً ولم يكن بوسعهما أن يساعدا نفسيهما أو يساعداه. لم يستطيعا إلا أن يمسكا بالمجاذيف. وتحركا لمجرد الحركة. وكان وجهاهما أسودين وسط الضباب الأبيض. وحاقت بهم جميعاً كارثة قاسية لا راد لها: العطش والجوع.

وصمتوا. كانوا يخشون الكلام. ولكن بعد فترة من الوقت ألقى ميلجون بالمجاذيف وقال لامرايين عابساً:

- قسِّم الماء!

وصبَّ امرايين في قعر المغرفة لكل منهم بضع جرعات. وكان الماء عطناً كريه الرائحة والمذاق. وحتى هذا الماء لم يبق منه إلا ما يكفي لتوزيعه ثلاث أو أربع مرات لا أكثر. لم يرتو أحد، ولم يخفف عنهم ما شربوه.

ومن جديد عادوا إلى الانتظار الممض المبلد للحواس: هل يتغير الجو أم لا؟ ولم يعد أحد يبدي توقعات متفائلة. لقد هدّهم التعب فركنوا لاإرادياً إلى اللامبالاة، وراحوا ينتظرون مصيرهم بإذعان وهم يدورون بالقارب دونما هدف وسط الضباب المهلك. لم يبق أمامهم إلا التسليم بمصيرهم. كان الضباب يجثم على صدورهم ويقهر إرادتهم. مرة واحدة فقط قال ميلجون بصوت مرتعش حاقد بعد أن أطلق سباباً مقذعاً:

- فليختف الضباب وأنا مستعد أن اموت. سأقفز بنفسي من القارب، فقط لو رأت عيناي طرف الدنيا!

ولزم امرايين الصمت، لم يرفع حتى رأسه. فماذا يمكن أن يقول؟

لقد أصبح الآن كبيرهم في القارب. ولكنه لم يستطع أن يقدم شيئاً. لم تكن ثمة جهة يقصدونها!

ومضى الوقت. أصبح القارب يسير على هواه، فتارة يقف في مكانه، وتارة يتحرك من جديد.

ومع كل ساعة كان الخطر الذي يهدد حياتهم يزداد.. فبالإضافة إلى الظمأ المستعر كان هناك الجوع القاسي المدمر. وخبت قواهم وهي تتلاشى من أجسادهم.

رقد كيريسك في مؤخرة القارب بعينين نصف مغمضتين. وكان رأسه ثقيلاً مصدعاً، وأنفاسه متحشرجة، وبين الحين والآخر تنقبض معدته الخاوية. وطوال الوقت استبدت الرغبة في الشرب.. الرغبة الجامحة.

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

أراد الصبي بدعائه وندائه للفأر الأزرق الساقي أن ينسى، وراح يبحث عن النجاة في الذكريات عن تلك الحياة التي خلفها عند سفح الكلب الأبلق، والتي أصبحت الآن بعيدة المنال كالأساطير.

وهمست شفتاه: «يا فأرا ازرق اعطنى ماء!» ولأن رأسه كان يدور فقد تصور أنهم يلعبون ويتدحرجون من الرابية المعشوشبة كجذوع الأشجار. اوه، كم كانت لعبة مسلية رائعة! كان كيريسك أكثرهم مهارة وتحملاً في تلك اللعبة. كان يتسلق الرابية الشديدة الانحدار ويتدحرج من هناك متقلباً حول نفسه كجذع الشجرة المشذب الملقى من أعلى المنحدر. وكان ينبغي أن تضم يديك جيداً إلى جسمك. وفي البداية تضطر لأن تدفع نفسك حتى تتحرك. وبعد دورتين أو ثلاث تجد جسمك يتدحرج رغماً عنك، بينما تضحك أنت وتقهقه من السرور، والسماء تميل إلى هذا الجانب تارة، وإلى ذاك الجانب تارة

أخرى، والسحب تدور وتمرق أمام ناظريك، وتدور الأشجار وتسقط، ويطير كل شيء رأساً على عقب، أما الشمس فتنفجر ضحكاً في السماء. والصيحات والصرخات تملأ الجو! وتتدحرج إلى أسفل متقلباً بسرعة متزايدة، وفي تلك اللحظات تمرق في صور غريبة الوجوه الممطوطة تارة، والأرجل المقوسة للأولاد المتدحرجين خلفك تارة أخرى، وأخيراً ينتهي التدحرج فجأة! أوه.. لا يبقى إلا الصخب في الأذنين. وعلى الفور تأتي أهم لحظة. فقبل أن يبلغ العد ثلاثة ينبغي أن تقفز واقفاً على قدميك دون أن تسقط بسبب الدوار. وعادة ما يسقط الجميع في المحاولة الأولى. فيا للضحك عندئذ! الجميع يضحك، وأنت نفسك تضحك! وتحاول أن تقف على قدميك، ولكن الأرض تغوص من تحتك. أما كيريسك فلم يسقط. بذل كل جهده وتماسك. فقد كانت موزلوك بجواره دائماً، فلم يرد أمامها أن يسقط مثل أي صبي خائر.

ولكن أجمل شيء، وأكثره مثاراً للضحك كان عندما يتسابق مع موزلوك في التدحرج. فالبنات يستطعن أيضاً أن يتدحرجن. ولكنهن جبانات، كما أن جدائلهن تشتبك في أشياء ما. ولكن ذلك ليس مهماً، ففي مثل هذه اللعبة المسلية لا يخلو الأمر من كدمات.

وعندما يتسابق مع موزلوك كان كيريسك يبسط مرفقيه عمداً وبشكل لا يلحظ حتى لا يسبقها. فكانا يصلان في وقت واحد وسط صيحات الحاضرين وقهقهاتهم، وفي وقت واحد يقفزان واقفين قبل أن يصل العد إلى «ثلاثة»، ولم يكن أحد يدري مدى المتعة التي يحس بها وهو يسند موزلوك ويساعدها على الوقوف. كانا يتعانقان لاإرادياً وكأنهما يساعدان بعضهما البعض على الصمود. وكانت موزلوك تضحك بسعادة، وشفتاها تنقلان إليه عدوى الضحك، بينما تأتي هي بحركات تجعل كيريسك يمسك بها. كانت توهمه بأنها ستسقط،

فيكون عليه أن يسندها ويحتضنها. ولم يدر أحد بأية لحظات من السعادة الغامرة والحب المرعب كانا يمران. فتحت الفستان الرقيق كان قلب الفتاة العذري يخفق، وكان جسداهما يلتقيان بين الحين والحين، فيلمس كيريسك تحت يده نهديها الصغيرين الصلبين البازغين، وتنتفض الفتاة عند ذلك ثم تلتصق به بسرعة، ويرى عينيها الغامضتين البراقتين الثملتين من الدوار. وكان العالم كله، كل ما في الأرض والسماء، يدور معهما سابحاً في ضحكهما المتصل وسعادتهما الغامرة. لم يدر أحد بتلك السعادة المدهشة!

حدث مرة واحدة فقط أن فطن أحد الصبية إلى ذلك. كان أكبر من كيريسك قليلاً، كريهاً حقيراً. وراح يلقي بنفسه كالأحمق فوق موزلوك متظاهراً بأنه لا يقوى على الوقوف بسبب الدوار. وتحاشته موزلوك وركضت مبتعدة عنه، ولكنه ادعى أنه يكاد يسقط فلحق بها وسقط فوقها. وتشاجر كيريسك معه. وكان الصبي أقوى منه وطرحه أرضاً عدة مرات. ومع ذلك انتهى الشجار بالتعادل، إذ لم يسلم كيريسك ولم يسمح لموزلوك بمناصرته. ولكن ذلك لم يحدث إلا مرة واحدة...

وكانت هناك لحظات سعادة أخرى، عندما كانا يركضان بعد اللعب، مبللين بالعرق، محمري الوجوه، ليشربا من الجدول.

يا فأراً أزرق أعطني ماء!
يا فأراً أزرق أعطني ماء!

كان الجدول غير بعيد. كان يخرج من الغابة ويمر بالمكان الذي كانوا يلعبون فيه. وكانت مياهه تتسلل بين الأشجار محافظة في تدفقها على عتمة الغابة ورطوبتها. وازدحمت الأعشاب محيطة به في حلقة محكمة تصل إلى مجرى الماء. أما تلك التي كانت تنمو على حافة

الجدول تماماً فكانت تغتسل فيه وتقاوم بأعوادها الممدودة اندفاع التيار المرح. أما الجدول فكان يندفع خالي البال نحو البحر، وهو يلمع تحت الشمس تارة، ويغطس تحت الشاطئ البارز المنحدر تارة أخرى، ويختفي بين الأعشاب والأجمات تارة ثالثة.

كانا يصلان إلى الجدول في لحظة واحدة، وفي لحظة واحدة ينكفئان على الماء وهما يفرقان الأعشاب. لم يكن ثمة مجال لغسل الأيدي وغرف الماء بالأيدي، بل كانا يشربان مثل الأيائل، مدليين رأسيهما فوق الماء وغامرين وجهيهما في التيار المدغدغ.

يا فأراً أزرق أعطني ماء!
يا فأراً أزرق أعطني ماء!
يا فأراً أزرق أعطني ماء!

يتمددان عند الجدول ورأساهما مدليان إلى الماء. وتلتصق أكتافهما، وتتشابك ايديهما الغائصة في التيار السريع فيبدو وكأن لهما زوجاً واحداً من الايدي. ويشربان وهما يمصان الماء بشفاههما، ويتوقفان لالتقاط الأنفاس، ويرتويان في تلذذ ويلهوان ويبقبقان بأفواههما في الماء. كانا يودان لو لم يتركا فيه انعكاسهما المتلاشي السريع فيبتسمان لهذه الانعكاسات المشوهة المضحكة، ويبتسم واحدهما للآخر.

يا فأراً أزرق أعطني ماء!
يا فأراً أزرق أعطني ماء!
يا فأراً أزرق أعطني ماء!
يا فأراً أزرق أعطني ماء!..

ودون أن ترفع موزلوك وجهها عن الجدول تنظر إليه بطرفي عينيها المستطيلتين بمكر، فينظر إليها بالطريقة نفسها ويبتسم بمكر. وتدفعه بكتفها وكأنها تريد إبعاده عنها وهو لا يتزحزح. وعند ذاك تملأ فاها ماء وتطلقه على وجهه، فيفعل الشيء نفسه.. يملأ فاه أكثر ويطلق في وجهها نفثة قوية. وبذلك يبدأ الهرج والركض الجامح. كانا يتراكضان وسط الماء ويرشانه على بعضهما البعض قدر ما يستطيعان، وينطلقان جرياً في الجدول رائحين غاديين، مبللين من رأسيهما حتى أخمص القدمين بينما تدوي ضحكاتهما وصياحهما...

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

كان من المحزن لكيريسك أن يدرك أن هذا لن يتكرر أبداً. أصبح التنفس أكثر صعوبة، وازدادت تقلصات المعدة. وراح يبكي بصوت خافت ويتلوى من الألم، ويخاطب ذلك الفأر الأزرق:

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

وهكذا استلقى ممدداً. وهو يحاول أن ينسى آلامه في الأحلام. ولم يتغير شيء من حولهم. ظلت غلالة الضباب البيضاء مسدلة بلا حراك. وكانوا مطروحين في الزورق بلا حول، كل في مكانه. ولم يكن معروفاً ما الذي يخبئه لهم المستقبل. وفجأة اهتز القارب، وسمع الصبي صوت أبيه المذعور:

- ميلجون! يا ميلجون! ماذا تفعل؟ كفى!

رفع كيريسك رأسه فذهل. كان ميلجون قد دلى رأسه فوق حاجز القارب وراح يغرف ماء البحر بالمغرفة ويشرب.

وانقضّ عليه امرايين لينتزع منه المغرفة وصاح:

- كفى!

ولكن ميلجون تحفز مهدداً:

- إياك أن تقترب! سأقتلك!

وراح يشرب ذلك الماء المالح المر الذي كان من المستحيل تذوقه. وكان الماء يسيل على صدره وذراعيه، بينما هو يشرب ويغص ويجبر نفسه على الشرب ويهيل على وجهه المغرفة بذراعين مرتعشتين. وكان وجهه أثناء ذلك مكشراً كسحنة وحش. ثم طوح المغرفة في قاع القارب، وارتمى على ظهره وهو ينتحب بحشرجة مخنوقة. وهكذا ظل ممدداً دون أن يكون باستطاعة أحد أن يقدم له أي عون. أما كيريسك فقد انكمش رعباً وأحس بمزيد من العطش والآلام الحادة في بطنه. وعاد امرايين المقهور إلى التجذيف، وساق القارب على مهل وسط الضباب على غير هدى. ولم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً آخر.

وكان ميلجون يهدأ تارة، وتارة أخرى يرتعش في تقلصات عصبية وهو يتحشرج مشرفاً على الموت من نوبة العطش. إلا أنه بعد فترة رفع رأسه وصاح وهو يمزق ثوبه عن صدره:

- النار! النار تأكل احشائي.

- قل لي كيف أساعدك؟ ماذا أفعل لك؟- قال امرايين ثم أومأ برأسه إلى وعاء الماء - هناك القليل منه، هل أصب لك؟

فرفض ميلجون:

- كلا. الآن لا. أردت أن أصبر حتى الليل ثم أفعل مثلما فعل جدنا المرحوم، ولكني لم أستطع. فليكن، وإلا ارتكبت شيئاً ما. وإلا شربت الماء كله. أما الآن فقد حلت نهايتي، وسوف أرحل. الآن حلت نهايتي... وسأفعل ذلك بنفسي.. ما زلت قادراً...

وسط البحر الخاوي والضباب الذي لم تكن له حدود أو نهاية

بدت رهيبة وغير محتملة كلمات رجل حكم على نفسه بالموت البطيء. وحاول امرايين بصورة ما أن يهدئ صديقه وأخاه ميلجون، أن يقول له شيئاً ما، لكن الأخير لم يشأ أن يصغي إليه، فقد كان يتعجل إنهاء عذابه بضربة واحدة.

ودمدم كالمجنون:

- لا تقل لي شيئاً يا امرايين، فات الأوان! سأفعلها بنفسي. سأذهب. أما أنتما، الأب والابن، فقررا ما تريانه. هكذا أفضل. ولتعذراني على هذا التصرف. أنتما أب وابن فلتبقيا ما زال هناك القليل من الماء.. أما أنا فسأعبر... وبهذه الكلمات نهض ميلجون منحنياً ومستنداً إلى جانب القارب. واستجمع كل قواه وهو يترنح، وقال لامرايين وهو ينظر شذرا:

- إياك أن تمنعني يا رجل! لا بد من ذلك. إياك من أن تمنعني. وداعاً. ربما تصلون.. أما أنا فحالاً.. وعليك أن تبتعد بالقارب بسرعة بعدها... على الفور، لا تنتظر.. لو اقتربت منى سأقلب القارب. أما الآن فجذف، جذف، يا رجل بقوة.. أتسمعني، وإلا قلبت القارب...

ولم يكن أمام امرايين إلا أن يصدع لتهديدات ميلجون وتوسلاته. فمضى القارب في خط مستقيم وهو يشق الضباب الساكن والمياه الساكنة. وبكى كيريسك متوسلاً:

- يا عم ميلجون، يا عم ميلجون، لا داعي!

وفي هذه اللحظة بالذات تدلى ميلجون عبر جانب القارب. ومال القارب بشدة ثم اعتدل.

وصاح ميلجون وهو يتخبط في المياه الثلجية:

- ابتعد، ابتعد بالقارب!

وعلى الفور اختفى عن الأعين في الضباب. وهدأ كل شيء، ثم

دوى صوته في السكون الحاد.. كانت آخر صرخة من غريق. ولم يتمالك امرايين نفسه فهتف:

- ميلجون! ميلجون!- واستدار بالقارب وهو يجهش بالبكاء.

وعادا بسرعة، إلا أن ميلجون لم يكن هناك. كان سطح المياه أملس هادئاً، كأنما لم يحدث شيء. وأصبح من الصعب تحديد المكان الذي غرق فيه الرجل.

وظلا بقية النهار يدوران بالقارب هنا دون أن يقصدا مكاناً آخر. وراحا يبكيان وقد هدّتهما الفجيعة. كانت تلك أول مرة يرى فيها كيريسك أباه يبكي، إذ لم يحدث له ذلك من قبل أبداً. ودمدم امرايين وهو يمسح الدموع من ذقنه ولا يستطيع السيطرة على نفسه:

- ها نحن قد أصبحنا وحدنا - ومضى يهمس وهو يجهش - ميلجون، يا أخي المخلص ميلجون!

ومال النهار إلى المغيب. أو هكذا خيل إليهما. فلو أن الشمس موجودة في مكان ما، ولو أنها تسير في السماء فوق البحار والضباب، فلا شك أنها الآن مضت إلى مستقرها في سكون. أما هنا، تحت ستار الضباب الكثيف الذي مال بالتدريج إلى اللون الداكن بعد أن تشبع بعتمة الغسق، فقد دار في البحر قارب تائه وحيد، لم يبق فيه الآن سوى شخصين: أب وابنه.

وقبل ذلك، قبل أن يقول امرايين لنفسه إن المساء قد اقترب، قرر أخيراً أن الأوان قد آن لكي يشربا قليلاً. ورأى كيف كان كيريسك ينتظر هذه اللحظة وهو يكابد العذاب، وادرك مدى المشقة التي تحملها ابنه وهو يغالب العطش والجوع ويصارع نفسه دون أن ينبس ببنت شفة. وبدا كأنما طغى مصرع ميلجون على أي تفكير في الماء لأمد طويل. بيد أن العطش أخذ يفصح عن نفسه تدريجياً حتى استعر من جديد بصورة مضاعفة، منتقماً بقسوة مما حدث من نسيان عفوي له.

وبحذر بالغ، وحتى لا يهدر قطرة واحدة، صبّ امرايين قليلاً من الماء المعطن لكيريسك أولاً. وقبض الصبي على المغرفة وأفرغ في جوفه على الفور نصيبه من الماء كمن أصابه مس. ثم صب امرايين لنفسه، واكتشف أن ما بقي في الوعاء بعد ذلك لا يكاد يغطي القعر. وفهم كيريسك ذلك أيضاً وهو ينظر إلى الوعاء المائل في يدي أبيه. وعلت وجه امرايين صفرة الموت عندما اكتشف ذلك مصعوقاً، بالرغم من أنه كان يتوقعه. وعندئذ لم يتعجل امرايين شرب نصيبه. أمسك بالمغرفة في يديه مستغرقاً في التفكير، وقد هزت كيانه فكرة داهمته فجأة.. فكرة لم يعد إرواء الظمأ بعد ظهورها يعني شيئاً.

وقال وهو يناول المغرفة لابنه:

- خذ، امسك...

لم يكن ينبغي أن يفعل ذلك. فإمساك المغرفة الملأى بالماء مع الامتناع عن شربه كان عذاباً حقيقياً بالنسبة للصبي. وعندما أصبحت يده حرة أغلق امرايين الوعاء شبه الفارغ جيداً ووضعه في مكانه.

وقال لابنه:

- اشرب.

فدهش الصبي وسأله:

- وأنت؟

فأجاب الأب بهدوء:

- فيما بعد. لا تفكر في شيء. اشرب.

ومن جديد أفرغ كيريسك في جوفه على الفور هذه الجرعة من الماء العطن. ولم ينطفئ الظمأ كما كان كيريسك يود، إلا أنه أحس ببعض الراحة.

وسأل الأب:

- كيف الحال؟

فهمس الصبي بامتنان:

- أحسن قليلاً.

- لا تخف. وتذكر أن الإنسان يستطيع أن يعيش يومين أو ثلاثة دون قطرة ماء. ومهما حدث فلا تخشى شيئاً...

وقاطعه الصبي:

- ولهذا لم تشرب؟

ارتبك امرايين وقد فاجأه هذا السؤال. وبعد أن فكر قليلاً أجاب باقتضاب:

- نعم.

- وكم يستطيع الإنسان أن يعيش دون طعام؟ إننا لم نأكل منذ زمن طويل.

- المهم أن يكون لديه ماء. ولكن لا تفكر في ذلك. هيا بنا نمضي قليلاً. إنني أود أن أتحدث معك.

حرك امرايين المجذافين فمضى الزورق ببطء وسط الضباب، وكأنما لم يكن من الممكن أن يتحدثا في المكان الذي كانا فيه. كان على الأب أن يستجمع رباطة جأشه. وخيل إليه أنه مع الحركة سيكون من الأسهل عليه أن يركز أفكاره ويعد نفسه لذلك الحديث، الذي كان مجرد التفكير فيه يعصر قلبه. ولم يكتف بالتجذيف وحده، بل أمر ابنه أن يمسك بالمجذافين الآخرين. ولم يكن ثمة أي داع لذلك، كما لم يكن أي داع للمضي إلى جهة ما. وراح الصبي يحرك بصعوبة المجذافين البحريين الكبيرين جداً بالنسبة له. لو كان مجذافاً واحداً لتمكن منه، أما بالنسبة لمجذافين فقد كان صغيراً بعد. كما كان واضحا أن الصبي قد ضعف مثلما كان أبوه يضعف من ساعة لأخرى. وهذا ما جعل الأب يستعجل الأحداث. كان الوقت يمضي.. كان يوشك أن ينتهي. حرك كيريسك المجذافين بلا انتظام، صامتاً ودون

أن يلتفت. ولم يكن ذلك هو ما يعذب امرايين. راح ينظر إلى ظهر ابنه، إلى جسده المنكمش الذي لاحظ الآن أنه نحيل ضعيف كأجساد الأطفال، واخذ يعض شفتيه، بينما نزف قلبه دماً - وقد أحس ذلك بحدة - تياراً حاراً دافقاً بالالم. ولم يجرؤ على فتح الحديث، رغم أنه لم يكن أمامه خيار آخر...

وشيئاً فشيئاً انخفض مدى الرؤية في عمق الضباب، بينما راح امرايين يجذف والأفكار الثقيلة تعصره، والوقت يمضي ولم يعد لديه منه إلا القليل بالفعل. وبالرغم من تجلده، بالرغم من قوته الخارقة التي وهبته إياها الطبيعة، فقد تغلب عليه الظمأ والجوع بسرعة، واستهلكا قواه. كان عليه أن يسرع ليعد ابنه ليتقبل ما عقد عليه العزم في هذه اللحظة. كان عليه أن يقوم بذلك وهو بعد متمالك لنفسه وإرادته.

كان يدرك أن عليه أن يترك القارب مثلما فعل أورجان وميلجون، وتلك هي الفرصة الوحيدة إن لم يكن للحفاظ على حياة ابنه فعلى الأقل لإطالتها بقدر ما تسمح به كمية المياه القليلة التي تبقت في قعر الوعاء. ولم يكن في وسعه أن يقطع لنفسه بأن الضباب سينقشع هذه الليلة، أو نهار غد، بل ولم يكن في وسعه أبداً أن يحدد لنفسه ما الذي سيواجه ابنه مستقبلاً، حتى لو تحسن الجو عاجلاً ام آجلاً، وكيف سيبقى على قيد الحياة وينجو بعد أن يصبح وحيداً في البحر. لم تكن هناك إجابة على هذا السؤال. والأمل الوحيد الضعيف، أو ربما المستحيل التحقيق، والذي حاول أن يقنع به نفسه، هو أنه إذا ما صفا البحر فربما التقى الصبي صدفة بقارب كبير من قوارب الرجال البيض. كان يعرف مما سمعه أن الرجال البيض يظهرون أحياناً في هذه المياه. فقد كانوا يمخرون المحيط، بعيداً عن شواطئهم، لقضاء شؤون خاصة بهم، قادمين من بلدان بعيدة وقاصدين أخرى بعيدة. أما

هو نفسه فلم يقابلهم البتة، لكنه سمع بذلك من التجار الذين يعرفون كل شيء في الدنيا، بل إن بعضهم ركب هذه القوارب الضخمة كالجبال التي يركبها البيض. ولو صفا الجو، ولو تقابلت الدروب، ولو لاحظ الرجال البيض هذا الزورق الخشبي الصغير في المحيط، فتلك هي المعجزة التي يمكن أن تكون أملاً، واهياً، غير معقول، مستحيلاً تقريباً، إلا أنه أمل على كل حال.

هذا ما أراد امرايين أن يقوله لابنه قبل أن يفارقه. كان لا بد أيضاً أن يقنع كيريسك وأن يوصيه ويؤكد عليه بأن يبقى في القارب حتى آخر رمق وما دام في وعيه. وإذا ما قدر له أن يموت بعد نفاد الماء، فليمت في القارب ولا يلق بنفسه في البحر كما اضطر إلى ذلك العجوز أورجان وميلجون وكما سيضطر إليه هو أبوه. لم يكن ثمة أي بديل آخر. لا بد من الإذعان والتسليم بالقدر القاسي... إلا أن الرعدة سرت في أوصال امرايين عندما فكر في أن صبياً صغيراً، في الحادية عشرة من عمره، سيبقى في القارب وحده وجهاً لوجه مع الدنيا كلها، في ذلك الضباب الأصم، في البحر اللانهائي، لكي يموت ببطء من العطش والجوع. كان من المستحيل التسليم بذلك، كان ذلك أكبر من أن تتحمله طاقته. وفي هذه اللحظة فطن إلى أنه يفكر أنه لن يستطيع أن يترك ابنه بمفرده، وأن من الأفضل أن يموتا معاً...

وسرعان ما أطبق الظلام. ومن جديد شمل البحر ليل ضبابي حالك السواد. وإذا كان السير بالقارب دون جهة محددة في الضباب نهاراً لا معنى له، فإن ذلك ليلاً لا معنى له أكثر. وراح القارب يتأرجح في مكانه على مهل. ولم تبد أية بوادر تشير إلى أن الجو سيتغير. كان البحر ممدداً بلا حياة.

استقر الأب وابنه متلاصقين في قاع القارب ليقضيا الليلة، ولم ينم

أي منهما. كان كل منهما يفكر فيما ينتظرهما وقد عذبهما الجوع والعطش...

شعر كيريسك وهو راقد بجوار أبيه بأن أباه قد هزل بشدة وضعف خلال هذه الأيام، وبأن جسمه تضاءل ووهن. لم تبق إلا لحيته خشنة ومرنة كما كانت. وعندما التصق الصبي بأبيه وهو يذرف الدموع إشفاقا عليه، أدرك في تلك الليلة أحاسيس لم تراوده من قبل، أحاسيس الارتباط الفطري بالأب. ولو أراد أن يعبّر عنها بالكلمات لما استطاع... فقد كانت كامنة في أعماق روحه، وفي دمه، وخفقات قلبه. كان من قبل يعتز دائماً بأنه يشبه أباه، وكان يقلده، ويحلم بأن يصبح مثله. أما الآن فقد أدرك أن أباه ليس إلا هو، كيريسك نفسه، أدرك أن اباه هو البداية، أما هو فامتداد له. ولهذا شعر بالألم والإشفاق على أبيه كما لو كان يتألم ويشفق على نفسه. وراح يضرع حقاً إلى الفأر الأزرق كي يجلب لهما الماء.. له ولأبيه:

يا فأراً أزرق أعطنا الماء!
يا فأراً أزرق أعطنا الماء!

أما الأب فلم يعد يفكر في الماء لنفسه، بالرغم من أنه مع كل ساعة تمر كان يحس أكثر بوطأة العذاب من جراء الظمأ المستبد المتزايد، الذي لم يعد من الممكن تحمله بدنياً. كان كل ما في جوفه يحترق ويجف وينكمش غصة حديدية لا ترتد. وارتفع في رأسه طنين. لقد أدرك الآن عذاب اللحظات الأخيرة في حياة ميلجون. ومع ذلك لم تكن أفكاره تدور حول ذلك. لم يكن ثمة معنى للتفكير الآن في الماء والرغبة في الارتواء. ولولا ابنه، ولو كان قادراً على ترك هذا الصبي الراقد في كنفه هذه الليلة الظلماء الأخيرة، لوضع منذ وقت بعيد حداً لهذه الآلام اللامجدية. فمن أجل ابنه، حتى وإن لم يكن

لديه أدنى أمل في النجاة، ومع ذلك، وبالرغم من ذلك سيظل يحميه حتى آخر لحظة، من أجل أن يطيل عمره بقدر ما يستطيع، وهو ما تجسد فيه الآن صراع الأب وأمله، وما رأى فيه الآن رجاءه الأخير وخطوته الأخيرة، من اجل كل هذا ينبغي عليه أن يترك القارب بأسرع ما يمكن. إلا أنه بسبب ابنه بالذات لم يستطع أن يحسم الأمر خشية أن يتركه لعبث الأقدار. بيد أن التباطؤ والتسويف كان أيضاً خطراً.. فقد كانت تفارقه آخر قواه التي كان بحاجة إليها ليحزم أمره...

كان الزمن الباقي من عمر الأب يتلاشى...

كيف يشرح ذلك لابنه، وبأية كلمات؟ كيف يقول له إنه يفارقه من أجله؟...

وفجأة همس كيريسك: «يا أبي!» وكأنه يحس بأفكار أبيه، وازداد به التصاقاً وهو يضرع إلى فأره:

يا فأراً أزرق أعطنا ماء!
يا فأراً أزرق أعطنا ماء!

وعض امرايين على أسنانه وأنَّ من الألم ولكنه لم يجرؤ أن يقول شيئاً. وودع ابنه بينه وبين نفسه، وكلما طالت فترة الوداع أصبح أصعب عليه وأشد إيلاماً أن ينهض ليقدم على الخطوة الأخيرة. لقد أدرك في هذه الليلة أن كل حياته السابقة كانت مقدمة لهذه الليلة. لقد ولد وها هو يموت كي يطيل حياته في ابنه بكل ما تبقى لديه من قوة. كان يفكر في ذلك في تلك اللحظة وهو يودع ابنه في صمت. لقد اكتشف امرايين لنفسه اكتشافاً: فقد كان طوال حياته ماكانه لكي يواصل نفسه في ابنه حتى آخر رمق. وإذا لم يكن قد فكر في ذلك من قبل فإنما لأنه لم تكن ثمة أسباب لذلك.

وهنا تذكر أنه مر من قبل بأحوال طافت فيها هذه الفكرة بذهنه كما

يومض البرق في السماء. تذكر ذلك وأدرك الآن ما حدث له ذات مرة، عندما اجتث هو والمرحوم ميلجون ونفر من بني عشيرتهم شجرة عظيمة في الغابة. بدأت الشجرة تتهاوى، وبمحض الصدفة كان هو في الجانب الذي مالت نحوه تلك الشجرة العملاقة المتهاوية وهي تحطم كا ما في طريقها. وصاح الجميع بصوت واحد:

- احترس!

وتجمد امرايين في مكانه وقد أذهلته المفاجأة. لم يكن هناك وقت للتراجع، فقد أخذت الشجرة تسقط نحوه ببطء ودون أن تحيد، وهي تصر وتزمجر بذؤابتها المتكسرة وتقلب معها السماء نازعة قطعة من سقف الغابة الأخضر. وفي تلك اللحظة الخاطفة لم يفكر إلا في شيء واحد، وهو أن كيريسك - وكان آنذاك ابنه الصغير الوحيد، إذ لم تكن بسولك قد ولدت بعد - هو ما سيكونه امرايين نفسه بعد موته. هذا هو ما فكر فيه ولم يكن لديه الوقت للتفكير في غيره في تلك الثواني المعدودة وهو على عتبة الموت الأكيد. وسقطت الشجرة بجواره مثيرة دوياً مهيباً ولفحته بموجة من الأوراق والغبار. وصرخ الجميع بارتياح، فقد نجا امرايين ولم يمسسه سوء!

وعندما تذكر ذلك الآن أدرك أن مولد ابنه بالذات هو الذي جعل منه ما هو عليه، ولم يشعر امرايين في حياته بمشاعر أقوى أو أنبل من مشاعر الأبوة. وكان ممتناً على ذلك لأبنائه، وفي المقام الأول لابنه كيريسك. وأراد امرايين أن يخبر كيريسك بذلك، لكنه أحجم عن إزعاجه، إذ يكفي الصبي ما يلاقيه من مشقة...

كان الزمن الباقي من عمر الأب يتلاشى...

يا فأراً أزرق أعطنا ما!

يا فأراً أزرق أعطنا ماء!

كان الزمن الباقي من عمر الأب يتلاشى. . .

بقيت لديه اثنتان أو ثلاث ذكريات غاليات كان من الصعب عليه أن يفارقها. ولم يشأ أن يرحل دون أن يسترجعها، رغم أن الوقت لم يدع له متسعاً. وراح الآن يودع ذكرياته وهو يفكر في الوقت نفسه بأن عليه أن يترك القارب. . .

أحب زوجته منذ الأيام الأولى. والأمر المدهش أنه كان يفكر وهو في البحر في نفس ما تفكر فيه وهي في البيت. هكذا كان منذ الأيام الأولى. كانت تعرف ما يفكر فيه وهو في البحر، كما كان هو يعرف أفكارها. . . وكانت هذه المعرفة عن بعد سرهما وسعادة الوصال التي لم يذق مثلها أحد.

وقبل أن يولد كيريسك، وقد ظهرت الدلائل الاولى والتي كان من الممكن أن تصدق أو لا تصدق، سأل امرايين زوجته فور عودته:

- هل سنرزق صبياً؟

- هس، قد تسمعك الأرواح!- قالت مذعورة بينما امتلأت عيناها بالفرحة - من أين عرفت؟

- أنت فكرت اليوم في ذلك. أنت ترغبين في ذلك بشدة.

- وأنت؟

- أنت تعرفين أنني أعرف فيم أنت تفكرين، وأنا أيضاً كنت أفكر في ذلك.

- وأنا فكرت في ذلك لأنك فكرت فيه وكنت ترغب في ذلك بشدة. . .

وهذا ما حدث. . . تحقق حدسهما. ولم يكن كيريسك قد ظهر بعد لكنه كان ينبغي أن يظهر قريباً. وأخذ الموعد يقترب. وفي تلك الفترة كانت زوجته ترتدي سرواله الجلدي القديم المرقع، الذي أكل عليه الدهر وشرب. وأوضحت سبب ذلك بأن روح زوجها الرجولية

ينبغي أن تكون موجودة عندما يكون هو غائباً في البحر، وإلا فلن يكبر جيداً المولود القادم. وفي تلك الأيام كانت زوجته، في سرواله الجلدي القديم، أجمل النساء وأكثرهن جاذبية!

يا لها من أيام حلوة سارة ومقلقة تلك التي كانا يفكران خلالها فيمن سيجعل منهما أباً وأماً. . .

وكان ذلك هو كيريسك. . .

والآن كان عليه أن يفارقه ويفارق كل ما يرتبط به، إلى الابد.

نعم، ثمة شيء آخر - فعندما كبر كيريسك، قالت له أمه ذات مرة، وقد أغضبها، إنها كانت تنعم بالراحة بدونه قبل أن يوجد.

وأحس الصبي بإهانة شديدة.

وعندما عاد أبوه من البحر ألح عليه بالسؤال:

- وأين كنت أنا عندما لم أكن موجوداً؟

وكم ضحكا من ذلك. . ضحكا ولكن بالأعين فقط. وأمتعها بصفة خاصة أنه لم يعرف كيف يرد ولا كيف يتصرف، وكيف يشرح للصبي أين كان عندما لم يكن موجوداً.

والآن كان بوسع الاب أن يقول له، إنه كان فيه عندما لم يكن موجوداً في الدنيا، إنه كان في دمه، في ظهره، ومنه تسرب إلى رحم الأم، وظهر مكرراً أباه، وعندما يرحل الاب الآن ويختفي، فسوف يبقى في ابنه، لكي يتكرر في أبناء أبنائه. . .

نعم، كان في وسعه أن يقول له، وسيكون سعيداً لو قال ذلك بالتحديد قبيل الموت، ولكن النهاية حلت، نهاية نسلهم كله. فحياة كيريسك يمكن أن تطول يوماً أو يومين، لا أكثر وكان الأب يدرك ذلك جيداً. وكانت المأساة والفاجعة التي لا ترحم هي هذا، وليست هي اضطراره إلى ترك القارب من أجل ابنه. . .

وأراد امرايين أن يوصي ابنه في الختام بأن يفكر بامتنان خلال ما

تبقى له من عمر في العجوز أورجان والعم ميلجون. إنهما الآن ليسا على قيد الحياة، وسيان لديهما أن يتذكرهما أحد أم لا يتذكر، ولكنه ينبغي أن يفكر فيهما على هذا النحو من أجل نفسه. وحتى قبيل الموت بلحظة ينبغي على المرء أن يفكر في ذلك من أجل نفسه. وساعة الموت ينبغي عليك أن تفكر في أمثال هؤلاء الناس من أجل نفسك.

ولكنه قرر فيما بعد أن ابنه ربما توصل إلى ذلك من تلقاء نفسه. . .

* * *

عندما استيقظ كيريسك أدهشه أن مضجعه كان أدفأ من الليالي السابقة. كان متدثراً بسترة أبيه. وفتح الصبي عينيه، ورفع رأسه، لم ير أباه في القارب. واندفع من مكانه باحثاً عنه في القارب، وبدر منه صراخ رهيب ودوى بلوعة في صمت البحر الضبابي المقفر. وظل صراخه الوحيد المفعم يأساً وألماً يتردد طويلاً. كان يبكي بحرقة، إلى درجة الاعياء، ثم ارتمى في قاع القارب وهو يتحشرج ويدق برأسه. كان ذلك ضريبة يدفعها للآباء الذين انحدر من صلبهم، وكان ذلك حبه ولوعته ونديبه عليهم. . .

ظل الصبي ممدداً في قاع القارب دون أن يرفع رأسه أو يفتح عينيه. . لم يكن ثمة ما ينظر إليه أو يلجأ اليه. فمن حوله امتد الضباب الباهت نفسه، أما البحر فقد اهتز قليلاً هذه المرة وهو يؤرجح القارب ويدور به في مكانه.

بكى كيريسك وهو يتحسر ويبكت نفسه على أنه نام، ولولا ذلك لما ترك أباه يرحل، ولتشبث به بيديه وأسنانه ومنعه من الرحيل، فليموتا معاً، وليهلكا من العطش والجوع، على أن يبقى وحده في وحدة رهيبة مطلقة. أخذ يوبخ نفسه ويلومها باكياً لأنه لم يستيقظ ولم

يهبّ من نومه ويصرخ عندما أحس فجأة في الليل بالقارب يهتز بشدة ويتأرجح اثر دفعة حادة. فهل كان يسمح بأن يلقي أبوه نفسه في البحر! أو لم يكن ليلقى بنفسه معه في هذه الأعماق السوداء!

وبعد ذلك غاب عن وعيه شيئاً فشيئاً وهو يختلج ويبكي. وبعد زمن قليل انتابته نوبة عطش أقوى من السابق، وكأنما العطش ينتقم من الصبي الذي نسيه فترة بسبب حزنه. وحتى وهو غائب عن وعيه أحس بالعذاب والمعاناة من الجفاف. كان العطش يصرعه ويمزقه ويخنقه. وعندئذ زحف كالأعمى حتى الوعاء، فأكتشف أن غطاءه مخلخل قليلاً حتى يسهل نزعه، وكانت المغرفة بقربه. وصب لنفسه ماء، وشرب وهو لا يفكر في شيء، وفك بذلك شفتيه الملتصقتين وانقباض صدره. واراد أن يصب مرة أخرى ويشرب، ولكنه عدل واستطاع أن يكبح نفسه. لم يبق من الماء إلا ما يكفي لمرة أو مرتين...

ثم جلس مهموماً وهو يفكر لماذا رحل أبوه دون أن يقول كلمة. لقد كان من الأسهل عليه أن يغرق مع أبيه من أن يفعل هذا الآن عندما قيدت أغلال الوحدة والخوف يديه وقدميه وعندما يخشى إلى هذا الحد أن يعبر حاجز القارب وحده. ولكنه قرر أن يفعل ذلك لمجرد أن يستجمع قواه...

كان الوقت منتصف النهار أو ربما بعده بقليل. هكذا خيل لكيريسك استنتاجاً من لون الضباب المائل إلى الإشراق. وإذن فالشمس في مكان ما من السماء. إلا أن اشعتها لم تخترق بعد جدار الضباب العظيم الجامد فوق المحيط. أصبح الضباب أخف، مائلاً إلى الزرقة، مثل الدخان المتصاعد من أحطاب جافة. ومع ذلك فلم يكن يلوح منه شيء لأكثر من عشرين أو ثلاثين ذراعاً، اللهم إلا المياه الداكنة الرجراجة.

لم تكن ثمة وجهة يقصدها، ولو أراد أن يمضي لما استطاع أن

يسيطر على المجاذيف. ونظر بأسى إلى مجاذيف ابيه وميلجون الموضوعة بترتيب على حافتي القارب. وكان الزورق الآن يسبح تلقائياً، قاصداً في الضباب وجهة غير معروفة. ومن كل الأنحاء أطبقت على الصبي الوحدة، ومن حوله ساد رعب طاغ يقبض النفس. وقبيل المساء أحس برغبة ممضة في الشرب. ودار رأسه من الجوع والضعف. لم يجد في نفسه أي ميل لأن يتحرك أو ينظر إلى ما حوله. ثم إنه لم يكن هناك ما ينظر إليه. حتى الوصول إلى الوعاء أصبح صعباً. زحف على ركبتيه ثم توقف من التعب. وأدرك أنه عما قريب سيعجز عن الحركة. ورفع يديه إلى عينيه وصعق.. فقد هزلت وصغرت وأصبحت كجلد السنجاب الشفاف.

شرب في هذه المرة أكثر مما ينبغي. ولم يتبق من الماء إلا مقدار يسير في قعر الوعاء، لا يكفي إلا لمرة واحدة، وبعدها يصبح بلا شراب. بلا قطرة ماء. إلا أنه لم يعد يبالي. فرغماً عن أي شيء كان يريد أن يشرب، وكان الظمأ نهما لا يشبع. وخفت حدة الجوع، واستقر في معدته ألم متواصل ثقيل ناخر.

غاب عن وعيه وأفاق عدة مرات، بينما سار القارب تلقائياً وسط الضباب وقد دفعته التيارات التي دبت فيها الحياة.

وفي لحظة ما قرر جدّياً أن يلقي بنفسه إلى البحر. ولكن قواه لم تسعفه. فقد جثا على ركبتيه وتدلى فوق جنب الزورق. وظل هكذا مدلى، ماداً يديه فوق الحاجز، عاجزاً عن إلقاء جسده خارج القارب. ثم خارت قواه إلى درجة أنه لم يحاول شرب ما تبقى من ماء في الوعاء.

رقد في قاع القارب وبكى بصوت خافت وهو يدعو فأره الساقي:

يا فأراً أزرق أعطني ماء!..

لكن الفأر الأزرق لم يأت، وازدادت الرغبة في الشرب. ومن جديد تذكّر ذلك الصيف الذي استحم فيه عارياً في الجدول. لم يكن قد تجاوز السابعة. وكان الصيف من ذلك العام حاراً. وفي طرف الغابة كانت حرارة الشمس شديدة. كانوا هناك يجمعون الثمار البرية. ثم استحموا. واستحمت أمه وخالته أيضاً. لم تخجلا منه، خلعتا ملابسهما فظهرت سمرة أفخاذهما اللامعة، ونزلتا إلى الجدول بتهيب وهما تستران أثداءهما بأيديهما. وصرختا بصوت غريب، وتصايحتا وطرطشتا الماء. وعندما ركض بمحاذاة الجدول وقفز فيه من الشاطئ ضحكتا منه بشدة، وخاصة أمه. وقالت لخالته: «انظري، انظري، كيف يشبهه، مثله تماماً!». وقالتا أشياء أخرى وهما تتهامسان بخبث وتضحكان بدلع... اما الماء فقد انساب في الجدول تياراً لا ينتهي، وكان من الممكن أن تشرب حتى الارتواء وتستحم فيه قدر ما تشاء...

يا فأراً أزرق أعطني ماء!

وخيل إليه أنه عند ذلك الجدول ثانية. وكأنما يستحم فيه من جديد عارياً في الصيف الحار. ها هو يجري على الشاطئ، ويقفز في الماء ولكنه لا يشعر ببرودة التيار. كان ماء لا يُحس ولا يلمس.. كان ضباباً. إنه يستحم في الضباب. وشعر بالقشعريرة في هذه المياه. أما أمه فلا تضحك، بل تبكي. وتقول لشخص ما: «انظر، انظر كيف يشبهه!» وتبكي، تبكي بحرقة... ودموعها مالحة، تسيل على وجهها...

* * *

استيقظ كيريسك ليلاً من تأرجح القارب وهدير الأمواج من حوله. وصرخ الصبي بصوت واهن.. لقد رأى النجوم فوق رأسه! لأول مرة

طوال هذه الأيام. كانت تلمع عالياً في السماء المظلمة في فجوات السحب الراكضة فوق البحر. حتى القمر ظهر عدة مرات وهو يغوص بسرعة في السحب.

كان الصبي مذهولاً.. فالنجوم، والقمر، والريح، والأمواج هي الحياة والحركة! ورغم أن الضباب كان لا يزال منتشرا في كتل، وعندما يدخلها القارب يعود كل شيء مسربلاً بالظلام العكر، إلا أن ذلك لم يكن يستمر طويلاً. لقد تحرك الضباب العظيم وخرج من جموده وأخذ ينتشر في الدنيا تسوقه الرياح والأمواج.

نظر الصبي إلى النجوم وقد اغرورقت عيناه بالدموع. لم يكن قادراً على الإمساك بالمجاذيف ولم يكن يعرف كيف يجد الطريق مسترشداً بالنجوم، ولم يكن يعرف إلى أين يمضي، ولم يكن يعرف أين هو ولا ماذا يخبئ له المستقبل، لكنه كان سعيداً بسماع صوت الأمواج الراكضة وبعودة الحياة إلى الرياح وبانسياب القارب مع الأمواج.

كان يبكي من الفرحة والأسى، لان الدنيا صفت، ولأن الحركة دبت في البحر، ولأنه لو كان معه ماء للشرب وطعام ما، لكان في وسعه أن يحب هذه الحياة. لكنه كان يدرك أنه لن يستطيع الآن أن ينهض من مكانه، وأن أيامه معدودة، وأنه سيموت قريباً من العطش... بينما سار الزورق مع الأمواج أسرع فأسرع. سار مع التيار بلا دفة أو مجاذيف. وبدأت معالم الأفق تلوح مبهمة فوق البحر، واتضحت أكثر الآماد الليلية، وندرت في الطريق كتل الضباب. وحتى الظلام لم يعد هو الظلام السابق، الظلام الأصم الطاغي. وخيل إليه الآن أن مخلوقات خرافية تركض دون صوت في الضباب. كانت تظهر وتختفي مع الرياح من تلقاء نفسها، وهي تذيب الضباب وتبدده في شتى الأنحاء.

وما إن ظهر القمر من وراء السحب حتى ارتعش سطح البحر بحيوية، ولمع، وانطفأ ثانية، ثم عاد فانتعش. ونظر الصبي إلى النجوم المضيئة في صمت وفكر: «ترى أي منها النجوم الحارسة؟ أيها نجمة الجد أورجان، وأيها نجمة العم ميلجون، وأيها نجمة أبي امرايين؟ لم نركن طوال هذه الأيام، وأنتن أيتها النجوم لم تستطعن رؤيتنا في الضباب. وها أنا ذا وحدي، ولا أدري إلى أين أمضي. ولكني لم أعد أخاف لأني أراكن جميعاً في السماء. غير أني لا أعرف أيكن نجمة من. ولكنكن لستن مذنبات فيما حدث، إذ لم تستطعن رؤيتنا في البحر. الضباب العظيم أخفانا عنكن. وها آنذا وحدي. أما هم فقد مضوا، ثلاثتهم مضوا. كانوا يحبونكن جداً أيتها النجوم. كم انتظروا، وكم أرادوا أن يروكن ليجدوا الطريق إلى البر. كان جدي أورجان يقول إن النجوم لا تخدع أبداً. وأراد أن يعلمني. . . ولكنكن لستن مذنبات فيما حدث. أنا أيضاً سأموت عما قريب. ليس عندي ماء، وخارت قواي تماماً، ولا أعرف إلى أين أمضي. . . بقي لدي قليل من الماء، قليل جداً، سوف أشرب الآن، فلم أعد قادراً على التحمل، لا أستطيع أن أصبر أكثر من ذلك. اليوم مضغت قطعة من الكيس الجلدي. ولكني لا أستطيع أن أتحمل أكثر، فذلك يثير فيّ الغثيان ويقلب أمعائي. . . سأشرب الآن آخر ما عندي من ماء. وإذا لم نلتق بعد ذلك فإني أريد أن أقول لكُنَّ أيتها النجوم إن جدي أورجان، وعمي ميلجون وأبي امرايين كانوا يحبونكن جداً. . . إذا عشت حتى الصباح فسوف أودعكن فيما بعد. . .»

ومن جديد دخل القارب منطقة ضبابية واسعة. واختفى كل شيء ثانية وانعدمت الرؤية. لكن الزورق استمر سائراً تدفعه الرياح والأمواج. كان الأمر سيان بالنسبة لكيريسك الآن. فبعد أن شرب ما تبقى من الماء المتعطن تماماً، بقي راقداً بجوار الوعاء الفارغ في

مؤخرة الزورق، في المكان الذي كان يحتله العجوز أورجان عادة. كان يستعد للموت، ولم يعد الضباب الآن يخيفه. لم يأسف إلا على شيء واحد.. على غياب النجوم وعلى أنه ربما لن يتمكن من وداعها... وسادت حالته أكثر فأكثر...

وهكذا رقد كالغائب عن الوعي أو كالنائم، ومر زمن لا يعرف مقداره. ربما كان الوقت الآن بعد منتصف الليل، أو ربما كان الليل على وشك الانتهاء. كان من الصعب تحديد ذلك. فقد انتشرت فوق البحر عتمة خفيفة كالدخان في الريح.

لكن الأقدار تختلف. وكان من الممكن أن يسمع الصبي، أو ألا يسمع. ولكنه سمع. سمع كيف خفق فوق رأسه فجأة جناحان، وطار شيء ما في الظلام فوق القارب على ارتفاع منخفض. وانتفض الصبي وفي لحظة خاطفة استطاع أن يرى أن ذلك كان طائراً كبيراً، قوياً، يخفق بجناحين كبيرين.

وصاح الصبي:

- أجوكوك! أجوكوك!

واستطاع أن يرصد اتجاه طيران البومة القطبية وأن يتذكر اتجاه الريح. كانت الريح تأتي من يساره.. من يساره ناحية قفاه، إلى الخلف قليلاً من أذنه اليسرى!

وصاح في اثر الطائر:

- أجوكوك!

وأمسك بدفة أورجان، موجهاً القارب إلى حيث طارت البومة أجوكوك.

توتر كيريسك وهو قابض على الدفة، واستنفر كل ما تبقى لديه من قوة، ولم يفكر في أي شيء آخر بل تذكر فقط اتجاه الريح والبومة.

لك يكن معروفاً إلى أين اتجهت البومة القطبية ومن أين جاءت. أترى جاءت من جزيرة إلى القارة أم من القارة إلى جزيرة ما. ولكن كيريسك لم ينس ما رواه له العجوز أورجان من أن هذا الطائر لا يطير فوق البحر إلا في خط مستقيم، إنها أقوى طائر، وتطير ليلاً وفي الضباب. وها هو الآن يتبعها.

أما القارب فكان يثب من موجة إلى موجة، وكانت الريح منتظمة. وشحب الظلام، وتلاشى، ولاح بصيص نور في طرف السماء. أما في الأمام مباشرة، فقد أضاءت بسطوع في قبة السماء الزرقاء الداكنة الكثيفة نجمة وحيدة براقة. ولاحظ كيريسك أن النجمة تقف تماماً في الناحية التي وجّه إليها مقدمة القارب. وفطن إلى أنه ينبغي أن يسترشد بها، أن يتبعها ويتجه نحوها، لأن البومة طارت في ذلك الاتجاه. لم يكن يعرف هذه النجمة، لكنه الآن لم يحول عنها عينيه، وبقفاه تذكر اتجاه الريح وقوتها وتيارها.

«اثبتي يا ريح ولا تغيبي. أنا لا أعرف ما اسمك، فالجد أورجان هو الذي كان بوسعه أن يقول لي ذلك. كوني لي كالأخ. لا تغيبي يا ريح ولا تنحرفي في اتجاه آخر. أليس بوسعك أن تبقي مدة طويلة. فلتساعديني إذاً ولا تغيبي. وسوف أعرف اسمك وأدعوك به. أتريدين أن أسميك ريح أورجان؟ وأنت سوف تعرفينني...»

هكذا ناجى الريح المواتية وراح يقنعها بالثبات وينفخ فيها من أرادته وروحه. ولم يحول عينيه عن النجم الهادي الذي سار بالقارب نحوه. ومضى يقول: «أنا أحبك يا نجمي. كم أنت عال وبعيد. أنت أكبر وأجمل نجم. أرجوك لا تغرب، قف مكانك ولا تنطفئ. إنني سائر إليك. فنحوك طارت أجوكوك. أنا لا أعرف إلى أين طارت، إلى الجزيرة أم إلى الأرض الكبيرة. فلتكن طارت إلى الجزيرة، إذن لأمت في الجزيرة. لا تغب يا نجم، لا تنطفئ. أنا لا أعرف ما اسمك

فلا تغضب مني. لم أتمكن من معرفة اسمك. كان بوسع أبي امرايين أن يقول لي ما اسمك. فإن أردت دعوتك باسم ابي، سأدعوك بنجم امرايين. وعندما تظهر في السماء سوف أحييك وأهمس باسمك. فلتساعدني يا نجم امرايين، لا تغب قبل الأوان ولا تنطفئ، لا تختف فجأة خلف سحابة...»

هكذا ناجي نجمه الهادى. وناجى أيضاً الأمواج: «يا أمواج، إنك تدفعين الآن قاربي فما أحلاك. سوف أسميك أمواج العم ميلجون. إنك تمضين إلى حيث طارت أجوكوك. أليس بوسعك أن تتدفقي طويلاً إلى حيث تشائين. لا تذهبي يا أمواج العم ميلجون ولا تضلي الطريق. لو كنت أقدر لجذفت ولكني منهك تماما. إنك ترين أنني أمضي بمشيئتك، ولو قدرت لي النجاة فسوف أعرف دائماً أنك تسيرين بريح أورجان إلى نجم امرايين. وسأبلغ الجميع أن أمواج العم ميلجون تحمل في البحر الخير! فلتساعديني يا أمواج العم ميلجون. لا تغيبي، لا تتركيني...»

* * *

من بين كل النجوم أضاء امرايين أطول فترة. وقبيل الفجر بقي وحده في صفحة السماء. وفي الفجر أشرق بنور قوي رقراق، ثم أخذ يخبو تدريجياً في جو الصباح الرمادي، وظل يلوح طويلاً في السماء بقعة بيضاء ناعمة.

هكذا حل الصباح. ثم صعدت الشمس فوق البحر. وفرح كيريسك وجزع. فرح لظهور الشمس وجزع من لانهائية البحر. وتلألأ البحر بزرقته المرتعشة تحت أشعة الشمس، فبدا أسود تقريباً ومقفراً بلا حدود. وأطبق الصبي بعصبية على الدفة محاولاً أن يوجه القارب حسب الذاكرة ودون أن ينحرف عن اتجاه الريح. وكان ذلك شيئاً مضنياً...

وظل متذكراً حتى دار رأسه وغامت عيناه. . .
وأصبح القارب الآن يسير على هواه. . .

* * *

عندما عاد الصبي إلى وعيه كانت الشمس قد تحولت إلى الناحية الاخرى من السماء. وشد نفسه وتحامل على ذراعيه المرتعشتين وصعد بصعوبة إلى مؤخرة القارب، وجمد بلا حراك مغمض العينين حتى يتغلب على دوار الرأس. ثم فتح عينيه. كان الزورق يسير مع الأمواج. وامتد البحر إلى مدى البصر بمياهه الحية الهدارة. ونظر كيريسك إلى الأمام ثم فرك عينيه مذهولاً. فمن خلف منحنى مياه البحر الخضراء الداكنة سبح نحوه مباشرة الكلب الأبلق. كان الكلب الأبلق يركض لملاقاته! الكلب الأبلق العظيم!

ولاح الشاطئ شريطاً جبلياً رمادياً ازرق عند حافة البحر. لكن الكلب الأبلق، الأبيض الأذن والأبيض ما بين الفخذين، تسامى فوق كل الروابي، وبدت واضحة حلقة الزبد من تكسر الأمواج الأبدي عند سفح الكلب الأبلق. وسمعت في الجو أصوات نوارس الشاطئ. وكانت النوارس أول من لاحظه. وفوق الرابية تصاعد دخان أزرق من نار إشارة خابية على منحدر الصخرة. . .

أيها الكلب الأبلق الراكض عند حافة البحر
ها أنا ذا أعود اليك وحيدا
بدون جدي أورجان
بدون ابي امرايين
بدون عمي ميلجون.
فلتسألني أين هم
لكن في البداية أعطني ماء لأشرب. . .

وأدرك كيريسك أن ذلك مطلع أغنيته التي ستصاحبه حتى آخر أيام عمره. . .

* * *

وفي الظلام كان البحر يهدر ويتململ، وهو ينقض ويتحطم على الصخور. وتأوهت الأرض الصخرية بلوعة وهي تصد ضربات البحر.

وهكذا هما في صراع منذ بدء الخليقة، منذ أن أصبح النهار نهاراً والليل ليلاً، وسيظلان هكذا أبداً، طوال الأيام والليلي ما بقيت الأرض والمياه في الزمن اللامتناهى. . .

طوال الأيام والليالي. . .

* * *

. . . ومرت ليلة أخرى. . .

دوى في البحر هزيم ريح أورجان، وتدفقت في البحر أمواج العم ميلجون، وتلألأ في طرف السماء المشرق نجم امرايين الوضاء.

. . . وحلّ يوم آخر. . .

قرية بايتيك. ديسمبر ١٩٧٦- يناير ١٩٧٧

المحتويات

هذا الكتاب

ليس لدي ما أقوله الآن إلا هذا: لقد رفضت ما لم تستطع روحك الطفولية أن تسلّم به. وفي هذا عزائي. لقد عشت كالبرق الذي لمع مرة وانطفأ. والبروق تقدحها السماء. والسماء خالدة. وفي هذا عزائي.

وعزائي أيضاً أن ضمير الأطفال في الإنسان هو كالجنين في البذرة، وبدون الجنين لا تنبت البذرة. وأياً كان ما سنلقاه في الدنيا فستبقى الحقيقة إلى أبد الآبدين، ما ظلّ الناس يولدون ويموتون...

ISBN 978-9933350802

9 789933 350802